



لوْلُوَّةُ المَجْرَاتِ

رواية

وجدان الحامدي

فاتحة الرواية: بداية الانفجار



في أرضٍ لا تعرف للظلام معنى، حيث النور يفيض بلا انقطاع كأنّه نهر أبدي لا ينضب، ويمتد فوق الليالي والنهارات بلا فاصل، عاشت قلة من الأفراد الذين خُصّوا بموهبة نادرة: القدرة على استدعاء الظلام من قلب النور نفسه. كانوا بمثابة الميزان الخفي الذي يحفظ الكون من الانهيار، لأنّ النور إذا انفرد، صار حارقاً قاتلاً، والظلام إذا استبد، صار خانقاً مُفنيّاً. هؤلاء القلّة كرّسوا أعمارهم، بل وقروناً متواصلة، ليُبْقُوا هذا التوازن قائماً، حتى أن أجسادهم لم تعد بشرية خالصة، بل تحجّرت شيئاً فشيئاً وصارت كتلاً بيضاء تُشبه العاج، بينما قلوبهم ظلت مشتعلة بوميض لا ينطفئ. لقد نالوا هذه الخلود بفضل شلالات "السيرون" الغامضة، التي تُخفي بين هديرها طاقة النور والظلام معاً، وكأنّها الحاجز الذي لا يسمح لكفّة أن ترجح على الأخرى.

ومن رحم هذه التضحيات، انبثقت حضارة عظيمة أطلقوا عليها اسم الرّون. شعب متفرّد، أجسادهم قوية لا تنحني أمام الزمن، وملامحهم كُتبت عليها علامات الخلود. حين يموت أحدهم، يُلقى قلبه في شلالات ستون، فيتبدل لونه وفق ما حمل في حياته من نور أو ظلام. وهكذا صار ميزان العالم يُحفظ بقلوبهم الملقاة، حيث يتعانق الأبيض والأسود في صراع أزلي لا ينتهي. ورغم هذا التفرّد، ظلوا يتنادون بأسماء بشرية، كأن الإنسانية التي ولدت في عروقهم أول مرة ما زالت تصرخ في دواخلهم، تأبى أن تختفي.

وفي قلب هذه الأرض المتناقضة، وُلدت يارا. فتاة تحمل جمالاً فريداً يجرح العيون،
جمالاً كالسيف: براقاً، قاتلاً في آن واحد. عيناها سماويتان، لكن شعرها لم يكن
مستقرّاً، يتبدل لونه بين الأحمر الناري الذي يُشبه الشفق حين يحتضر، والداكن
الذي يُذكّر بسواد العاصفة. و أرض المورون ، أرض بيضاء صقيعية، تحرسها وحوش
لا يهابها أحد، ويحرسها رجال موشومون بنقوش تُشبه لعنات أبدية محفورة على
أجسادهم. أرض لا نور فيها ولا ظلام، بل برد سرمدي يتجاوز الحياة نفسها.

المورون، في الأزمنة القديمة، كانوا يتزاوجون مع البشر الأوائل. أولئك البشر كانوا
الرابط المقدس بين الحضارات، صلة الوصل التي حفظت التوازن. لكن مع اندثار
الأسلاف، انغلق المورون على أنفسهم، وأغلقوا أبوابهم في وجه البشر والرون وكل
وافد غريب. صاروا شعباً متعالياً يقدّس نقاءه ويُعادي أي خليط، حتى وإن كان
يحمل بذور القوة. ومنذ ذلك الحين صار مجرد الانتماء للجنس البشري خطيئة لا
تُغتفر.

أمّا يارا، فلم تولد وهي تحمل قوة خارقة كما اعتاد المورون، بل حملت شيئاً أندر: قلباً
مولعاً بالقتال، وشغفاً لا يُقهر للوقوف في وجه المستحيل. كان بداخلها شيء أشبه
ببذرة قديمة من أسلاف البشر الذين عبروا الأزمنة، عزيمة خامدة لا توقظها إلا
النار.

و بذرة من صميم شعب الرون الناهضون بالعالم من خلال تضحياتهم التي لا ترى و
من خليط كوني رائع

و من نار المتقدة من شعب الزورا

وهنا ظهر كون، الرّحال الغريب من حضارة الزورا. شعب الزورا كان مزيّجاً متفرّداً، جمع دماء الغجر والبشر وبقايا الأثر القديم، حتى صاروا أشبه بترحالٍ مُتجسد، لا أرض لهم ولا وطن، لكن في دمائهم تجري أعظم هبة: التحكم في الزمن ذاته. لم يكونوا فقط عابري أراضٍ، بل عابري لحظات، يقفزون بين اللحظات كما يقف المرء بين الظلال والأنوار.

وجوارا، ابن كون، وُلد حاملاً إرث جده الأعظم، الأسطورة التي لم تتوقف يوماً عن الترحال. أبناء الزورا لم يعرفوا الاستقرار، كأن الأرض ترفض أن تحتضنهم طويلاً، ومع ذلك كانوا أكثر التصاقاً بها من غيرهم، يطوونها بأقدامهم العارية، يتركون خلفهم حكايات ورماد معارك، ويختفون قبل أن يُدرك الآخرون هويتهم. لكن هذا الترحال الدائم جعلهم صيداً سهلاً للوحوش العاقرة، تلك الكائنات المروعة التي لا يُعرف أصلها، لا جسدها يخضع لقوانين الطبيعة، ولا ولادتها تُشبه ولادة المخلوقات. كانت تظهر فجأة من العدم، تختفي كأنها لم تكن، وتترك خلفها أشلاءً وبقايا رماد. لا أحد يدري إن كانت تنتمي للظلام أو للنور، أم أنها لعنة ثالثة وُلدت من خطايا العالم.

وسط هذه الفوضى، وجد كون الطفلة يارا. كانت مستلقية بهدوء بجانب جثة أمها المتحللة، لكن بدلاً من أن تبكي أو ترتجف، أطلقت ضحكة صغيرة، ضحكة بريئة كسرت قلبه، كأنها تضحك على الموت نفسه. أخذها معه إلى بيته المتواري في صحراء النجوم، تلك الصحراء التي تضيء ليلها الأرواح حين تبسط النجوم أذرعها. هناك،

النجوم لم تكن مجرد زينة في السماء، بل بوابات تُطل منها الأرواح على العالم، تراقب
وتُحرك الخيوط الخفية للحياة.

وهكذا، بدأت قصة يارا. قصة لم تُكتب لتكون مجرد سيرة طفلة غريبة، بل ملحمة
تحمل في طياتها أسرار الحضارات، وصراع النور والظلام، وعناد الإنسان أمام قَدَره.
قصة أبوابها لا تُغلق، بداياتها لا ترتبط بنهاياتها، بل تُشعل عطش القارئ للغموض،
وتتركه دائماً على حافة الترقب، حيث الطريق أمامها لا يزال طويلاً، مليئاً بالمفاجآت،
محملاً بدماء وضحكات، ومرصوفاً بقلوبٍ تُلقي في الشلالات إلى أن يقول القدر كلمته
الأخيرة.

الفصل الثاني: الفراغ

صراخٌ مدوّ يتردّد في الأفق، ونحيبٌ مرير يتسرّب من بين الشقوق العميقة التي ملأت الأرض المتهالكة، كأنها تتأوّه من ثقل ما تحمله. أصوات أطفالٍ، بئسة وممزّقة، ترتفع متقطّعة، تنادي باسمٍ واحدٍ يتردّد كرجاءٍ ضائع: "يارا... أنقذينا...".

لكن يارا، وسط ذلك الضجيج المتشابك، تقف كالعاجزة؛ لا تفهم، لا تدرك، ولا تستطيع تفسير ما يحدث. ثم فجأة، يتجلّى أمامها وجهٌ لم تره من قبل قط، ومع ذلك تعرفه بحدسٍ غامض... إنّه وجه أمّها، واضحاً، صافياً، كأنّ الزمن نفسه تراجع ليكشفه لها.

غير أنّ الصمت الذي حاول أن يتكوّن بينها وبين ملامحه ينكسر على حين غرّة، حين يخترق المكان صفيّرٌ مرعب، حادّ، قويٌّ إلى درجةٍ هزّت أوصالها. كان الصوت ينبعث من شلالاتٍ هادرة، لا ماء فيها بل دماء حمراء تنهمر بجنون، متألّئة تحت ضوءٍ مائلٍ للظلمة، فتزيد المشهد مهابةً وذهولاً.

يارا، مشدوهةً، تسمرّ عيناها، فإذا ببصرها يلتقط هيئةً مهولة: وحشٌ عملاق، جسده ينثني بثقلٍ رهيب، يجثو فوق سحابةٍ كثيفةٍ قاتمةٍ كأنها قطران يغلي. ارتجفت، إذ بدا كأنه كائن من فوضى ما قبل الخلق، ساكناً لكنه يوحى بانفجارٍ وشيك.

لم تفهم يارا شيئاً... بل ما تزال لا تفهم. ومع ذلك، كان فضولها يزحف من أعماقها كعدوّ خفيّ؛ كلّما حاولت كبته، كلّما باغتها وسرق منها حذرهما للحظة، تاركاً عقلها

الصغير يتيه في تياراتٍ من ذكرياتٍ غريبة. ذكرياتٌ لا تخصّها وحدها، بل كأنها بقايا
أرواح مرّت قبلاً، تزور ذهنها كطيفٍ مشوّش.

وخارج عالمها الغارق في الرؤى، كان جواراً جالساً بقربها، يرقبها بصمتٍ ثقیل. حبات
العرق تتصبّب على جبينها، تنساب على ملامحها المرتجفة، ومع ذلك لم يجرؤ على
إيقاظها. ظلّ متسمّراً، مشدوداً إليها، يتأمّل جمال وجهها الأبيض الذي يغدو أكثر
غموضاً تحت خيوط العرق. عيناه تتوقفان عند شعرها، حيث يتسلّل اللون الأحمر
الداكن في خصلاته كجمرٍ مخبوء، ثم على كتفها حيث تتوطّن علامةٌ غريبة.

تلك العلامة... بدت كطعنةٍ غادرة، مباغتة، أتت دون سابق إنذار. ومع ذلك، فإنها
كانت باهتة، ضئيلة، بالكاد تُرى... كأنها سرٌّ مختوم، ينتظر لحظةً معينة كي يستيقظ.

الفصل الثالث: ما بعد الفراغ

استيقظت يارا من حلمها المزعج، وعيناها نصف مغلقتين، فيما يداها الصغيرتان ترتعشان ببرودة غريبة تتسرّب إلى جسدها كخيوط من جليد يلتف حولها. كان ذلك الارتعاش أشبه بوخز ينهش أطرافها، ثم يتغلغل شيئاً فشيئاً في أعماقها، حتى شعرت وكأن الموت ذاته يحيط بها من كل جانب. أحاطها إحساسٌ خائق، إحساس بأنها محاصرة داخل غيمة سوداء كثيفة، خالية من أي ملامح للحياة، غيمة مشوّهة لا تشبه السماء ولا الأرض، كأنها تجسيد لعدمٍ مطلق يبتلع كل نور.

وللحظة قصيرة، خُيّل إليها أن تلك الغيمة لا تحاصر جسدها فحسب، بل تلتف حول روحها أيضاً، فتجرّها إلى هاويةٍ بلا قرار. ورغم أن عمرها لم يتجاوز الشهر بعد، إلا أنّ تلك الكوابيس المفزعة تتكرّر، كأنها ملازمة لدمها، تأتيها مع كل إغفاءة، لتملأ قلبها الضئيل بالخوف، وتُسرع دقات نبضها الصغير حتى تهتزّ ضلوعها، فيبدو صدرها وكأنه يتأرجح بين الحياة والموت. شهقاتها المتتالية، القصيرة والمتلاحقة، بدت وكأنها تحاول اللحاق بالزمن، أو كأنها تتسابق مع أنفاس العالم لتثبت أنها ما تزال حيّة.

أما جوارا، الذي يرافقها منذ ظهورها كظلٍّ صامتٍ لا يفارقها، فقد ظلّ يرقبها بقلبي متزايد، يحاول عبثاً أن يفهم ما تمرّ به. لكن كل محاولاته كانت تصطدم بجدارٍ غامض؛ لم يكن يملك أي إجابة. لم يكن يعرف من تكون هذه الطفلة التي استحوزت على يقينه، ولا من أي مكان جاءت، ولا حتى اسمها الحقيقي. الشيء

الوحيد الذي تمسّك به هو ملامحها المشرقة، وجهها الصغير الذي يتوهّج بضياءٍ لم يعهده من قبل، نورٌ دفعه لأن يمنحها اسمًا من قلبه: "يارا".

ومع ذلك، لم تكن يارا ذاتها قادرة على فهم هذا الرعب الذي يتسرّب إلى أحلامها، ولا تلك الصور الغامضة التي تزورها في نومها وتثقل روحها. غير أنّ اسمها، "يارا"، لم يكن وليد صدفة؛ فقد سمعه جوارا لأول مرة من على لسان العجوز الغامضة التي كانت تظهر بين الحين والآخر للرحّالين. تلك العجوز، التي تحمل هالةً من الأسرار، لم يعرف أحد من أين أتت ولا متى وصلت، وكأنها انبثقت من طيّات الفراغ.

كانت كلماتها رقيقة، تُقال بصوتٍ هادئ يشبه نسيم الصباح حين يلامس أوراق الشجر: "يارا تعني صفاء السماء وتدفّق نعومة بتلات الرياح". ومنذ تلك اللحظة التصق الاسم بها كقدرٍ مكتوب. أمّا تلك العجوز نفسها، فقد تبَيّن أنها ليست ككل البشر، بل تنتمي إلى شعب "الزورا"، أولئك الذين يمتلكون قدرةً خارقة على التحكم بخيوط الزمان، يقصّونها ويشبكونها كيفما شاءوا، كحائكٍ عجوز يتلاعب بجداول القدر.

وذلك اللقاء القصير كان بالنسبة ليارا الصغيرة بدايةً لعالمٍ أكبر مما تحتمله سنّها. الشيء الوحيد الذي بقي راسخًا في ذهنها الضبابي هو حضور تلك المرأة، ظهورها المفاجئ من العدم، وكيف انحنت عليها بابتسامةٍ مهمة تحمل مزيجًا من الحنان والرغبة. ومنذ أن لم تعرف لها اسمًا، همست لها بلفظة طفولية كانت أول ما نطقت به شفتاها الصغيرة: "تاتا".

وهكذا صار "تاتا" أول اسمٍ يخرج من فم يارا، وأول جسرٍ يربطها بعالم الأسرار الذي ينتظرها. لم يكن مجرد نطق بريء، بل كان إعلانًا خفيًا عن بداية رحلة طويلة، طريقٍ يتشابك فيه الحلم بالواقع، ويمتزج فيه الغموض بالقدر، رحلةٍ ستكشف لها - يومًا ما - أسرار ميلادها ومعنى وجودها في هذا العالم الموحش.

وكان الشاب، الذي وجد نفسه أبًا على حين غفلة وهو في الخامسة والعشرين من عمره، قد أنهكته سنتان ثقيلتان كالجمر المشتعل، سنتان تركتا على ملامحه ظلالًا قاتمة وعلى روحه ندوبًا أعمق من أي جرح في الجسد. وكلما نظر إلى صغيره، كان إحساس غامض بالانقباض يتسلل إلى قلبه، إحساس لم يستطع تفسيره أو التملص منه. لم يكن السبب موت زوجته وحسب، تلك التي افترستها الوحوش العاقرة في ليلة حالكة السواد لا يضيئها إلا برق عابر، بل لأن الطفل نفسه بدا وكأنه مرآة حيّة تعكس وجهها الغائب.

فملامحه الصغيرة تحمل نقاء وجهها، وابتسامته الخجولة تُذكّره بضحكتها التي كانت كنسمة صباحية تطرد الكآبة من قلبه، وزرقة عينيه تومض بعمقٍ يشبه بريق المحيط بعد العاصفة، وكأنها نافذة مفتوحة على روحها المفقودة. كان كل ما في الطفل يوقظ في صدر كون جرحًا لم يندمل، جرحًا لا يلتئم مهما مرت الأيام أو ثقلت السنون.

لقد رحلت إيمي، تاركة خلفها آخر نسل لها، كأن القدر تواطأ مع تلك الوحوش المتعطشة للدماء ليطوي معها صفحة عائلتها إلى الأبد. بدا وكأن لعنة قديمة خيمت على كل من أراد أن يرحل أو يغامر، لعنة تجعل الأرض تضيق بأقدامهم حتى لو ساروا في فضاء لا يعرف حدودًا.

أما جوارا، الطفل الصغير، فلم يكن في نظر كون مجرد ابن عادي يصرخ ويبتسم وينام بين ذراعيه. لقد كان رمزًا حيًّا، بذرة خالدة لتلك المرأة الجورية التي وهبته

حياتها ورحلت، بذرة نبتت من رمادها لتُذكّره كل يوم أنها لم تمت حقًا. كان كون يرى فيه امتدادًا لإيمي، تلك الفتاة الصهباء ذات الشعر المشتعل كاللهب، والتي جمعت في شخصيتها بين الجمال المهيّب والعناد الذي لا يُقهر، وبين الكبرياء الجامح الذي خذلته في النهاية عيون أسرة، عيون تحمل فتنة البحر الأزرق حين يهدأ بعد العاصفة.

كان يصفها دائمًا بأنها امرأة عنيدة، عنادها يصدّ الرياح، ويقف في وجه كل خصم، لكنه سرعان ما يذوب حين يلتقي بدفء قلبها وحنانها الغامر. ذلك الحنان ظل يطوف حول كون حتى بعد أن لفظت أنفاسها الأخيرة، وكأن روحها أبت أن تغادر البيت الذي سكنته معه. فحتى بعد موتها، كان يشعر أحيانًا بظلمها يحوم، أو بصوتها يتردد في الأرجاء، أو بعطرها الذي يطل خفيًا كما لو أن الهواء ما زال وفيًا لها.

استند كون على جذع نخلة هزيلة، متعبة من الصمود تحت وهج النور المتفجر في الأفق، وكأنها تعلن بصمت أن الحياة لا تُقاوم إلى الأبد. أوراقها اليابسة تناثرت على الرمل الساخن، تشهد على معركة غير متكافئة بين ما تبقى من الخضرة وبين لهيب السماء. كان العرق يتصبب من جبينه، لكنه لم يكن عرق تعب جسدي فحسب، بل عرق من يحاول الاحتماء من مصير يلاحقه أينما ولى.

النور... ذلك النور الذي كان يومًا مهدًا لحضارة الرون، أصبح فاجعة لشعب الزورا المخدول. لم يعد ضياءً يبارك الحياة، بل نارًا تعاقب كل من تجرأ على التنفس في صحراء بلا نهاية.

في تلك اللحظة، كان جورا يرمق يارا بعينين متعبتين من السهر والخوف. جسدها الصغير غارق في البياض، يلوح كأنه قطعة ضوء واهنة تتلاشى مع كل نفس. لم يستطع أن يغض بصره عن كتفها الأيسر؛ هناك ندبة صغيرة، باهتة لكنها واضحة، تشبه جرحًا قديمًا التحم على عجل. كانت أقرب إلى طعنة قوس اخترقت لحمها ثم انتزعت بوحشية. جورا، رغم صغر سنه، تساءل: كيف لطفلة لم تُكمل شهرها أن تحمل أثر موت سابق على جلدها؟ كأنها وُلدت ومعها تاريخ دموي لم تعشه بعد. لكن تفكيره تلاشى سريعًا؛ فقد تعود أن يبتلع أسئلته كما يبتلع دموعه.

ابتعد قليلاً نحو زاوية الحصن. هناك تجويف حجري سمح له بالجلوس دون كرسي، فاستسلم للنعاس. أحلامه كانت دائماً معلقة بوجه والده، الذي غاب شهراً كاملاً في رحلة لم يفهم سببها. اعتاد رحيل أبيه المفاجئ منذ كان في الثانية من عمره، لكن ذلك لم يُخفف من حنينه ولا من خوفه من أن يغيب للأبد.

في متناول نظره، فوق الرف الحجري، كان الخنجر يلعب ببرود كأنه يسخر من عجزه. حاول أن يمد يده، أن يقف على أطراف أصابعه، لكن جسده القصير خانته. كان يريد أن يقطع الحبل الذي قيد يارا، أن يحررها ولو للحظة. لكن العجز أقوى من النية.

أما كون، فلم يستطع تجاهل صراخ يارا المستمر. صراخها لم يكن مجرد بكاء طفلة، بل كان صدى لروح تتمزق. دموعها سالت حتى بللت الفراش، وجسدها الصغير يتقلب في كل اتجاه. لم يجد كون حلاً سوى أن يربط قدمها إلى العمود الحجري، كي

يمنعها من السقوط أو من إثارة المزيد من الضوضاء. ثم غطاها بطوق من فراء حيوان النديم، لعلها تهدأ.

ذلك الحيوان لم يكن مجرد مخلوق عابر؛ كان أسطورة بين الجمال العجيب والقوة الصارمة. فروه الكثيف، الذي يشبه غيوم الشتاء، يُقال إنه رمز للحنان الذي يُحرم منه الأيتام. بالنسبة ليأرا، كان الفراء أول هدية وأخيرها، دفء وسط برودة هذا العالم السقيم.

في عمق الصحراء المترامية، حاول كون أن يجد لنفسه مهربًا من الطيور الجارحة التي حلفت فوقه. اختبأ خلف صخور ضخمة، لكن قدميه لم تعودا تحتملان. الجرح الذي نزع بشدة استنزف طاقته، وكل خطوة كانت تسرق منه عمرًا. الهروب لم يكن سوى حل مؤقت.

مضطربًا، مد يده إلى جُرة صغيرة عالقة في حقيبتته، واستخرج منها طين الحياة. مادة لزجة، بلون أخضر غامق، تفوح منها رائحة تذكر بالأرض المبتلة بعد المطر. دهن بها جرحه ببطء، شعر بحرقه قوية كأن اللهب يُسكب على جلده، لكنه تحمل. الطين أوقف النزيف، لكنه لم يوقف الألم. تابع السير بخطوات مثقلة، متعثرة، فيما عيناه تبحثان عن أفق لا ينتهي.

من بعيد، لمح جناحين هزيلين يتحركان بين تيارات الهواء الساخنة. لم يكن أي طائر مألوف؛ إنه الكارون. طائر ماكر، يعيش على رصد الدماء قبل أن يشبع من لحمها.

عيونه السوداء كأنها ثقوب في السماء، حدقت فيه باهتمام، متبعة أثر الجرح. عرف كون أن وقته يضيق.

حاول أن يشنت رؤيته بالركض في مسارات متعرجة، لكن الإغماء كان يلوح له كظل لصيق. بين كل نفس وآخر، كان يسمع صوت والده، ذلك الصوت الذي اعتاد أن يسميه "خرافة" ويستهزئ به.

"بني... هناك في سماء الصحراء نجمة واحدة تتوق إليها كل الأرواح الطائفة. يحلم الجميع بسرقتها، لكنهم يفشلون. السبب؟ أن روحًا علقت فيها منذ قرون. النجوم لا تبقى باردة يا بني، إنها تتغذى من مشاعر البشر. عندما تجد روحًا مستفرغة، تمتصها حتى آخر قطرة. تلك الروح التي علقت بالنجمة... كانت لامرأة جائعة. أما devoured her child-أكلت طفلها بيدها بسبب زوجها. لا تسألني كيف، بل اسأل نفسك: هل تقدر أن تضحي بما هو مقدس عندك خوفًا من شيء آخر؟"

تردد صدى القصة في رأس كون، ثقيلًا كأنه جرح آخر. والده ختمها يومًا بجملة لم ينسها:

"نحن مخلوقات ملوثة يا بني. لا نعرف معنى زوال المحن. نحن نولد من الشقاء، لنمطر شقاءً أكبر."

تلك الكلمات طعنت صدره أكثر من الطيور أو الجوع. لكنه ظل يسير، بين خوف من الكارون، وألم الجرح، وحكاية نجمة مشؤومة تحرسها روح أم ملعونة.

اندفع السيف نحو الطائر فجأة... وفي اللحظة ذاتها اجتاح كون شعور غريب، طاقة متدفقة تسري في عروقه، كما لو أن صاعقة أيقظت ذاكرته على كلمات أبيه. تجسدت الصدمة مباشرة حين لمح اللمعان الوحشي للسيف ينطلق نحوه بسرعة جنونية، محدثاً صريراً حاداً يشبه احتكاك الفولاذ بصخرة قاسية. كان الصوت قوياً لدرجة أجبرته على الانحناء إلى الأسفل، فقبض على قدمه المجرّحة، ونزع الرباط الذي كان يضمّد جروحه القديمة، ثم سدّ به أذنيه ليصدّ عن عقله الارتباك المؤلم، قبل أن ينطلق بكل ما تبقى من قوته وجراته نحو الصخرة.

السوط المعدني. السيف. شق السماء في حركة سريعة، كأنه عقاب أزلي للأرض التي كتمت مآسيها لسنوات. انقضّ ممزقاً لحم الكارون، ذلك الطائر العملاق الذي لم يكن اختراق جسده بالأمر الهين. ومع ذلك حاول كون، في كل مرة، أن يشد الطائر إلى الأسفل، لكن كل محاولاته ارتدت عليه، بدائية، عقيمة... وكأن الطائر نفسه يرفض الخضوع.

وانتهى المشهد بتهوي أشلاء الطائر، متناثرة كبتلات ورد تتطاير في ربيع دافئ. وفي المقابل، ارتفعت سحابة سوداء كثيفة، أمطرت مطراً كريه الرائحة، أحمر داكن، غلّف الأجواء بالغليظ والدهشة. عندها أطلق كون زفرة ثقيلة، ثم حدّق في السيف المستلقي فوق الجذع المتآكل، يتأمل حالته الحزينة المليئة بالألم. شعور بالبؤس اجتاح قلبه، فرفع رأسه طويلاً محاولاً استيعاب ما حدث، غير أن الواقع بدا أقرب إلى مزحة قاسية.

ولذلك تساءل: لماذا لم ينجح في قتل الطائر اللعين؟ ولماذا ظهر السيف، كوحش غامض، ليقطع لذة الانتصار؟ اجتاحه غضب عارم، فصرخة بائسة انفجرت من أعماق إرهابه، بعد شهر كامل لم يعرف فيه طعم الراحة ولا الاستقرار. وفجأة، وبدون سابق إنذار، دوى صوت غرغرة عميق من فوهة انفتحت في الأرض، تبتلع الرمال إلى أعماق الصحراء. ومع كل لحظة، كانت الحفرة تتسع، كأن المكان كله يتحول إلى فوضى حية.

قال كون بنبرة متأرجحة بين الألم والسخرية: "بئسًا، ليس هذا السيف... لكنه أُملي في النجاة حيًا..." ثم تحطمت قدمه، وسمع صوت العظام وهي تتكسر، غير أن الألم أصبح تفصيلًا ثانويًا أمام لغز هذا السيف الغامض. زحف ببطء، قبض على مقبضه بكل ما تبقى من جبروت وعزم، ثم غرس قدميه في الأرض رغم الوجع، يهز رأسه مرارًا ليثبت وعيه، فيما الحفرة تتسع أكثر فأكثر، تجتاح كل ما حوله. بدا الجنون سيد الموقف.

وفجأة، صدر صوت مزمر كإغلاق باب حديدي ضخمة. ارتعشت كل شعرة في جسده حين فتح عينيه، وقال بصوت مرتجف: "سحقًا... هل خرج الجحيم عن صوابه؟ ما هذا؟" لم يكن يبالغ حين رأى رأس المسخ الأسود يتصاعد من الحفرة، والديدان تزحف على جسده كأنها حديقة ميتة. ورغم هول المشهد، قادته غريزته إلى التركيز، فكون لم يكن من أولئك الذين يهرون بالمناظر... لكن هنا، أي منطق ينهار أمام هذا الفزع الحقيقي؟

ارتطم رأسه بمقبض السيف ليستعيد السيطرة، فيما ظل الرأس يرتفع كبركان على وشك الانفجار. تمتم محاولاً النهوض: "بئساً لك، أيتها الأقدام... انهضي!" عندها برزت عيون المسخ، تفيض سائلاً أخضر لزجاً ومقرقاً. كل شيء بدا ضد إرادته، ومع ذلك احتضن كون السيف كمن يحتضن آخر أمل له، مترقباً مصيره المحتوم. وفي اللحظة نفسها، اندفعت يد مجهولة وانتشلت به بسرعة خاطفة، بينما الأسفل غرق في فيضان من الدماء يتدفق من قلب الصحراء، كتذكّار لفوضى أبدية مرت بهذا المكان.

«إنهض أيها المتحذلق... إنهض، إنك ثقيل!»

— من هذا... أخ، يا لهذا الصوت المزعج...

فتح كون عينيه بصعوبة، وكأن جفنيه مثقلان بالرصاص. الدوامة التي تحوم حول رأسه كانت تعصف بكيانه كله، دوخة لزجة تلتف حول دماغه كدوامة مياه سوداء لا مخرج منها. أمامه، وجه مشوّه بالندوب، صاخب بالصراخ، يهزه بعنف، تختلط في صوته نبرة الغضب برعشة الخوف. وما لبث أن تبين الملامح وسط الضباب الذي يثقل نظره، فإذا به بيروم... صديقه المنحوس، الذي اختفى أثره منذ يومين، كأنه ذاب في العدم.

قال كون، وهو يزبح يده ببطء متناقل، بنبرة يغلفها الإرهاق والاستهزاء معًا:

— أهذا أنتِ... أيتها الأميرة الهاربة؟

غير أنّ بيروم لم يلتفت إلى سخريته المعتادة؛ فقد كان وجهه باهتًا كقماشٍ مبلّل بالرماد، عيناه متسمّرتان على المشهد الكابوسي في الأسفل. ابتلع ريقه بصعوبة، حلقه جاف كالصحراء، ثم تمتم بصوتٍ يرتجف بين نبرة الدهول والرعب:

— كون... ماذا فعلت حتى أخرجت الشيطان من حجره؟ وكيف لهذا السيف أن يكون هنا...؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ أخبرني، أيها اللعين... أنت وأنا سنموت... سنموت دون أن نرى الحرية...
بئسًا!

وبينما كان يقول كلماته، تساقطت دموعه كسيلٍ مالحٍ على وجنتيه، وشرع في البكاء بمرارة، وكأن آخر جدار من كبريائه انهار فجأة. أما كون، فظلّ يرمقه بدهشةٍ مشوبة بالفتور، وكأن وعيه يسافر في اتجاهٍ آخر، يحاول استيعاب ما يحدث دون أن يجد لذلك تفسيرًا. الهواء من حولهما صار أكثر وحشية، الرياح تصفعهما حتى تكاد تمزّق جلود وجهيهما، أصوات العاصفة تختلط مع دويٍّ بعيد يشبه أنين الأرض.

قال بيروم، بصوتٍ متهدّج يتأرجح بين الوعيد واليأس:

— سأقتلك... لكن بعد أن ننجو من هذا... لا تقلق!

في تلك اللحظة، جرّ كون بصره نحو ساقه، فانتبه إلى جرحٍ غائرٍ يثقل حركته. الدم يتساقط دافئًا، يتجمّع على الأرض كخطوطٍ متعرجة، فيما حاول تضميدها بيديه المرتعشتين. لكن جسده كان قد أنهك، وقواه استسلمت لضعفٍ ساحق. وعلى ظهر بيروم، ظلّ السيف يتدلّى بثقلٍ خانق، يزيد الجراح عمقًا، وكأنه لعنة معلقة بهما.

وبفضل جناحين سرقهما من ملكةٍ بائسة لفظت آخر أنفاسها أمامه، استطاع بيروم أن يحلّق بهما عاليًا. غير أن مشهّدًا مروّعًا لم يمخّ من ذاكرته: طفلان صغيران بجوار تلك الملكة، قد التهمت أنياب المسخ أجزاء من قلوبهما ورأسيهما. كان المنظر كافيًا لتمزيق أرواحٍ كثيرة، لكن بيروم لم يبال، لم يهتم إلا بالبحث عن أدواتٍ تعينه على مواصلة طريقه الملعون، وكأن الإنسانية نزعت من داخله منذ زمن بعيد.

وفي الأسفل، أخذ الوضع يتعقّد أكثر. من تحت المسخ العملاق، اندفعت أفواجٌ من الهياكل العظمية، زحفت كالوحوش على أربعة أطراف، تصطك عظامها مع كل خطوة كطبلٍ جهنمي. رؤوسها كانت مقلوبة، وأفواهها المفتوحة تنزف دمًا أسود قاتمًا، رائحته عفنة، تخترق الأنف حتى تثير الغثيان، رغم أنهم بلا لحم. كان المشهد يثير الجنون، فيما هي تندفع نحوهما بجموحٍ وحشي.

زاد الهلع في قلب بيروم حتى أجهش بالبكاء من جديد، وصوته يختنق تحت ضغط الرعب. ارتفع بجناحيه محاولًا التحليق أعلى فأعلى، غير أن ثقل كون المعلق عليه وجراحه والسيف الممزق لظهره كبّلوه ومنعوه من بلوغ السماء.

أما كون، فقد أحس أن نهايته وشيكة. رفع إصبعه المرتعش نحو السماء، كأنه يطلب عوناً من مجهول، ثم فجأة ألقى بجسده إلى الأسفل. اصطدم بالأرض بقوة عظيمة حتى دوت طقطقة رقبتة في الفراغ، كصوت غصنٍ يابس ينكسر تحت ثقلٍ مهول. لكن ما حدث تلا ذلك كان أغرب من الموت نفسه.

استقام كون واقفاً، وكأنه لم يمت. عيناه اشتعلتا بضوءٍ أسود حالك، مرعب، كظلام متجسد. بشرته تحولت إلى بياضٍ ساطع أشبه بالرخام البارد. أطرافه ارتخت للحظة، ثم شددت فجأة كأنها قضبان فولاذ، ليقف كالعمود الصلب أمام رأس المسخ. ذلك الوحش، الذي كان يزأر ويهدر، توقّف فجأة، كأن رهبةً غامضة كبّلته.

بدأت عضلات كون تتشنج، أنفاسه تتقطع بعنف، ثم سكنت تدريجياً، ليخرج من صدره صهيلٌ جارف، اخترق العاصفة ودوى في السماء. تقدّم بخطى واثقة، كل خطوة تهز الأرض من تحت قدميه، حتى بلغ المسخ ومدّ أصابعه ليلمس منتصف جبهته. بصوتٍ خشنٍ كأنه يخرج من قاع بئرٍ مظلم، قال:

— لقد التهمت ما يكفي... عد أيها المسكين.

ثم، وبحركةٍ مفاجئة، استلّ من جمجمة المسخ حجراً رمادياً، دافئاً إياه في عينيه. وفي اللحظة ذاتها، هوى كون أرضاً مغشياً عليه، كأن تلك القوة العاتية غادرت فجأة.

ارتعدت فرائص الهياكل في لحظة واحدة، وكأن الرعب اخترق عظامها الفارغة.
اندفعت نحوه كالفيضان، لكنها لم تصمد أمام اندفاعه الأخير، إذ صدّها بقوة
صاعقة، فتناثرت أجزاؤها العظمية في الهواء، لتسقط على الأرض كحطامٍ بلا روح.

عندها، دوى صوت المسخ أخيرًا، عميقًا كهدير الجبال:

— سأكل حتى يرتوي بئر آثامكم... ذلك الماضي سيعود... وسأعود، لا تقلقوا يا أبنائي...

ثم انبعثت من فمه صرخة مزلزلة، كأنها تمزق طبقات السماء، لتتلاشى فجأة. الرأس
العملاق تبخر وسط دخانٍ كثيفٍ كجمرٍ ينطفئ ببطء، والهياكل تحوّلت إلى غبارٍ
متناثر. ساد صمتٌ خانق، لم يقطعه سوى سقوط كون على الأرض، جسده منك،
وعيناه مغلقتان، وقد أغمي عليه تمامًا.

لكن الهواء ظل مشبعًا برائحة الدم والدخان، وكأن الهاوية نفسها لم تُغلق بعد.

تدفع يارا يدها المرتعشة نحو صفحات الماء التي غمرت فقاعتها، لكن تلك الفقاعة الغامضة تزداد تلوّثاً شيئاً فشيئاً كلما لمستها يارا، كأنها تعكس صراعها الداخلي. وتعلو وجنتاها حمرة خجولة حين تحاول النظر إلى الخارج عبر ذلك الحاجز المائي، فيرتد إليها صدى عجزها. وكلما أرهفت سمعها المرتبك، أخذت تتناهى إليها نغمة أغنية بعيدة، صوت أنثوي مبحوح يتسلل إلى رأسها الصغير، رغم أن المرأة التي تصدر عنها كانت جامدة في مكانها، كأنها تمثال من الألم. وفجأة، مدّت تلك المرأة يدها الباردة ومسحت على شعر يارا بلطف أموميّ مخنوق، ثم همست بخزي يشق القلب:

"أسفة عزيزتي... أنت لست المذنبة. أسفة... أنت وأباك قد شاركتماني أعزّ مشاعركما، لكن ما باليد حيلة... أنا لا أستطيع المكوث بجانبك أكثر... لتستمري، أرجوك، دوني، أرجوك، لا تجعليني من ذكرياتك."

تنتفض يارا بعدها من نومها فزعة، تتصبب عرقاً كعادتها، والكوابيس ما زالت تلازمها كرفيق أبدي لا يزول، أو كعِلّة أحبّت قلبها الصغير فارتادته بغير إذن. وعلى النقيض من يارا، كان جورا قد أفقده الشوق طعم المشاعر؛ فبينما يتلوى قلبها بين الكوابيس، كان قلبه هو الآخر يذوي تحت وطأة الفقد. لقد عاد والده في حال يرثى لها، محمولاً على كتفي صديقه بيروم، وهي صورة ما لبثت أن حطمت عقل جورا البريء. لم يستطع الصمود أمام الصدمة، فركع عند قدمي والده وقبلهما بلمهة جائعة، عطشاً إلى لثم وجوده حيّاً، متجاهلاً ثقل الدماء التي لطخت ثياب الأب ووصمة العار التي انغrust في صدره.

ذلك الأب، ومنذ المواجهة المروعة مع المسخ، لم يهدأ له بال، ولا استقر له جفن، إذ صارت لياليه مرتعًا للكوابيس، تمامًا مثل ليالي يارا. غير أن يارا، بعد أن أزهرت وتخطت عتبة عامها الأول، أخذت تنظر إلى العالم بعين أخرى، أشد وعيًا، وأعمق فهمًا. لقد تعمقت مقدرتها على استيعاب الأمور، وأيقنت أن نهايتها محتومة، إذ حملت إليها الأرواح نذيرًا يهمس لها بالفناء.

ذلك النذير ساقها إلى صحراء عانسة، موحشة، لا يقترب منها غير المجنون، صحراء تحمل بين ذرات رمالها لعنة الأبد. هناك ظل بيروم، الصديق الوفي، يواجه عناء مؤازرة رفيقه القديم المستلقي كجثة هامدة منذ أن دفعه السيف الملعون إلى هاوية لا قرار لها. والطامة الكبرى أن ذلك السيف ما زال مغروسًا في موضعه، شاهدًا على المأساة.

ومع ذلك، استيقظ الأب ذات يوم فرأى يارا أمامه، تلك الفتاة التي أثلجت صدره بنظراتها المشعة، المشابهة لنظرات زوجته الراحلة. اجتاحه الحنين كإعصار، فمزق قلبه بذكريات غابرة وألوان لحظات لا تعود. لكنه لم يستطع التلذذ بها، إذ كان عقله متضاربًا، مهدودًا بأصوات داخلية؛ هناك من يلعنه بمرارة، وهناك من يذكّره باليوم البشع الذي لا يغيب، وهناك خيط خفي لم يُقطع بعد، يربطه بالمصير.

بل إن حلمًا غريبًا ما برح يطارده منذ سقوطه على الرمال الذهبية: شلالات حمراء، تتدفق كحمرة شعر يارا، وقلوب متحوّلة تحمل أكثر من لون، كأنها لحم متعفن ينبض بالحياة. لكن أكثر ما أسره كان نظرة البؤس القاتل التي ارتسمت على وجوه

أربعة بشر، أجسادهم منحطة ببياض السنين، بينما عيونهم تبوح بحزن يعصف بالأرواح. ذلك الحلم كان صورة من شلال السيرون، أو ما يُلقب بالستون... مجد البدايات ومصدر اللعنة.

ومنذ تلك اللحظة، غدت يارا كأنها منسوجة من ذات الخيوط الملعونة. أرواحها انصهرت في كوابيس لا تهدأ، نفس الكوابيس التي أخذ كون يحلم بها أيضاً. فتناغم رؤاها مع أحلامه المجردة من الوضوح، حتى كأنهما يشتركان في سرٍّ لا يُفصح عنه، بينما الحقيقة تُغلق أبوابها في سرداب من الخديعة والبهتان. وهنا، لا يبقى من سبيل سوى مواجهة الحقيقة نفسها، تلك الحقيقة التي تلتف حول عنق الإنسان كحبل مشنقة متين، لا يرد حكمها، ولا يرحم حتى بعد أن تُعلن البراءة.

بينما كان كون يهاجر جنوباً، بدت الأرض كأنها سجادة من الشقوق الجافة التي تن تحت وطأة الشمس اللاهبة، كل خطوة يخطوها كانت تحدث صريراً يشبه أنين الأرض نفسها. الهواء المحترق يجلد وجهه بلا رحمة، والغبار يتصاعد مع كل حركة كستار خانق يحجب الأفق. خلفه يجرّ ثقل الذكريات، وأمامه يسعى وراء حقيقة لا يعرف شكلها بعد، لكنه يشعر أنها وحدها ما قد ينقذه من متاهة هذا الترحال الموحش.

إلى جانبه، جوارا يتمايل كغصن هشٍّ في مهب الريح، الحمى تنخر في جسده حتى أفقدته القدرة على حمل نفسه، فيسقط تارة وينهض أخرى، قبل أن يتهاوى تمامًا بين ذراعي كون. عندها، انحنى كون وحمله كأنه يحمل حياته كلها، بينما قبضته الأخرى لا تفلت يد يارا الصغيرة التي كانت تتعثّر في خطواتها لكنها تتشبث بأبيه. صورة الثلاثة معًا كانت كأنها لوحة لأب يجرّ عبء عالم بأسره فوق كتفيه، وسط صحراء لا تعرف الرحمة ولا تمنح سوى قسوة لا متناهية.

أما بيروم، ذاك الرّحال الصامت، فقد بدا منفصلاً عنهم تمامًا، يسير بخطوات واثقة على الرمال وكأنه كائن من صلبيها، يختفي بين الصخور حينًا ويظهر حينًا آخر. لم يكن ينظر خلفه، وكأن وحشة الأرض رفيقته الدائمة، أو كأنه يعرف أن لكل شخصٍ قدرًا عليه أن يحمله وحده.

في خضم هذا السكون الخانق، انشق الأفق بصوت هادر يشبه انكسار جدار جليدي، ثم ظهر وحش أسطوري يجرّ خلفه ريحًا قاسية: العنقاء الباردة. لم تكن كالنار التي تحرق، بل كثلج ينهش الجلد حتى يقطع أوصاله. عيونها الزرقاء المضيئة اخترقت الفضاء كسهام من برد، وجناحها الضخمان إذا ضربا الهواء حركا عاصفة كالخناجر تلتف حول المسافرين في دوامة مرعبة.

ارتجف قلب كون، لكنه لم يسمح لذعره أن يظهر؛ كانت إيارا تبكي بحرقة وجوارا يئن كطفل محطم القوى، وكل ثانية تأخير قد تعني نهايتهم. جرّهم بخطوات متعثرة حتى احتموا خلف صخرة شاهقة، تكسوها طبقات من الملح الأبيض وكأنها بقايا نهر مات

منذ أزمنة غابرة. التصقوا بجدارها كظلال هاربة، بينما رفع كون رأسه ببطء كمن يواجه قدره المحتوم.

قبض على سيفه، وإذا بالحديدة الباردة تشتعل في يده كوميض برق خرج من رحم الظلام. بخطوة واثقة اندفع، وضرب نحو رأس العنقاء، لكن قرونها الجليدية اعترضت الضربة فتناثر الشرر كالثلج المتفتت. اهتز جسده من قوة الصد، وأدرك أن المواجهة المباشرة لن تجدي.

حينها، أطلق من جيبه مياه الهيمنة ممتزجًا بمنوّم ينساب عبر أنفاسه، محاولة أخيرة للسيطرة على وحش لا يعرف الخضوع. لكن قسوة العنقاء الباردة كسرت وهج سحره، فارتدت القوة عليه حتى كاد يسقط. عندها، قاده حدسه إلى العش القريب، حيث كانت بيضة ضخمة تحتضنها الريح الباردة.

انتزع البيضة بكل ما تبقى له من قوة، وضربها حتى انشق غلافها، فانفجر البرد من داخلها كغيمة متجمدة غمرت جسده. تسربت إلى مسامه رائحة الجليد والعش، فاندمجت أوصاله مع عباءة غير مرئية جعلته يبدو كأنه من نسل هذا الوحش نفسه. وعندما انقضت العنقاء بسرعة مفزعة، توقفت فجأة، إذ لم تستطع التمييز بينه وبين رائحتها الخاصة. لحظة واحدة من النجاة، لكنها كانت هشة كخيوط دخان.

ورغم أن كون التقط أنفاسه، كان يعلم أن هذه ليست سوى البداية؛ الأرض قاحلة متعطشة للدماء، والوحوش تترقب في كل زاوية، والرحلة التي يسلكها لم تكشف بعد سوى وجهها الأول... وجه الخطر.

ومن ثمّ، حين التقطت العنقاء الباردة رائحة الطفلين، انحنت رقبتها الطويلة كما لو كانت تتبع أثرًا خفيًا وسط الريح.

كانت حركاتها بطيئة في البداية، لكن كل خطوة كانت تحمل في طياتها توترًا مكتومًا، حتى لمع منقارها المدبب بلون الفضة المجلدة تحت خيوط الشمس الباردة. الريش الكثيف حول عنقها ارتجف كأموج ثلجية تتأهب للانقضاض، وعيناها الزرقاوان كانتا تضيّقان النظرة كخنجرين من جليد صافٍ.

كون، الذي توقع هذا الاحتمال منذ أن خطرت له فكرة التمويه، شعر بثقل إدراكه لعدم جدوى الحيلة أمام غريزة الأمومة الشرسة. الهواء من حوله صار أثقل، والبرد تسلل حتى إلى عظامه، لكن ساقيه تحركتا بلا وعي ليعترض طريقها.

مد يده بسرعة، محاولًا جذب انتباهها بعيدًا عن الصخرة، لكنه كان كمن يحاول إيقاف نهر جليدي بيدين عاريتين.

العنقاء، وقد أيقظ وجود الغرباء حول عشها غريزةً بدائية لا تلين، تقدمت بخطوات متصلة، والثلج يتساقط من ريش جناحيها مع كل رقّة صغيرة، حتى صار الهواء حولها عاصفًا بذرات الجليد الحادة. لكن فجأة، كسر بكاء يارا كل ذلك السكون المشحون... لم يكن مجرد بكاء طفل مذعور، بل نغمة فطرية حادة، تشبه الصرخة التي تسبق عاصفة شتوية عاتية.

منقار العنقاء اقترب شيئاً فشيئاً من حافة الصخرة، حتى صار صريره يختلط مع أزيز الريح، وصوت احتكاك الجليد بالصخر كان كأظافر على زجاج متجمد. كون، وقد أدرك أن الوقت ينفد، اندفع بجسده بأقصى قوته نحو الوحش، انغمس في مواجهة مباشرة محفوفة بالجنون. رائحة السموم التي رشها على ريشها ارتفعت في الهواء برائحة لاذعة تشبه لهيباً بارداً، لكن العنقاء لم تتوقف، بل زاد لمعان عينيها الزرقاوين قسوة.

حين رفرفت بجناحيها، كان الهواء حولها كإعصار جليدي، ألقى بكون بعيداً لدرجة أن جسده ارتطم بالأرض وانزلق فوق التراب المتجمد، تاركاً أثراً من العشب المهشم والثلج الذائب.

ومع اقتراب رأسها من مخبأ الطفلين، ارتفع صراخها الحاد كصفير زجاج ينكسر، وفي تلك اللحظة انفجرت حول يارا القبة البلورية، متوهجة بضوء أزرق شاحب، لتغمر المشهد بهالة غامضة لا يعرف أحد كيف تشكلت...

العنقاء، رغم أن الصقيع غطى عينيها لحظة، عادت بسرعة لتشم الرائحة الغريبة من جديد، والهدير الخافت في صدرها تحول إلى زمجرة متقطعة، كأنها تحبس رغبة في الانقضاض.

وفي الخلفية، خطوات ثقيلة تتخلل صمت الريح... وحش عاقر، أكبر وأشد، يشق طريقه نحوهم، وصوت أنفاسه الجافة كان كحجرين يُحتكان في أعماق كهف.

كون، الذي ما زال يجر أنفاسه بصعوبة، رفع رأسه ليلمح الوحش، وحين أدرك حقيقته، انكمش صدره بياس وقال:

— "تبا..."

[?]

كون لم تُتح له لحظة ليفكر، فالموت كان يطوّقه من جهتين: عنقاء هائجة تصرخ وتهدر، ووحش عاقر يقترب بخطوات مهيبة. شد قبضته على سيفه وكأن حياته كلها معلقة بنصل واحد، ثم قفز في الهواء نحو ذلك الوحش الذي يشبه الفهد في مرونته وبنيته، لكن جلده السميك المصحح بحراشف صلبة كأنها صخور تماسيح، جعله يبدو ككتلة حصينة لا تخترق. كانت أنفاسه حارة، لكن برائحة لاذعة من السم، وعيناه تلمعان ببريق وحشي لا يعرف الرحمة.

العاقر لم يكن مجرد مخلوق عادي، بل كان يطلق من جسده إبراً سامة، دقيقة كالخيوط المعدنية، تطلق في دفعات سريعة تكفي لشلّ أي كائن خلال لحظات. ومع هذا، لم يتراجع كون. كان يعلم أن أي تراخ يعني أن يارا وجوارا سيكونان في قلب مذبحه. بلع خوفه في جرعة واحدة، واستجمع كل قوته، وانقضّ على عنق الوحش.

عندما اخترق السيف الهواء، لمع فجأة بوميض بارد كضوء قمر على جليد، وكأنه انتظر هذه اللحظة ليكشف عن حقيقته. كان هذا الوميض كوقود صب في قلب كون شحنة من العزم، فانقضّ بكل ثقله على رقبة العاقر، محاولاً غرس النصل في نقطة قاتلة. لكن الوحش، برشاقة مفترس متمرس، انحرف فجأة، فتفادى الضربة جزئياً، ومع ذلك أصاب كون إحدى عينيه، فأطلق الوحش عواءً مخيفاً.

في اللحظة التالية، كان العاقر يندفع نحو كون بأنياب مفتوحة كفخ جليدي، لولا أن جناح العنقاء اندفع كالرمح الجليدي وصده هجومه. الهواء الذي أحدثته رفرقتها كان كصفعة قاسية أسقطت الرمل وأرسلت دوامات من الثلج في كل اتجاه.

العنقاء، وقد استشعرت خطراً يتجاوز وجود الطفلين، انخرطت في معركة غريزية مع العاقر. لكن كون ظل متربصاً به، يعرف أن هذا المخلوق قادر على تغيير هدفه في أي لحظة، فيترك خصمه لينقضّ على فريسة أسهل، وهذا وحده كفيل بجعل قلبه ينقبض.

لم يعد الوقت يسمح للتخطيط، كان عليه التحرك. غرس سيفه في ظهر العاقر، وتشبث به بكل ما يملك من قوة، وذراعه ترتجفان من الألم الحاد الذي بدأ يسري في أطراف أصابعه بسبب الإبر السامة التي اخترقت جلده. ومع ذلك، لم يفلت قبضته.

العاقر صرخ صرخة هزت الصحراء، وفي اللحظة نفسها انقضت العنقاء بمنقارها الحاد نحو وجهه، لكن العاقر باغتها بضربة خاطفة من مخالفه الصلبة وصدها، فتطاير الجليد من ريشها كالشرر البارد.

اشتعلت المعركة، والعنقاء اندفعت بأجنحتها تصنع موجات من الصقيع اجتاحت الرمال، فجمدتها حتى صارت تتشقق تحت الوزن. إحدى هذه الموجات أصابت عين العاقر الأخرى، فصار يتلوى عميئاً، وارتج جسده كوحش جريح يحتضر.

كون، ووجهه يتصبب عرقاً ممزوجة بالدم، تذكر أنين ابنه وبكاء يارا الذي يشق صدره، فجمع كل ما بقي من قوته، وانتزع السيف من ظهر الوحش، ثم غرسه بكل عنف في منتصف عنقه. كان النصل يخترق الحراشف بصوت حاد حتى وصل إلى العظم، والدم الحار يتطاير في البرد كضباب أحمر.

صرخة الموت التي أطلقها العاقر كانت عميقة ومزلزلة، دفعت العنقاء لأن تطلق صرخة أخرى أشد، تبعها بإنزال قبة جليدية هائلة حول الجميع، حابسة المشهد في سجن من الصقيع الشفاف. الضوء انعكس داخل القبة فصار المكان أشبه بممر من الثلج الأزرق. لكن قبل أن يكتمل الصمت، تحطمت القبة بضربة قوس قوية قادمة من بعيد، فتناثرت الشظايا كبلورات صغيرة في الهواء.

الصرخات والضوضاء حملتها الريح حتى وصلت إلى الرون والمورون، وجعلت هذا المكان هدفاً مكشوقاً أمام كل من يترصد. أدرك كون أن البقاء هنا يعني النهاية، فاندفع نحو طفليه، أمسك بهما رغم الألم الذي يمزق عضلاته وجراحه النازفة، ثم ركض بجنون عبر الرمال الباردة، لا يلتفت خلفه، فقط يهرب...

مشهد هروب كون كان أقرب إلى جرح مفتوح في قلبه، فمبادئه التي تشرّبها منذ طفولته ترفض الهروب، لكن سطوة اللحظة وقسوة الزمن كانت أشد من عزمته. هناك التزامات أثقل من الجبال، وهناك روابط لا يستطيع قطعها، روابط أمتن من الترحال الذي يجري في دماء شعب الزورا كما يجري السهم نحو مركز الهدف.

ذراعه كانت ممسكة بيارا التي انهارت بالبكاء، بينما يحمل على كتفه ابنه المغمى عليه، وخطواته تتعثّر على الأرض الوعرة، أنفاسه تتلاحق وهو يلتفت بين الحين والآخر خشية أن تكون العنقاء خلفه. فجأة توقفت قدماه دون وعي، كأن الأرض قيدته، وأنزل الطفلين ببطء، وعيناه معلقتان على جسد عملاق يقطع الضباب نحوه.

ذلك الجسد أبيض كالثلج، عيناه قبيحتان إلى حد يبعث على القشعريرة، وملامحه لا تخطئها ذاكرة كون: إنه أحد أفراد شعب الرون. الفوضى بالنسبة للرون جريمة لا تُغتفر، والوحوش، وخاصة العنقاء التي تعود إلى جبال المورون، نادرًا ما تجرؤ على مغادرة موطنها... فلماذا إذاً هي هنا؟ سؤال ضرب رأس كون بقوة، لكن الأشد وقعًا كان تلك النظرات القبيحة للرون، قبحها كان محزنًا على نحو غريب، كأنها تحمل مآسي قرون مضت.

لم يطل التفكير، إذ شق صراخ يارا الهواء، صراخ ملأه زعر بدائي، وأدرك كون أن عليه الرحيل فورًا. لكن قبل أن يخطو، دوى صوت صفعة مميتة، ارتجّت لها الأرض، تلتها حركة خاطفة حين التف ذراعا الرون السميكتان حول عنق العنقاء، يضاهيان

حجمها المهول، ثم انتزع رأسها ببرود، كأنه يقطف ثمرة تالفة. لم يكتفِ، بل رمى الجسد أرضاً ووجهه نحو كون نظرة حادة، ثم بدأ بالانسحاب بخطوات تترك وراءها صدى ساحقاً.

غير أن يارا، بصوتها الرقيق الذي تحول إلى زمجرة وحشية، أجبرته على التوقف. الندبة على عنقها توهجت حتى صارت تنزف، وتحولت ملامحها في لحظات إلى مزيج من الحزن والوحشية، كأنها على وشك الانفجار. استدار الرون ببطء، وصوته الداخلي ربما يتصارع مع كرهه لاختلاط الأعراق، لكن ذلك الصوت الذي خرج من يارا كان مألوفاً له، مألوفاً حد الارتجاف... إنه صراخ شعب الرون لحظة انتزاع قلوبهم وإلقائها في النهر.

كون لم يفهم ما يجري، بل انحنى محاولاً تهدئة يارا، لكن صراخها كان يزداد حدة، والألم ينهش جسدها الصغير. فجأة، أصفر وجهه وهو يرى يد الرون تمتد، كأنها قطعة من الجليد، لتأخذ يارا من بين ذراعيه. لم يستطع حتى تحريك يديه، فقط نظر برعب مكبوت. المدهش أن يارا هدأت قليلاً بين يدي الرون، لكن عينيها لم تعدا كما كانتا، تلك السماء الصافية استبدلت بظلام ثقيل، ظلام يشبه وجوه أولئك الذين ضحوا بأنفسهم لاستمرار الظلام وحفظ التوازن.

انحنى الرون نحوها، قبل كتفها بخفة، ومسح على عينيها، ثم همس بلغة غريبة لم يفهمها كون:

"لتهدئي أيتها الروح العابرة... أنت يراعة تائهة في هذا العالم، لتهدئي، ستجدين الحقيقة... لكن إهدئي."

ثم وضعها أرضًا، واستدار لينصرف، صوته الثقيل يختلط مع وقع خطواته التي بدت كأنها تحطم التربة. في طريقه، جمع جثث الحيوانات الممزقة كي لا تجذب روائحها وحوشًا أخرى، ثم اختفى في الضباب، تاركًا كون والطفلين في صمت خانق، تتردد فيه أصداء ما حدث.

سمّ الوحش كان كلهب متوهج يحترق في أعماق لحمه، ينهش كل شبر من جسده بحصارٍ لا يرحم. لكنه لم يمنعه من القتال، لم يسمح له أن يترك ساحة المعركة حتى مع ذاك الألم الذي يلهب أوردته ويكاد يقطع أنفاسه. كان كل نفس يلتقطه مرهقًا، وكل قطرة دم تسيل أشبه بنهر يغسل جسده من الداخل.

ببطء، وبصعوبة بالغة، بدأ سمّ العاقر يتراجع، وكأن الدم يتشبث بالحياة في عروقه. رغم أن قدراته محدودة وضعيفة مقارنة بأقرانه من شعب الزورا، لكنه حاول أن يهدئ نفسه، يضبط تدفق الدم، يكبح الذعر الذي يحاول أن ينهش روحه. شرب الترياق، ذلك السائل المرّ، كأنه يشرب من نافذة الأمل الوحيدة التي بقيت له.

كون، على عكس أغلب أبناء شعب الزورا، لم يُولد مع الموهبة التي تمنح السيطرة على الزمن أو عناصر القوة؛ لم يكن يملك سلطان النار التي تحرق، أو الماء الذي

يغسل، أو الريح التي تعصف، أو الرعد الذي يهز الأرض. لم تكن له سوى عزيمة
جامحة، صلبة لا تلين، هذه العزيمة التي أصبحت أخطر من أي قوة خارقة، وأبعد
ما تكون عن الجنون الذي أصاب الكثير من أصحاب المواهب.

شعب الزورا منذ ملايين السنين كبخوا تلك القوى العظيمة ليتركوا لأنفسهم حرية
التمتع بالزمان فقط، لكن كون وُلد بلا موهبة، ولم يفهم لماذا.

كان يفكر بتلك الأشياء بينما قلبه يحترق وبصره يشهد سحابة الألم تدور فوق رأسه.
تفكيره يتجه نحو الطائر المهاجر الذي يقطع المسافات بلا توقف، نحو الرون
الغريب ذي النظرات القاسية، وإلى ابنه المريض، وكانت طاقته تنفذ، لكن قلبه ظل
ثابتًا، لا يلين، لا يعرف الاستسلام ولا الهوان.

تحت قدميه، كانت الأشواك تمزق جلده حتى تشقق وتحول لونه إلى الأزرق، كأنه
يحترق من الداخل والبرد يعضه من الخارج، لكنه واصل المسير بلا تراجع.
يارا التي كانت نائمة بهدوء، جسمها الصغير مستكين بين ذراعيه، كأنها تعيش عالمًا
بعيدًا عن العذاب والدمار.

صوت السيف كان يملأ فراغ عقل كون، يرن كأنه صرخة تتردد بين الماضي والحاضر
في آن واحد، كأنه كائن مهجور ينتظر أن يُسمع، يناديه بصوت هش ومتقطع:
"كون... إفتح عينيك... كون..."

كانت الكلمات تتداخل مع نغمات أشبه بصدى أصوات نساء متعددة، تعلو وتخفت
كما لو أنها تنبعث من عالم آخر بعيد، وذلك جعلها مرعبة، لكنها مألوفة لدرجة
مؤلمة، كصوت زوجته الغائبة التي لم تفارقه حتى في أعماق نومه.

في خياله، رأى طائر العنقاء، ذاك الطائر العظيم الذي يصرخ بكبرياء وحزن أمام
كيان شيطاني، كيان يتلذذ بافتراس ما تبقى من عائلته وموطنه. كان الطائر مجبراً
على الهجرة هارباً من ظلال ذلك الشيطان، ومع ذلك ظل صامداً، كرمز للأمل في
قلب الخراب.

لكن السؤال الذي حيره بشدة ظل مطبوعاً في ذهنه دون انقطاع:
"لماذا الرون؟"

ثم عاد الصوت، هذه المرة بقوة أكبر، ونبرة تملؤها الغموض والرغبة، حتى أن كل
شعرة من جسده ارتعشت:

"الشيطان يبحث عن يارا... عن سر العالم المخفي... عن الظلام الذي اعتبرناه هبة
وأصبح هلاكاً... إن يارا خليط بين البياض الرقيق والسواد... مفتاح النجاة."

كانت الكلمات كالسيف ذاته، تخترق وعيه وتترك أثراً لا يمحي، كما لو أنّها تحفر في روحه نفسها.

استفاق كون من هول الكابوس، جسده يرتجف، وعيونه فتحت على عالم باهت يلفه الضباب، لكنه لم يستطع تفسير ذلك الحلم الغريب. كان يختلف عن كل الكوابيس التي عاشها من قبل، فكل شيء بدا أكثر كثافة وغموضاً.

بينما كانت أشعة الشمس الأولى تتسلل بخفة عبر خصلات شعره الأسود الكثيف، وتلامس عينيه الخضراء المضيئة، أدرك مرور الأيام كما لو أنّها غيث سريع لا يمكن الإمساك به.

رفع نظره نحو يارا وجوارا، كانا يتسلقان نخلة عملاقة، ضخمة كجبل، وفجأة نزل عليها برق قصفها حتى تفجرت إلى أشلاء، من وسطها اندلع لهب أزرق نابض بالحياة. فوق تلك الأنقاض، تفتحت وردة حمراء غريبة، زاهية، وكأنها رمز للحياة والدم معاً.

الهواء كان محملاً برائحة التراب المحروق والندى المتجمد، وأثارت تلك الرؤية في قلب كون شعوراً عميقاً بالأمل وسط الخراب، رغم الفوضى والدمار من حوله.

وفجأة، اقترب منه رجل عجوز، طوله يعلو معظم الرجال، صوته وقور وثقيل، كأنه صدى الزمن نفسه.

نظر إليه الرجل بعينين مليئتين بالحكمة والحزن وقال:

"أنت تعرف مصيرك، أيها الشاب... تعرف أين تضع سيفك، ولكن هل تساءلت لماذا تضعه؟"

التفت كون نحو الفتاة التي لا تزال تتسلق النخلة:

"كلما كبرت، أصبحت أكثر جذبًا للأنظار... وفي هذا العالم، كل شخص قادر على كشف جانب من الظلام أو النور، لكنها تقف في منتصف الطريق."

تهمد العجوز وقال بصوت منخفض:

"وهذا هو نادر... نادر جدًا. لا أحد يمزج بين الضوء والظلام كما تفعل هي. حتى لو كنت كفيلاً، فطاقة تلك الفتاة تُشعّرنى بذلك التوازن الذي طالما بحثنا عنه... ولم نجده."

شعر كون بشيء غريب في صدره، مزيجًا من القلق والفضول. العالم الذي يعيش فيه معقد، متشابك، مليء بالأسرار. لم يعد يهمه كيف ولماذا، لكنه شعر أن هذه الطفلة تحمل مفتاحًا حقيقياً، أملاً لم يكن يتوقعه.

بالرغم من أنه يفتقر لأي موهبة خارقة، كان يعلم أن في يارا صفاءً ونقاءً لا يمتلكهما أحد، وهذا وحده ربما يكفي ليغير مصيرهم جميعًا.



حين جنّ الليل على الساحة العظيمة، تحولت الأجواء تدريجيًا إلى مزيج ساحر من الظلام والأنوار الخافتة التي تراقصت مع أصداء الأغاني المنبعثة من قلب الحشد الكبير. كانت ألحان احتفال قديم يعود كل مائة عام، حين يحتفل الجميع برحيل الشيطان الذي لطالما أرعب النفوس وأشعل الخوف في القلوب. وفي كل مرة، كانت الأسطورة تتكرر على ألسنة الجميع، يرددوها الصغار والكبار على حد سواء، ويغمر المكان جو يعبق بالذكرى والرعب المختلط بالأمل.

نهض كون ببطء، مقترنًا شيئًا فشيئًا من وسط الساحة حيث تتلاقى أصوات الأناشيد والهمسات، وتشابك الروائح الحارة للطعام الشهي المتصاعد من أتون المواقد المنتشرة هنا وهناك. لكن أنفه الحاد لم يلتقط رائحة اللحم المشوي، بل لفت انتباهه رائحة أخرى أكثر غرابة وتعقيدًا، رائحة احتراق ممزوجة بالغموض، تثير فضوله وتحفز حواسه كلها.

وسط الجموع، كانت تبرز فتاة تحمل سحرًا غريبًا، جسدها مشدود كهيئة صياد ماهر، مغطى بوشوم متشابكة تعكس حكمة أزمان مضت وأسرار محجوبة. كانت تلبس قناعًا يغطي نصف وجهها، ومع ذلك، لم يستطع القناع إخفاء شعرها الأبيض

المجعد، الفريد والنادر كثلج البرد الشديد. أسقطت القناع ببطء، فتكشفت عيونها
السنورية التي تلتهم كعيون قط بري، جفونها بيضاء شفافة كأنهارا متألئة،
وجسدها الأبيض المرن ينبض بالقوة والسر الخفي.

شمّ كون رائحة احتراق مختلفة، ليست كباقي الأرواح التي تصعد وتعود في طقوس
السماء القديمة. تلك الرائحة كانت أقوى وأكثر حدة، كأنها كتلة لهب متوهجة تزحف
بهدهوء نحو الساحة، تتحدى كل من حولها.

تمتم في سره: "تبا... هل هذه روح أم عفريت؟"

فالعفريت، برغم تشابهها مع الأرواح، كانت أكثر خبثًا وأشد فتكا، تنبعث منها نيران
تخنق وتلتهم كل ما يعترض طريقها.

بدأ الهلع يتسلل إلى قلوب الناس، وامتألت الساحة بأصوات ترديد تعاوين غريبة،
كلماتها العتيقة تملأ الفضاء كأنها تدعو قوى خفية لطرد الشر، وتنسج جواً من
الترقب والخوف في آن واحد.

كان كون مستلقياً في الظل، عيناه تتلمسان تفاصيل المشهد، حتى لاحظ فجأة يارا
التي لم تفارق نظرها ذلك العفريت. لم تكن تخاف، بل كانت تتأمل بفرح ودهشة
غريبة، كما لو أنّها ترى فيه شيئاً من وطنها أو جزءاً من ذاتها.

صرخ في داخله: "أيتها المجنونة، ابتعدي!"

لكن برغم صرخته، كانت يارا تسير بخطى ثابتة، وببراءة محيرة أمسكت بمقدمة ناب العفريت، مُظهرة شجاعة غير متوقعة.

العفريت لم يتحرك، وقف كتمثال من الجليد، منبهراً أو متأثراً بسحرها الغريب، وكأنّه يعرف أنّها مختلفة عن الجميع.

قالت يارا بصوت خافت متعثر لكنه دافئ: "اجلس."

فجلس العفريت، كما لو أنّه يستجيب لأمرها دون تردد، واحتضنته بحنان غريب، مثيراً دهشة كل من حولهما.

تمتم كون بحسرة: "يا لك من يارا..." ثم نفّض الغبار عن كتفيه واقترب منها، محاولاً فهم ما يحدث وتفسير هذا المشهد الغريب.

فجأة، خفتت ألسنة النيران التي أشعلها الحشد، وانقشع الضوء ليعمّ الظلام من جديد، كما لو أنّ الليل نفسه استعاد سيطرته على المكان.

أمسك كون بيد يارا بحذر، لكن صوته المتكرر "تاتا! تاتا!" كان يتصاعد في الهواء، مملوءاً بالخوف والارتباك، مُذكّراً إياه بالمسؤولية الثقيلة الملقاة على عاتقه.

نظراته تموجت بالذعر والدهشة، حتى لمح في الظل العجوز الذي طالما زاره مرارًا، واقفًا بهدوء عند رأس العفريت، يتربص كل حركة وكأنه مراقب حكيم لكل تفاصيل الحدث.

خلفهما، بدأ الحشد برمي تعاويذهم، كلماتهم الغامضة تملأ المكان بقوة غريبة، **حتى بدأت ظلال وأطياف أشخاص قدامى تظهر، تحيط بالعفريت من كل جانب، كأنهم حراس من زمن آخر.

العجوز بحركة بسيطة من إصبعه أطبق غطاء وعاء أسود عتيق على العفريت، حاصرته بقوة وسحر لا يُقهر، وكأنها تغلق باب جحيم قديم لا يريد أن يُفتح.

كون، وهو يحمل يارا بين ذراعيه، لم يستطع أن يمنع ارتجاف يديه، وتمتم بدهشة: "ما هذا بحق الجحيم؟"

--

أخطأت يارا عندما لوححت نحو العجوز، معتقدة أنها تاتا، غير أنّ ما ظهر لم يكن سوى كهل في الأربعين من عمره، من أفراد شعب زورا. تلك الحقيقة صدمت كون بشدة، وكأنه يغوص من صدمة إلى أخرى دون أن يمنحه القدر فرصة لالتقاط أنفاسه.

كان الرجل وسيماً، تغلفه ملامح خشنة تروي قصص الصبر والمعاناة، وجسد ممشوق تفصله عضلات بارزة بدت كأنها نُحتت على صخور الزمن. شعره الأسود الكثيف كان مربوطاً بإحكام إلى الخلف، بطريقة تعكس انضباطاً صارماً. وعلى رأسه، ارتدى قبعة تقليدية تحمل نقوشاً عتيقة، شكلها مثلث مسطح يحاكي قبعات الأسلاف الذين ساروا على ذات الأرض.

وفجأة، انبعثت منه رائحة قوية، حادة، تحوم كعبير الأرض بعد المطر، مزيجاً يشبه التراب والجذور العميقة القديمة، لتمنح من حوله إحساساً بالصلابة والتاريخ الذي لا يُمحى.

عندها، أغلق كون عينيه لبرهة، كما لو كان يريد استدعاء شجاعته من الأعماق، ثم فتحهما ببطء وهو يلهث بدهشة متجمدة على وجهه، وصوتٌ ممزوج بالدهشة والرهبة: "عمي... ماذا تفعل هنا بحق خالق السماء؟"

ارتسمت على وجه الرجل ابتسامة بلهاء، تعكس ثقة مفرطة بنفسه وربما قليلاً من الاستهزاء، ثم ما لبث أن اندفع نحوه بخفة مفاجئة، محاولاً بسط يده نحو يارا.

تراجع كون بسرعة، عيناه تحترقان بالغضب، وقال بنبرة مشحونة بالتحدي والرفض: "عمي، ماذا تفعل هنا؟ وما هذا الذي تفعله؟"

عض الرجل على شفثيه الغليظتين، كأنه يعبر عن كبريائه واستعلائه، ثم قال بصوت عميق مفعم بالغرور: "ابن أخي الأكبر... لقد أصبحت رجلاً وسيماً، لكنك لا تصل إلى رتبتي ولا لقوتي."

رد كون، صوته يصدح بالتحذير والغضب: "أنت أيها الأحمق!"

سادت لحظة صمت فجأة، قبل أن يكسرهما صوت جوارا، الذي كان يتشاءب ببطء بعد نوم قصير، قال وهو يحاول استجماع قواه بنعاس: "أبي، لماذا تبدو يارا متوترة هكذا؟ وجهها متصلب ومشدود..."

في تلك اللحظة، التفت كون بسرعة إلى يارا، التي كانت ترتجف بشكل واضح، جسدها يهتز كسمكة خرجت لتوها من أعماق البحر، تحاول التكيف مع الهواء الجديد الذي يحيط بها.

لكن العم لم يتوان، إذ بادر بسرعة، وأخذها من يد كون برفق حازم، ثم مدّدها على الأرض.

بيد مرتجفة، أخرج من داخل ثيابه ورقة قديمة منقوشة برموز الأسلاف العتيقة، نُقشت بعناية وكأنها تحوي أسرار الأجيال.

وبينما رفعها أمام عينيه، بدأ يتمتم بكلمات غامضة، صوته منخفض لكنه صارم وملئ بالقوة: "أيتها الروح، اتركي أرضها، اخرجي وارفعي رجلك بعيداً عنها..."

ارتج جسد يارا بقوة، وكأنها تصارع شيئاً غير مرئي، إلى أن انطلق فجأة من رأسها خيط متوهج بلون أزرق سماوي ناصع، يلمع بضوء باهر، ينبعث منه وهج بارد ولكنه قوي.

أمسك العم بالخيط بيد ثابتة، سحبه ببطء نحو الخارج، فتحول أمام أنظار الجميع إلى سيف ناري أسود، ينبعث منه وهج قاتم وبارد في آنٍ معاً، كما لو أنه يجمع بين النار والظلام.

وبلمح البصر، اختفى السيف في الهواء، وكأنه لم يكن موجوداً إلا للحظة عابرة، تاركاً وراءه صمتاً ثقیلاً يثقل الأجواء، وأعين الجميع ترقب ما سيأتي بعد ذلك، وقلوبهم تخفق بقلق وترقب.

ثم انسحب العم وهو يتنفس بعمق، كأن صدره يفرغ جبلاً من الهواء المتراكم منذ سنين، وعيناه تحدقان في كون بحدة تنذر بالخطر والتحذير، وقال بنبرة ثقيلة تحمل غضباً مكتوماً وكأنها صفعه خفية:

هل تدرك، أيها المعتوه، أنك ترافق ملكة من ملوك الأسلاف؟ إنها معرضة للهجوم أكثر من أي أحد آخر، وأنت أيضًا تُجرّ إلى الخطر بسببها... قل لي، أين وجدتها؟

ارتسمت على ملامح كون علامات التذمر والضيق، فزم شفتيه كمن يخفي شيئاً من الكلمات، ورد ببرود ممتزج بالحدة واللامبالاة:

وما شأنك أنت؟ وهل ستجلس لتفسر لي ما حصل أيها العم الذكي؟

جلس العم أرضاً بثناقل، كمن يُسقط عنه أثقال الزمن ويقرر أن يطيل الحديث، ثم تربع في مكانه، وبدأت أصابعه الخشنة تربت على خصلات يارا الناعمة برفق غريب، لا يليق مع هيئته الصلبة. قال بصوت هادئ ينساب على نحو متناقض مع بريق عينيه المترقب:

يارا... فتاة مميزة، هذا واضح لا يحتاج إلى برهان. لكن، أخبرني بصدق، أين وجدتها؟

ألقى كون نظرة خاطفة نحو الحاضرين، وقد بدا على ملامحه ضيق خفي، ثم أشار إليهم بالانصراف بحركة حادة من يده. تفرق الجميع في صمت متوجس، باستثناء تلك الشابة التي بقيت جالسة على مقربة، عيناها تلمعان ببهجة غريبة أقرب إلى فرح مشؤوم، كأنها تتغذى على الترقب. غير أن كون لم يعرها اهتماماً، بل استمر في تركيزه

على عمه. أشار لابنه ليقترّب، فجلس الصغير بجانبه بخطوات مترددة، ثم مال
بوجهه نحو عمه وقال متهدّأ، كمن يثقل صدره سؤال لا يهدأ:

هيا، أخبرني... ما قصتها؟ لماذا الجميع يحذرونني منها؟ وما هذه القوة التي تخبئها في
أعماقها؟ أخبرني.

جمع العم صوته الخشن في نبرة باردة كالثلج الجبلي، وقال ببطء يحفر في الجو
صدى غامض:

يارا فتاة وُلدت من جميع الأعراق... تحمل من كل نوع جزءاً يميزها، لكن... قل لي أين
وجدتها بالضبط؟

رد كون بلا اكتراث، كأنه يستخف بوقع ما يسمع:

وجدتها بين حدود المورون.

ارتفع حاجبا العم بدهشة عابرة، وتمتم وهو يطوي الكلمات ببطء ثقيل:

حدود... المورون؟ وهل وجدت أمها بجانبها؟

نعم.

أطرق العم برأسه قليلاً، كمن يستدعي ذاكرة قديمة، ثم قال بنبرة مترددة تخالطها جدية:

أتذكر تلك القصة التي صرعت بها أخي عن الأمهات اللاتي يلتهمن أطفالهن بسبب أزواجهن؟ أظن أن يارا وُلدت من بين تلك الأمهات، لكنها لم تُلتهم كبقية الأطفال.

نظر إليه كون ببرود، لكن عينيه لم تخفيا استغراباً مكتوماً:

وما علاقة ذلك بقوتها؟ نحن أيضاً من أعراق مختلفة، وأمهاتنا سيئة. وجدتي - حسب ما أذكر - تركت أبي وحيداً وهربت... ما الغريب؟

تغيرت ملامح العم فجأة، وانسابت على وجهه قسوة متأملة، وهو يحدق في يارا بعينين نافذتين. ثم أشار بيده نحو كتفها وقال بصوت غليظ يشوبه قلق:

هنا يكمن الاختلاف... يارا ليست من نسل الشيطان، لكن ربما حدث أن الشيطان غيّر جسده، كما يفعل عادة، ليغوي أمها. سيطرته كانت قوية لدرجة أنها كادت

تلتهمها. أنظر جيداً... هذا الجرح على كتفها هو أثر مخالبه. لون شعرها الأحمر وعيناها الزرقاوان... هذا من الغجر مثلنا، أما بشرتها الباهتة فمن المورون، وملامح الحزن التي تتسرب أحياناً إلى عينيها فهي من الرون. يارا لا تحمل طاقة واحدة، بل خليطاً ممزوجاً، وربما شعرت أنت بذلك من خلال غريزتك. لكن، من الجلي أن الوحوش تبحث عمّن يخلق لها التوازن، وتظن أن أكله يمنحها هذا التوازن... وهذا تماماً ما فعله الشيطان المنبوذ.

وفي تلك اللحظة الثقيلة التي جمدت فيها الأنفاس، برزت من خلف أحد البيوت فتاة ذات شعر أبيض كثلج الشتاء، وعيناها تقدحان قبحاً وبشاعة، بينما ترسم على محياها ابتسامة تتسع ببطء... ابتسامة كأنها تتغذى من الظلام نفسه.

?

و اسودّ وجه كون فجأة، كأنما غطّته سحابة رعب ثقيلة، وارتجفت عيناه بوميض الإدراك المذعور، ثم قال بصوت مبحوح وهو يلتقط أنفاسه: "إذن... الذي رأيته خارجاً من فوهة الصحراء... هل هو ذلك الشيطان؟"

تصلّب العم في مكانه، وتجدد جبينه وهو يرمقه بعينين متسعيتين: "ماذا حصل؟"

ابتلع كون ريقه، وكأن حلقه صار من خشب، وقال: "لقد اعترضني وحش هائج، لم أر مثله قط... عيناه كانتا مثل جمرتين تشتعلان وسط الظلام، وريشه كان أشبه بسكاكين من ظلال الليل، كل رفة من جناحيه كانت تولّد دوامات من الغبار الحارق. صوته... كان مثل صرير المعادن الممزقة ممزوجةً بزئير وحش جائع، يهتّزّ له القلب قبل الأذن. لكن... فجأة، خرج سيف من العدم، كأنه انبثق من بين طبقات الهواء، وتلألأ بوهج باهر مزّق أشلاء الطائر، فتناثرت في السماء كغبار أسود."

توقف لوهلة، وصوته يختنق: "ثم... فتحت الصحراء فمها فجأة، حفرة عملاقة لا نهاية لها، كأنها تسع الصحراء بأكملها، وبدأت تجذبني أنا والسيف شيئاً فشيئاً، وكأن جاذبيتها كانت تلتهم روحي قبل جسدي... لكن بيروم... بيروم أنقذني. بعدها، سُلبت مني إرادتي، شعرت وكأن خيوطاً خفية تشدّ عقلي، وسمعت صوتاً... صوتاً يشبه غليان الجحيم نفسه، يفيض من كل الجهات. ثم... سقطت، وبلمسة واحدة استطعت دحض الوحش، لكن... أخرجت من رأسي حجراً رمادياً بارداً كالموت، وسقطت أرضاً."

اتسعت حدقة العم فجأة، وكأن الحقيقة ضربته في الصدر، ثم التفت نحو جوارا وهمّ بسؤاله: "بني... هل لاحظت على يارا أي تصرف غريب... أو، لا أدري... اضطراب؟"

تمهد الفتى قليلاً قبل أن يجيب، وصوته يختلط بالحيرة: "منذ الوهلة الأولى كانت يارا ساكنة، كأنها تمثال من الصمت، لكن فجأة بدأ جبينها بالتوهج بضوء غريب، ثم كتفها... بدأ ينزف بشدة، لكن ما خرج لم يكن دمًا... بل كان سائلاً أخضر، لزجاً كأنه

يحمل حياة أخرى بداخله... ثم، هدأت واستقرت فجأة، وكأن شيئاً ما انسحب من داخلها.

نظر العم إلى كون برعب مكشوف، وقال بصوت خافت مشوب بالقشعريرة: "ما رأيته... كانت هيئة الشيطان. تقول الأساطير الأولى إن الشيطان كان امرأة فاتنة الجمال، جمالها كان يسحر العيون ويأسر القلوب، لكن هناك... في جبل المورون، كانت هذه المرأة تذهب ليلاً وتقتل الخنازير، تقتات على لحمها نيئاً. وبرغم أنها كانت تنتمي للبشر القدامى، إلا أن تصرفها كان غريباً حد الرعب. رآها أحد المارة ذات ليلة، وأفشى سرها، فحكم عليها بالعقوبة، دون أن يفهم أحد سرّ شهيتها. حينها، كان الخنزير يحمل لعنة الخلود، أي أن من يأكل منه يصاب بخمول جسدي قاتل، ترافقه صحة دائمة ولكنها مشوهة، تُبقيه بين الحياة والموت. تلك المرأة... أكلت مائة خنزير. وهكذا... تجاوزت المرحلة الثانية من اللعنة، فأصبح نصف وجهها مشوّهاً، بينما بقي جسدها ممشوقاً كأفعى متحفزة. هذه الأساطير... كابوس لكل من استقر في هذه الأرض.

لكن الشيطان، بعد أن اتخذ تلك الهيئة المربعة والمهيبة، أصابه جنون عميق لا يُحتمل، كما لو أن لعنة الخلود تلك التي ظنّها نعمة، تحولت إلى سجن قاتل لقلبه وعقله. لم يكن يتوقع أبداً أن تكون ثمن الخلود هذه العواقب البشعة التي جرّدت روحه من توازنها. لقّبوه بالشيطان، ليس لمجرد قوته أو هيئته، بل لأن عينه التي تلمع

بالشر، عندما تلتقي بأي كائن كانت تغويه، تأسره، وتجرده من عقله كأنها لعنة مظلمة تتسلل إلى أعماق الفكر، وتجعل الضحية تائهة بلا إرادة.

وفي سخرية القدر، ربط على قفاه ثلاث عقد محكمة، كأنها أغلال من ظلال لا تنفك تحكم قبضتها عليه، وإذا حاول تحرير نفسه منها، يواجه جسده عذاب مائة خنزير ملعون، عذاب بطيء مؤلم يشل كل حركة وينهي الحياة ببطء مرعب.

لكن الشيطان لم يكتفِ بهذه اللعنة التي قيده، بل بالغ في شره. لم يكن يكفيه أكل الخنازير فقط، بل انغمس في لعبة أغواء النساء، ليجعلن يأكفن أطفالهن، محملاً إياهن بنفس المصير السوداوي الذي يحملونه جميعاً. لكي يضمن نجاح خطته الشيطانية، كان يمتص قوى الأطفال النقية والصفافية من أمعاء أمهاتهم، فكانت تلك الطاقة الثمينة تفوق قوة المرأة وحدها، التي لا تكفي لاستمرار تجددتها وتجدد نسلها.

وهكذا، كانت تخدع النساء بأشكال وأساليب متعددة: أحياناً تغوي أزواجهن لتجعلهم أدوات في يدها، وأحياناً تغوي النساء بأنفسهن، تسحب منهن الأمان والحنان، فتصبح هذه المرأة نفسها شيطاناً غائراً، بلا هوية، غارقة في الظلام والدهاء.

وبذلك، تحولت النساء، المغرّرات والممسورات، إلى آكلات لأطفالهن، أُجبرن على ذلك من أجل زوجٍ يبدو في الظاهر رجلاً بوسامة ساحرة لا تُقاوم، لكنه في الحقيقة مخلوق قاتل، يتحول إلى ذلك الرجل المشؤوم الذي يخفي وراء جماله الموت والدمار.

صُعق كون من هذه الحقيقة المروعة التي تزلزل أركان عقله، وشعر برعشة تسري في جسده، لكنه استمد قوة غريبة من عمق خوفه، مدّ يده المرتجفة نحو يارا، ونظر إلى العم بعيون دامعة وهو يقول بصوت متوتر:

. ماذا سيحصل ليارا؟

رد العم بنبرة قاتمة، تحمل ثقل أعباء الدنيا:

. ستموت... ذلك الشيطان لن يهدأ أبداً حتى يمتص كل قطرة من طاقتها، وبما أنها فريدة من نوعها، فهي فريسة دسمة لا يمكن له أن يتجاهلها أو يتهاون معها.

تردد كون للحظة، ثم سأل بقلق:

. وماذا عن الوحوش التي تهاجمنا بلا هوادة؟ ماذا سيحدث لها؟

هز العم رأسه ببطء، وجهه متجعد من الهموم، وقال بصوت منخفض:

. لا نعرف على وجه اليقين... الوحوش بطبعها ترغب في البقاء حية، وهي تستشعر طاقة الفرائس التي تحمل أفضل الفوائد لها. على الأرجح، يارا ليست سوى فريسة أخرى، قطعة لحم طازج في شبكة مفترسيهم.

وفجأة، قبض العم على سيف كون بقبضة حازمة، وعيناه تلمعان بارتباك واضح، وهو يوجهه نحو النخلة العملاقة التي كانت تتلوى في الظلام، تنبض بألوان قاتمة.

ارتبك كون من سرعة حركة عمه، وصاح بقلق:

.ماذا هناك؟

أجاب العم بصوت خافت، يتخلله توتر لا يخفيه:

.هناك هالة خبيثة تتجول هنا... لكن الظلام يغلف المكان، ولا أستطيع رؤية المزيد بوضوح.

ثم توقف، وأصدر تنهيدة ثقيلة، وكأنها تخرج عناءاً لكل التعب الذي حمله في رحلته، وقال بلهجة منهكة:

.لقد استنفدت كل طاقتي خلال هذه الرحلة القاسية. لنذهب إلى الداخل الآن، هيا. ودعنا نجعل يارا تنام عندي... هي لطيفة رغم كونها مجرد فريسة لذيدة...

ارتفعت شفاه كون بغضب مستتر، وهو يرد بغضب:

.أنت وقح يا عمي، لا تقل مثل هذا الكلام عن طفلة!

ابتسم العم ابتسامة خفيفة، مفعمة بالحنان الغامض، وقال:

.ستستمر بحمايتها، هذا شيء مؤكد.

التفت كون إليه بنظرة مملوءة بالشكوك، وكأنها تبحر في عاصفة من القلق، وقال بصوت خافت:

.لا أعرف حقاً ماذا أصدق أو ماذا أفعل...

رد عليه العم بنظرة ملؤها الأسى، محملة بمرارة تجارب عمره الطويل، كأنه يود أن يقول له أكثر من الكلام، لكنه اختار الصمت، معبراً عن ذلك في نظراته وحدها.

?

استيقظ الجميع من سباتهم الثقيل، وملامح التعب والرعب باديتان على وجوههم التي تكشفتهما ساعات السفر القاسية. بدأت الأنفاس تتلاحق في صدورهم، واستعدوا للرحيل نحو مصير محفوف بالمخاطر التي لا ترحم الضعفاء أو القادرين، فالهروب كان خياراً لجبناء لا يجرؤون على مواجهة قسوة العالم.

كان جواراً، الصغير الصامد، قد سبق الجميع وانطلق حاملاً أكياس الطعام الشهي التي قد تكون أملهم الوحيد في درب مجهول، لا يعرف وجهته ولا قدره. كان يراقب

يارا، تلك الطفلة المحمولة على ظهر العم الصامد، الذي تعهد بمواصلة الطريق معهم حتى نقطة تفرقهم.

وهنا، في هذه اللحظة الحاسمة، رغم أن المشهد لا يبدو متغيراً، تشتعل في قلوبهم الأسئلة: هل ستنجح يارا في تخطي ذاك الشر الغامض الذي يهددها؟ هل يمتلك جوارا، الذي يحمل إرث أجداده، القوة والإرادة لمواجهة ما ينتظره؟

جوارا، الفتى الذي ورث عزيمة أجداده، فتى صعب المراس، كما وصفه جده، لكنه يحمل في شخصيته تشابهاً واضحاً مع والده، ذلك الرجل الذي تشبث بألمه وكأنه رفيق دائم. بينما يحاول الجميع الهروب من أوجاعهم، وجد كون في ألمه ملاذاً ورفيقاً يعض على قلبه في لحظات الخذلان.

تمتد الصحراء اللانهائية أمامهم، كأنها بساط جاف ممزق بألوان الغبار والألم، لكنها تبقى ملجأهم الوحيد، مأوى يحميهم من قسوة العالم وبرده القارس.

كبرت يارا وجوارا وكون، رغم أن العم افترق عنهم في طريقه الخاص. واجهوا خلال رحلتهم مخاطر جمة، من بينها محاولة الفرار من قبضة حراس المورون، ذوي الأجسام الضخمة والعقل القاسي. جوارا وقع في الأسر، بينما أظهرت يارا، رغم صغرها، قدرة فريدة لقنت بها الحراس درساً لا ينسى.

كانت يارا لطيفة القلب، لكنها ساذجة براءة طفلة. حتى وإن لم تتجاوز السنوات الثلاث، كان غريبًا أن تطلب من حارس ضخيم يبلغ طوله أربعة أعمدة خشبية أن يحملها، لكن الغريب حقًا أن يارا تمتلك نفوذًا غير مرئي ومكانة طبيعية يقرها الجميع. فهي تقع في المنتصف، لا تنتهي إلى نور المسكن، ولا إلى ظلام الوحشية، بل تحب وتقبل الجميع: الخير والشر، الظالم والمظلوم، الغريب والطبيعي.

تذكروا ذلك المورون الذي رفض تسليم جوارا، لكن يارا تحدثه بنبرة متلعثمة لكنها حازمة: "أنت قبيح..." لحظة فخر لكون، الذي رغم خطورة الموقف، لم يخف إعجابه بشجاعة ابنته الصغيرة. المورون لا يحبون الغرباء، لكن يارا لم تكن غريبة عن هذه الأرض، بل كانت جزءًا منها بطرق لا تُرى.

وأخيرًا، خرج جوارا من الأسر، جسده ملطخ بالوحل والطين، علامات محنته وأسرره، لكنه كان محببًا بشدة. استقبلته يارا بحنان، عانقته بكل حب، رغم اتساخ وجنتيها بالوحل وكأنها لا تكتثر للأوساخ في وجه المحبة.

لكن القادم كان أصعب على يارا الصغيرة، فالشيطان الذي نبهتها إليه العجوزة "تاتا" كان في انتظارها. الكل يعرف أن يارا معرضة للهجوم، وأنهم جميعًا على خط المواجهة، لكنهم يقاتلون من أجل حمايتها، ليس لشيء سوى لأنها تمثل لهم ماضي عزيزًا، وأملاً لم يمت بعد، وشعلة تنير دروبهم في عتمة المستقبل.

ينزل كون إلى النزل الأرضي العتيق، ذاك الذي شهد على آلاف السنين من قصص
الرحل وعبرهم الصحراء القاحلة، حيث لا يترك الزمن أثراً على ثباته وصموده. كان
المكان متهاكاً، بأرضيته الترابية وجدرانته المتشققة، لكنه ظل ملاذاً آمناً لمثل رحال
مثل كون. عند دخوله، تهاوى كون على السرير العريض الذي بدت أقمشته ممزقة
ومهجورة من رائحة الغبار والقدم، لم يحتمل جسده المثقل بالإرهاق أكثر، فغاب عن
الوعي بعمق.

بينما هو مستغرق في نومه الثقيل، كانت يارا الصغيرة تتفحص تفاصيل المكان
بعينين فضوليتين لا تعرفان الملل. لفت انتباهها على الطاولة المهترئة وردة سوداء
ذات لون قاتم كأنها محمولة بأسرار قديمة، تأملت الوردة وكأنها تنبض بالحياة وسط
ذاك الخراب. أما جواراً، فظل في الطابق العلوي، يعاني من جوع كاسح استولى عليه،
كأن بطنه لا يهدأ ولا يشبع، يترقب بشغف أي لقمة قد تسد رمقه. لم يكن الأمر
غريباً، فهكذا حال الرحل بين مشقات الصحراء المتتابة.

تمهد كون بهدوء، وصرف نظره عن تعب جسده ليراقب تحركات يارا الصغيرة؛ كانت
خطواتها الرقيقة قصيرة جداً، حتى بدا كأن قدميها النحيلتين تشبهان تلك السمكة
المنتفخة التي تعيش في المياه الضحلة. وفي لحظة من اللطف، سمع ضحكته الخفيفة
التي كسرت صمت المكان، فالتفتت يارا إليه ببراءة طفولتها، ثم اندفعت نحوه،

وقفزت على صدره الصلب، وبدأت تداعب لحيته التي طال عليها الإهمال بسبب حياته الشاقة المليئة بالمغامرات.

كان كون رجلاً ذا حضور قوي، وسحر جذاب يلفه رغم كل الصعاب، لكنه نسي العناية بنفسه، كما لو أن تلك المغامرات العنيفة كانت تبتلع شيئاً من روحه وجسده مع الوقت. طلبت منه يارا، بنبرة بريئة، أن يحضر لها المشط الذي كان موضوعاً على طاولة مهترئة بجانب المرأة. بحنان، حمل لها المشط وسلمه إليها، بينما كانت عيناها تراقب من خلال المرأة تعابير وجهها المستدير، وشدة بياضه الذي يشبه الجليد، ونقاء عيونها الزرقاء الصافية كصفاء السماء.

تفحصت يارا نفسها بفضول، وقالت بصوت صغير ورقيق: "واو، أهذا أنا يا بابا؟" توقفت أنفاس كون للحظة، متفاجئاً بهذه الكلمة التي خرجت من شفتيها. قال وهو يتسم بحذر: "لحظة... أنا من قلتها، يا يارا." لكن الطفلة لم تتركه ليفكر طويلاً، إذ ردت مبتسمة ومداعبة لحيته برقة: "بابا..." فأحمر وجه كون على الفور، لكنه استطاع كبح جماح خجله، وقال بسخرية خفيفة: "يارا، من علمك هذه الكلمة؟"

ردت بابتسامة بريئة على أصولها الطفولية: "تاتا الوحش" (وكان يقصدون عم كون [?])، فأزالها برفق من على صدره، وضرب برجله الأرض بعنف قائلاً: "أيها الملعون الشقي!"

في الجانب المقابل، شعر عم كون بحكة في أذنه، فنظر نحو المصدر وقال بابتسامة ساخرة: "من يتحدث عني؟" رغم ملامحه القاسية، بدا ذلك الرجل يحمل في عينيه دهاءً وحكمة عمر طويلة. بقيت نظرات يارا تتشبث بالبراءة، وكون لم يستطع مقاومة سحرها وجمالها الذي يأسر قلبه في كل مرة (يا عيني 😊).

لكن ذلك الجو الدافئ تقطّع فجأة عندما لاحظ جوارا توتر أبيه ونظرات يارا الساحرة، قبل أن يتمكن من التحدث، أسرع كون إلى الطابق العلوي هاربًا، تاركًا الصغيرين في حيرة من أمرهما.

جلس وحيدًا، مشحونًا بالقلق والريبة التي تنهش داخله، وهمس في نفسه بحزن: "أنا لست أبًا... أنا فقط رحّال أشعث، لا أعرف كيف أقاتل مثل أقراني." كانت رائحة الخمر تغلف المكان، متغلغلة بين أنفاس الموجودين، كأنها سحبت عقل كون بعيدًا إلى عالم آخر. وأخيرًا، توقف صوتًا غليظًا: "تمالك نفسك، أيها الرجل... هل ستشرب كل هذا وحدك؟ ما المناسبة؟ هل ستتزوج؟"

بغضب واضح، بصق كون الشراب وانزعج من التدخل، ونظر إلى صاحب الصوت بنظرة تشبه قطعًا هائجًا وقال: "اخرس!"

كان ذلك الشاب يشبه كون بشكل غريب، لكن عيناه كانتا سوداوين عميقتين، مختلفتين تمامًا عن عيني كون الخضراء الحاملة. لكن كون لم ينتبه كثيرًا، فقد تملكه

الدوار والإرهاق من كثرة الشرب حتى أغمي عليه، وسقط رأسه وهو يصطدم بقوة على الطاولة، ليغرق في نوم عميق.

إستمرت يارا الصغيرة بلا كلل في محاولة إيقاظ أبيها، فكانت تلمس وجهه بلطف وتحاول جذب انتباهه بحركاتها الصغيرة البريئة، لكن كون كان غارقاً في سباته العميق، كأن روحه قد تاهت في عالم آخر بعيد. حتى ابنه الصغير لم ينجح في إيقاظه، إذ وضع جواربه في أنف أبيه محاولةً لإحداث صوت أو إثارة ترد فعل، لكن دون جدوى. كان جسد كون جامداً، كأنه جثة بلا حياة، لا يتجاوب مع أي شيء من حوله.

في تلك اللحظة، ظهر ذلك الرجل الشاب الذي اقترب منه بخطوات هادئة وحازمة. مد يده ونقره نقرة قوية على رأسه، حتى عاد كون إلى وعيه وهو يتألم من تلك النقرة المفاجئة، وعيناه تلتقطان محيطه ببطء. نظر إلى الشاب بغضب واضح على وجهه وقال بنبرة متألّمة: "أيها الشيطان الملعون! هل هذه أصابع أم خناجر؟"، لكن الشاب لم يبدُ متأثراً، بل رفع إصبعه إلى شفثيه في حركة صارمة لأجل إسكات كون، ثم رمقه بنظرة مأكرة وابتسامة هادئة، وكأنه يقول له: "اهداً يا رجال".

رد الشاب ببرود وهو يشير إلى اللحية الكثيفة التي يملكها كون، قائلاً: "أنت تملأ المكان بضجيجك.. على الأقل احترم لحيتك، أيها الرجال".

لكن كون، مندهشًا وغاضبًا في آنٍ معًا، قام برمي يد الشاب بعيدًا عنه بقوة، وقال بسخرية واضحة: "ومن أنت؟ آه، آه... أجمل رجل وأحسنهم خلقًا إذا كنت كذلك! أخرج من الغرفة، الأطفال مذعورون."

انحنى الشاب بهدوء، وابتسم بابتسامة دافئة، ثم وضع قبلة رقيقة على جبين يارا الصغيرة. بدت يارا مستسلمة لهذه اللفتة، أغمضت عينيها بلطف وكأنها شعرت بالأمان في تلك اللحظة. ثم تجاهل الشاب وجود جورا الصغير بجانبه، ووجه حديثه إلى كون قائلاً: "لديك أميرة جميلة هنا... هل هي ابنتك حقًا؟"

شعر كون فجأة بالخطر يزحف في قلبه، وتوجه نحو يارا بسرعة، أمسك بها بإحكام وهو يحدق في الشاب بحدة، وقال بصوت صارم: "أنت اغرب عن وجهي، وإلا شوّهت ابتسامتك المريضة هذه."

ابتسم الشاب بابتسامة ساخرة وقال بنبرة غير مهتمة: "فتاة مسكينة حقًا... يا لك من بائسة أن تصلي إلى رجل مثل هذا." ثم فجأة، وجه كون لكمة قوية مما أدى إلى سقوط الشاب أرضًا وهو يلتقط أنفاسه وفمه ينزف ببطء.

ضحك الشاب بصوت خافت، وهو يحاول استعادة توازنه، وقال بصوت هادئ لكنه مليء بالثقة: "سأعرض عليك صفقة، سأرافك، وسأنقذ صغيرتك من الموت الذي يهددها."

رد كون بغضب واضح وهو يبعده عنه: "احتفظ بهرائك لنفسك، أنا لا أثق بساحر مثلك."

جورا، الصغير الفضولي، نظر إلى والده بعيون واسعة وقال باندهاش: "بابا، هل هو ساحر؟"

أجاب كون بنبرة جادة: "نعم، ساحر يخدم الشياطين."

ابتسم الشاب بابتسامة مليئة بالثقة والبرود، وقال بهدوء: "عذرًا، أنا ساحر نزيه وأحترم نوعي وقومي. لست بخائن. أنا ساحر حسب الطلب، وحسب الدفع فقط. لا دخل لي بالمبادئ هنا."

كان كون ينظر إلى ويل بعينين يشتعلان غضبًا، كأن نارين متقابلتين تتحديان السكون القاتم. أمّا ويل، فضلّ جالسًا ببرود، كجبل جليدي قديم لا تهزّه العواصف، وفي عينيه بريق مكرٍ حادّ كحدّ السيف، كأنهما يختزان سرًّا لا يبوح به. بينهما كان الهواء يثقل أكثر من الحديد، مشحونًا بتوتر يوشك أن ينفجر، حتى بدت الطاولة

الخشبية الفاصلة بينهما وكأنها ساحة معركة تنتظر شرارة أولى. وما جمعهما هناك لم يكن سوى يارا، تلك الفتاة التي كانت سبب هذا اللقاء المريب.

هي التي أقنعت والدها بأن ويل شخص جيّد، وأنّها ترغب في مرافقته في رحلاته، مصرة على رأيها رغم شكوك والدها التي تنهش قلبه مثل أنياب خفية. وبرغم ذلك، انصاع الوالد الحنون لرغبتها، كيف لا وهي التي تحمل على خديها لون ورد الصباح، فيذوب عند إصرارها كلّ صلابة. وعلى مقربة منها جلس جوارا، يراقب ويل بعينين ضيقتين حادتين، كأنهما ميزان حساس يقيس خطر الرجل الجالس أمامه. ظلّ الصمت سيد الموقف، لكنّه صمت ثقيل، أشبه ما يكون بعاصفة تترّص خلف الأفق. كان الأب والابن معًا يستشعران شيئًا مخيفًا يحيط بالغريب، ومع ذلك اختارا أن يكتما ما في صدرهما، متربصين بانكشاف الحقيقة.

وإذ فجأة، ومن دون أي تمهيد، انفتح الباب على مشهد لا يصدّق... أفعى سوداء، لامعة القشور، زحفت بخطوات متمائلة نحو الطاولة. لم يبدُ على كون أي خوف، بل رفع حاجبه ببرود العارف، إذ كان يدرك أنّ الأفعى ليست سوى رسولًا يحمل أنباء. توقفت أمامه، فتحت فمها ببطء كئيب، كاشفة أنيابها الحادة، ثم أسقطت ورقة حمراء على سطح الخشب.

مدّ كون يده مترددًا وأخذ الورقة، وعيناه تجولان بسرعة بين السطور، لكن وجهه تجمد فجأة كتمثال من حجر. كانت الرسالة من بيروم، يطلب منه العودة على الفور إلى الديار، إذ اقتحم ضيف مجهول قرية زورا وأسر النساء عنوة. كلّ من حاول من

المحاربين التصدي له سقط مهزومًا، فالضيف كان كالسرّاب، لا تؤثر فيه السيوف،
ولا تطاله التعاويذ، ولا تخذشه السموم. والأسوأ أنّه كان يقود النساء الآن إلى مكان
مجهول، بعيدًا عن أنظار الجميع.

شدّ كون قبضته حتى تحطّم الكأس الذي أمامه، فتبعثر الزجاج على الطاولة كما
تتناثر شظايا الصبر الأخير. رفع بصره ببطء، فإذا بعيون ويل تتوهج بشعر غامض،
وقال بنبرة ثقيلة تُنذر بالخطر:

"أظن أنّ الوقت قد حان لكي نتحالف، أيها الرجال."

أجابه كون، وصوته مشدود بالغضب وكأنّه يقاوم اعترافًا مُرًّا:

"هل لك علاقة بالأمر؟"

ابتسم ويل بخفة، وكأنّ السؤال لا يعنيه إلا كتسلية عابرة:

"لا أعرف حقًا... لكنّي جئت لأساعد فقط."

عصر كون عينيه بشدّة، وفي نبرته قسم لا رجعة فيه:

"أقسم أنّي سأقتلك."

لكن التوتر لم يكتمل، إذ قاطعت يارا الموقف بكلمات بدت للوهلة الأولى بلا معنى، كلمات خرجت بصوت مختلف، حتى إنّ ويل نفسه لاحظ أنّ عينيها بدأتا تومضان بضوء غامض. وفجأة، انطلق من يدها سوط ذهبي، التفّ حول عنق ويل. قالت ببراءة، وكأَنَّها ما زالت طفلة:

"بابا... بابا، هل تريد أن نلعب مع ويل؟"

تبادل الجميع نظرات دهشة مذهولة، إلا ويل، الذي أمسك بالسوط ودفعه بعيداً، فكشف عن علامة غريبة على جبهته. ثم نظر إلى الفتاة، وصوته ممتزج بإعجاب خفي وتحذير قاسٍ:

"أنتِ فتاة أمينة، تملكين غريزة الدفاع عمّن تحبين... لكن احتفظي بقوتك لمواجهة من سيقتلُك، يا صغيرتي."

لم تحتمل يارا أكثر، فانفجرت بالبكاء، فانقضّ جوارا عليها واحتضنها بعنف:

"أيها الساحر البغيض، ماذا فعلت لها؟!"

غير أنّ وقع أقدام قادمين قطع الموقف تَوًّا. دفع كون الطاولة جانبًا، ويده امتدت
كبرق خاطف إلى عنق ويل:

"سوف أقتلك... لكن يجب أن ننهي ما بدأ هنا."

وفي لحظة، وُضع سيف بارد على رقبة كون من الخلف، وصوت حاد قال بصرامة:

"سيدي... هل نقتله؟"

ابتسم ويل ببرود غريب، وقال متهمًّا:

"أنت وغباؤك... اهدأ، يا أخي."

رفع كون حاجبه بدهشة غاضبة:

"لستُ أخاك، أيها الهجين."

وقبل أن يتمكن من الرد، صرخ جوارا بدعرا:

"أبي... خلفك!"

استدار كون، فإذا بامرأة نحيلة القوام، شعرها أحمر كلون النار المشتعلة، وعيناها زرقاوان بصفاء الجليد، تتقدم بخطوات بطيئة واثقة. كانت نظراتها تتركز على يارا، التي ما زالت ترتجف في حضن جوارا. ارتجف الأخير، ورفع خنجره في وجهها، لكن عيني المرأة سطعتا بضوء حاد، حتى فقد وعيه في لحظة خاطفة.

أسرع كون، وسحب سلاحه وصوّبه نحو رأسها:

"ماذا فعلت بابني؟"

غير أنّ جوارا استعاد توازنه فجأة، وحدسه يعلو مثل صرخة داخلية:

"أبي... هذا الشخص سيخطف يارا. حدسي لا يخطئ."

حدّق كون فيه بغضب، وصوته يتشقق من ثقل الماضي:

"بئسًا لك، أيها الخائن... لماذا عدت بعد كل هذه السنين لتدمّر ما تبقى من عالمي؟"

ردّ ويل بهدوء، كمن يستمتع باستفزازة:

"ابنك يملك حدس أمه... وتهورك... وذكاء عمه."

صرخ كون بغضب عارم:

"أخرس! أنت من استدعيت الوحش العاقر ليقتل أبي وزوجتي."

أجابه ويل ببرود أشدّ من صقيع الشتاء:

"أبولك كان عنيدًا... وزوجتك رفضت تسليم الطفل. لو أنّها سلمته... لنجت."

ارتجف كون حتى كاد الغضب يفتك بعروقه:

"أنت تابع لذلك الشيطان... أليس كذلك؟"

قال ويل بابتسامة صغيرة، تحمل شيئاً من الجنون:

"لا... أنا أريد أن أصبح الشيطان."

لم يتمالك كون نفسه، فأطلق رصاصة نحو رأس المرأة، لكنها تفادتها بخفة مذهلة. أشار إلى جوارا، مفعلاً واقياً سحرياً جعلهما يختفيان عن الأعين، لكن المرأة انقضت على يارا، وأمسكت بها بقوة. فجأة، أطلقت الفتاة صرخة مدوية، هزت المكان كله، وفي لحظة واحدة... اختفى جوارا ويارا معاً.

وقفت المرأة مبهوتة، الدهشة على ملامحها:

"هذه الفتاة صعبة المراس حقاً... يا عزيزي ويل."

التفت كون إلى ويل، الذي كان سلاحه مصوباً إلى رأسه، وسيفه على وشك أن يغادر غمده. فقال الرجل ببرود آثم:

"سأتركك الآن... لكن مع حلول تجمع الوحوش العاقرة... ستجدني أمامك. لذلك، احم يارا، يا أخي الشجاع."

واختفى ويل فجأة، تاركا كون يصرخ بغضب حارق يذيب صمته.

حينها، خرج جوارا من الخزانة التي كان يختبئ فيها، وعيناه متجهتان نحو يارا التي ارتجفت كغصن في ريح عاتية. جلس كون على الأرض، يضع يديه على رأسه المثقل بالندم، وصوته يخرج كهمس ثقيل ينزف مرارة:

"ماذا سأفعل الآن؟"

كان كون ينظر إلى ويل بعينين يشتعلان غضبا، كأن نارين متقابلتين تتحديان السكون القاتم. أما ويل، فظل جالسا ببرود، كجبل جليدي قديم لا تهزه العواصف، وفي عينيه بريق مكرٍ حاد كحد السيف، كأنهما يختزان سرا لا يبوح به. بينهما كان الهواء يثقل أكثر من الحديد، مشحونا بتوتر يوشك أن ينفجر، حتى بدت الطاولة الخشبية الفاصلة بينهما وكأنها ساحة معركة تنتظر شرارة أولى. وما جمعهما هناك لم يكن سوى يارا، تلك الفتاة التي كانت سبب هذا اللقاء المريب.

هي التي أقنعت والدها بأن ويل شخص جيّد، وأنها ترغب في مرافقته في رحلاته، مصرة على رأيها رغم شكوك والدها التي تنهش قلبه مثل أنياب خفية. وبرغم ذلك،

انصاع الوالد الحنون لرغبتها، كيف لا وهي التي تحمل على خديها لون ورد الصباح،
فيذوب عند إصرارها كلّ صلابة. وعلى مقربة منها جلس جواراً، يراقب ويل بعينين
ضيقتين حادتين، كأنهما ميزان حساس يقيس خطر الرجل الجالس أمامه. ظلّ
الصمت سيد الموقف، لكنّه صمت ثقيل، أشبه ما يكون بعاصفة تترّص خلف
الأفق. كان الأب والابن معاً يستشعران شيئاً مخيفاً يحيط بالغريب، ومع ذلك اختارا
أن يكتما ما في صدرهما، متربصين بانكشاف الحقيقة.

وإذ فجأة، ومن دون أي تمهيد، انفتح الباب على مشهد لا يصدّق... أفعى سوداء،
لامعة القشور، زحفت بخطوات متمائلة نحو الطاولة. لم يبدُ على كون أي خوف، بل
رفع حاجبه ببرود العارف، إذ كان يدرك أنّ الأفعى ليست سوى رسولاً يحمل أنباء.
توقفت أمامه، فتحت فمها ببطء كئيب، كاشفة أنيابها الحادة، ثم أسقطت ورقة
حمراء على سطح الخشب.

مدّ كون يده متردداً وأخذ الورقة، وعيناه تجولان بسرعة بين السطور، لكن وجهه
تجمد فجأة كتمثال من حجر. كانت الرسالة من بيروت، يطلب منه العودة على الفور
إلى الديار، إذ اقتحم ضيف مجهول قرية زورا وأسر النساء عنوة. كلّ من حاول من
المحاربين التصدي له سقط مهزوماً، فالضيف كان كالسرّاب، لا تؤثر فيه السيوف،
ولا تطاله التعاويذ، ولا تخدشه السموم. والأسوأ أنّه كان يقود النساء الآن إلى مكان
مجهول، بعيداً عن أنظار الجميع.

شدّ كون قبضته حتى تحطّم الكأس الذي أمامه، فتبعثر الزجاج على الطاولة كما
تتناثر شظايا الصبر الأخير. رفع بصره ببطء، فإذا بعيون ويل تتوهج بشرر غامض،
وقال بنبرة ثقيلة تُنذر بالخطر:

"أظن أنّ الوقت قد حان لكي نتحالف، أيها الرجال."

أجابه كون، وصوته مشدود بالغضب وكأنّه يقاوم اعترافاً مُراً:

"هل لك علاقة بالأمر؟"

ابتسم ويل بخفة، وكان السؤال لا يعنيه إلا كتسلية عابرة:

"لا أعرف حقاً... لكنّي جئت لأساعد فقط."

عصر كون عينيه بشدّة، وفي نبرته قسم لا رجعة فيه:

"أقسم أنّي سأقتلك."

لكن التوتر لم يكتمل، إذ قاطعت يارا الموقف بكلمات بدت للوهلة الأولى بلا معنى، كلمات خرجت بصوت مختلف، حتى إنّ ويل نفسه لاحظ أنّ عينيها بدأتا تومضان بضوء غامض. وفجأة، انطلق من يدها سوط ذهبي، التفّ حول عنق ويل. قالت ببراءة، وكأنّها ما زالت طفلة:

"بابا... بابا، هل تريد أن نلعب مع ويل؟"

تبادل الجميع نظرات دهشة مذهولة، إلا ويل، الذي أمسك بالسوط ودفعه بعيداً، فكشف عن علامة غريبة على جبهته. ثم نظر إلى الفتاة، وصوته ممتزج بإعجاب خفي وتحذير قاسٍ:

"أنت فتاة أمينة، تملكين غريزة الدفاع عمّن تحبين... لكن احتفظي بقوتك لمواجهة من سيقتلك، يا صغيرتي."

لم تحتمل يارا أكثر، فانفجرت بالبكاء، فانقضّ جوارا عليها واحتضنها بعنف:

"أيها الساحر البغيض، ماذا فعلت لها؟!"

غير أنّ وقع أقدام قادمين قطع الموقف تَوّاً. دفع كون الطاولة جانباً، ويده امتدت كبرق خاطف إلى عنق ويل:

"سوف أقتلك... لكن يجب أن ننهي ما بدأ هنا."

وفي لحظة، وُضع سيف بارد على رقبة كون من الخلف، وصوت حاد قال بصرامة:

"سيدي... هل نقتله؟"

ابتسم ويل بـبرود غريب، وقال متهمًا:

"أنت وغباؤك... اهدأ، يا أخي."

رفع كون حاجبه بدهشة غاضبة:

"لستُ أخاك، أيها الهجين."

وقبل أن يتمكن من الرد، صرخ جوارا بدعرا:

"أبي... خلفك!"

استدار كون، فإذا بامرأة نحيلة القوام، شعرها أحمر كلون النار المشتعلة، وعيناها زرقاوان بصفاء الجليد، تتقدم بخطوات بطيئة واثقة. كانت نظراتها تتركز على يارا، التي ما زالت ترتجف في حضن جوارا. ارتجف الأخير، ورفع خنجره في وجهها، لكن عيني المرأة سطعتا بضوء حاد، حتى فقد وعيه في لحظة خاطفة.

أسرع كون، وسحب سلاحه وصوّبه نحو رأسها:

"ماذا فعلت بابني؟"

غير أنّ جوارا استعاد توازنه فجأة، وحدسه يعلو مثل صرخة داخلية:

"أبي... هذا الشخص سيختطف يارا. حدسي لا يخطئ."

حدّق كون فيه بغضب، وصوته يتشقق من ثقل الماضي:

"بئسًا لك، أيها الخائن... لماذا عدت بعد كل هذه السنين لتدمّر ما تبقى من عالمي؟"

ردّ ويل بهدوء، كمن يستمتع باستفزازة:

"ابنك يملك حدس أمه... وتهورك... وذكاء عمه."

صرخ كون بغضب عارم:

"أخرس! أنت من استدعيت الوحش العاقر ليقتل أبي وزوجتي."

أجابه ويل ببرود أشدّ من صقيع الشتاء:

"أبولك كان عنيداً... وزوجتك رفضت تسليم الطفل. لو أنّها سلمته... لنجت."

ارتجف كون حتى كاد الغضب يفتك بعروقه:

"أنت تابع لذلك الشيطان... أليس كذلك؟"

قال ويل بابتسامة صغيرة، تحمل شيئاً من الجنون:

"لا... أنا أريد أن أصبح الشيطان."

لم يتمالك كون نفسه، فأطلق رصاصة نحو رأس المرأة، لكنها تفادتها بخفة مذهلة. أشار إلى جوارا، مفعلاً واقياً سحرياً جعلهما يختفيان عن الأعين، لكن المرأة انقضت على يارا، وأمسكت بها بقوة. فجأة، أطلقت الفتاة صرخة مدوية، هزت المكان كله، وفي لحظة واحدة... اختفى جوارا ويارا معاً.

وقفت المرأة مبهوتة، الدهشة على ملامحها:

"هذه الفتاة صعبة المراس حقاً... يا عزيزي ويل."

التفت كون إلى ويل، الذي كان سلاحه مصوباً إلى رأسه، وسيفه على وشك أن يغادر غمده. فقال الرجل ببرود آثم:

"سأتركك الآن... لكن مع حلول تجمع الوحوش العاقرة... ستجدني أمامك. لذلك، احم يارا، يا أخي الشجاع."

واختفى ويل فجأة، تاركاً كون يصرخ بغضب حارق يذيب صمته.

حينها، خرج جوارا من الخزانة التي كان يختبئ فيها، وعيناه متجهتان نحو يارا التي ارتجفت كغصن في ريح عاتية. جلس كون على الأرض، يضع يديه على رأسه المثلث بالندم، وصوته يخرج كهمس ثقيل ينزف مرارة:

"ماذا سأفعل الآن؟"

لم يعرف كون ماذا يفعل، ولأول مرة عجزت يداه المتمرستان، اللتان تعودتا على حمل السيوف ومواجهة الأخطار، عن القيام بأي حركة. كان جسده يختنق بين صراعات العقل والقلب، خاصة وأن أخاه كان في الواجهة، يسعى أيضاً لأخذ يارا، ما زاد من ثقل اللحظة على صدره. ووجه عينيه نحو المرأة ثم ابتسم بشكل هستيري، كأنه يطلق صرخة يأس في وجه القدر، وقال بصوت متهدج لكنه حاد: «بئس لك أيها العاجر، بئس.. لا أستطيع خسارة المزيد». ثم، فجأة، أدار وجهه ورفع كأس الماء الموضوع بجانبه، ورش وجهه به محاولةً لإيقاظ حواسه المبعثرة.

فجأة، استيقظ جوارا من نومه، وبصوت مفعم بالحيرة والقلق قال: «أبي، أتريد أن نذهب إليه؟» نظر كون إلى ابنه بحيرة، وأجاب بصوت ملئه التردد: «لا أعرف حقاً يا بني..» حاول جوارا التذكير، فقال: «لكنك ذهبت إليه عندما مرضت أمي بشدة، فعالجها..» تأمل كون لحظة، وأجاب بثقل: «لكنه من المورون، لقد دفعت ثمناً باهظاً لذلك العلاج، والآن ماذا سأدفع؟»

قال جوارا بلا تردد: «إذن خذ هذا السوار.» انهر كون عندما أمسك بالسوار العاجي المنقوش عليه رأس طائر العنقاء البارد، تلك النقوش التي تلمع بتفاصيلها بدقة متناهية كأنها تنبض بالحياة. نظر إلى جوارا وسأله: «من أين حصلت عليه؟» فأجابه بصوت خافت: «من يارا.. لقد وضعه ذلك الوحش من الرون على يديها، وأنا أخذته.»

تأمل كون السوار في يده، وقال في نفسه بتأني: «كيف لم أتبصر بهذا من قبل؟ هذا السوار ثمين لدرجة أنه لو وصل إلى الأيدي الخطأ، فسوف يموت الكثيرون. لديه قدرة على تسكين الروح المتمردة، لكنه لماذا أعطاه يارا؟ وكيف وصل إلى ذاك الرون؟ المورون والرون نادراً ما يجتمعان.»

توقف لوهلة، ثم تذكر معلومة غامضة، وقال لنفسه: «هناك احتمال واحد فقط.. العنقاء، كل سنة تحوم حول الرون لتجمع القلوب التي ترمى في الشلال، فتحوّلها إلى حجارة بيضاء تشبه العاج، وتضع عليها بيضها. لذلك يزور الرون كل سنة المورون ليأخذوا تلك الحجارة ويحولونها إلى أسورة لعلاج الأرواح المتهتجة أو المريضة. الروح هي أساس كل شيء.»

تهمد كون طويلاً، وأدار نظره إلى جوارا قائلاً بصوت مفعم بالعزم: «لم يعد في وسعنا غير ذلك، يجب أن نذهب إليه لنجد حلاً لهذه الصغيرة.»

أخرج كون خنجره من غمده، ورفع طرفه إلى سماء الصحراء الواسعة، بينما كان يحمل يارا النائمة بين ذراعيه، وجوارا يسير أمامه بخطوات ثابتة وسريعة. فجأة، لمح

كون أجنحة مختلفة الأنواع تحلق في السماء، لكنها بدت غير خطيرة. كانت الصحراء،
برغم جفافها القاحل، مسكناً طبيعياً للطيور، تعج بالفرائس السهلة مثلهم.

كان كون يشعر بقلق عميق من البقاء في ذلك المكان، لأنه يعرف أن المورون، عندما
يحسون بالخطر، يخفون أماكنهم بدقة متناهية. وكان يحس بقوة طاقة يارا المخيفة
التي ربما تجذب الأنظار، لذا كان توخي الحذر واجباً.

ثم أدار نظره إلى يساره، ورأى شخصاً ضخماً الجثة واقفاً بثبات، وعندما تأمل وجهه
لفترة طويلة، عرف أنه شجرة عقيمة، مسكن المورون. أنزل كون يارا برفق على
الأرض، ثم أخرج السوار وأطلق منه صوتاً رقيقاً يشبه تغريد العندليب، من خلال
فتحة صغيرة في وسط رأس العنقاء الباردة. بعد ذلك، لمح خطافاً معلقاً فوقهم، وإذا
به يصدر صوتاً خافتاً يقول: «أتبعني...»

تبعه كون والآخرين بحذر حتى وصلوا إلى مكان فارغ، كما كان كون يتوقع، لكن ما لم
يكن يتوقعه هو أن ذلك المورون ظل يحدق في يارا، حتى شحب وجهها من المفاجأة
والرعب عند رؤيته.

تحدث المورون بصوت مزعج ومخيف: «أنت كنز العوالم، أيتها الروح.»

تملكه الرعب فوراً من هذا المشهد، فمسك جواراً وخنجره بيد مرتجفة، لكنه رأى المورون يتحول فجأة إلى شكله الطبيعي، ووجه نظراته الحادة إلى كون، وقال: «لم أرك منذ وقت طويل، أيها الرجال، لتدخل.»

أحاط المكان بهالة من الغموض والخطر، وكان كون يشعر بثقل المسؤولية على عاتقه، وكأن مصير الجميع معلق على هذا اللقاء.

دخل كون والطفلان النفق الضيق، المظلم كأحلك ليالي الصحراء، وكان يشبه أنفاق الاختباء القديمة التي تستخدمها القبائل للحماية، إلا أن هذا النفق بدا أضخم وأقدم، كأنه جزء من عالم غامض مدفون تحت الرمال منذ آلاف السنين. الجدران الحجرية المحيطة به كانت ملساء من أثر الزمن، لكنها في نفس الوقت تفيض بهالة من الغموض والخطر، تعكس أضواء خافتة في زواياها وتصدح بصدى الخطوات الثقيلة التي تدوي في المكان.

دفع الرجل المورون بصندوق خشبي مهترئ إلى جانب الحائط، حيث بدا كأنه يحوي أسراراً وكنوزاً قديمة، ثم أخرج عصا طويلة سوداء اللون، منحوتة بنقوش غريبة تلمع بخفة تحت ضوء الشموع الباهتة. التفت ببطء نحو كون، وصوته ثقيل وحاد وهو يقول: «لو أنك لم تكن تحمل هذا السوار، لانتبهت حياة هذه الطفلة منذ زمن بعيد... ومع ذلك، لا أحب الزبائن الذين يأتون كثيراً.»

جلس المورون بثقة عميقة، ومد عصاه أمامه وكأنها رمح يحرسه من كل سوء، ثم أمر كون بالجلوس مقابله. جلس كون، مع شعور متداخل بين الحذر والتوتر، فتحدث كون بنبرة مرتجلة لكنها تحمل ثقل خبرات أعوام: «أريدك أن تخفي قوتها.»

نظرت عينا المورون إليه بابتسامة متهمكة، رغم تعابير وجهه العبوسة، وقال: «يارا تستطيع أن تخفيها، لكنها لا تريد. مشاعرها متشابكة مع قوتها؛ عندما يشعر جسدها بالخطر، تنبعث هالة ضخمة تحيط بها، تصل أحياناً إلى حدود العوالم، ثم تختفي.»

توقف كون لوهلة، يتأمل الكلمات بذهول، ثم قال: «حقاً؟»

رد المورون بهدوء كأنه يؤكد أمراً لا مفر منه: «أنت تعلم أنني مطرود بسبب أخيك، صحيح؟ هو الذي ورطني بالدخول إلى هنا، وأنا لا أرحب بزوار من شعب الزورا.»

حدق المورون في عينيه، وقال بجدة: «أعرف، لكن هذا الأمر مختلف. أخوك يسعى وراء شيء شرير.»

فرك المورون رأسه بنوع من الإحباط، وأكمل بصوت منخفض: «أخوك يريد أن يأخذ من كل عالم شيئاً جوهرياً؛ عكس الشيطان الذي يمتص القوى ويخزنها في جسده. طريق أخيك سيقضي على العوالم نفسها، وليس نفسه فقط... الرون جلبوا الظلام

لأن النور لا يناسبنا نحن المورون وشعب الزورا. أخوك يريد يارا لأنها نتاج جوهري لكل هذه العوالم.»

قاطعه جوارا بصوت طفولي لكنه مليء بالفضول: «يارا دائماً تقول إنها ترى النجوم، ونرى فقاعات، ودائماً تحلم بأطفال.»

أكمل المورون بنظرة متأملّة: «يارا تحمل في داخلها كل ذكريات العوالم، تحمل النور والظلام، الخير والشر، السكينة والغضب. إنها مزيج فريد من كل شيء، وهذا ما يفتقده أخوك. لذا لا أستطيع مساعدتها إلا إذا قررت هي، ربما لا تستطيع فهمك، لكن إذا واجهت روحها، سوف تفهم.»

سأل كون بقلق: «وكيف يحدث ذلك؟»

أجاب المورون بصوت يتسم بالغموض: «الروح تكبر الجسد بمائة عام، وتجره إلى ما يبقيه حياً. بين يارا وروحها رابط قوي جداً. سأجرب شيئاً خطيراً.»

قال كون متممًا: «ماذا؟»

اقترب المورون ببطء، ومد يده على يارا النائمة، وقال بوقار: «لتقبلي أيتها الروح بالسلام، وليكن لسانك شاهداً.»

ارتجفت يارا قليلاً ثم هدأت، وظهر على ندبتها وشم غامض ينبعث منه توهج خافت، ثم خرجت منها صورة امرأة فاتنة، متألئة بجمال وسحر غريب.

سأل كون مذهولاً: «هل هذه يارا؟»

قال المورون بثقة: «إنها يارا الكاملة.»

نظرت الروح إلى كون قليلاً، ثم تحدثت بصوت هادئ وثقيل بالمعنى: «سأخبركم شيئاً. يارا مستعدة لفعل الكثير، وهي واعية بمصيرها. تتعمد إظهار هالتها لجذب الجميع، لأن الحراس الأربعة سيفقدون قوتهم، وسيعود النور إلى العوالم. يارا تختار الآن من تدمج معه قوته، لتكمل وصية الأسلاف بخلود الظلام.»

فرك كون عينيه بدهشة، وقال: «ماذا؟»

أجاب المورون بنبرة جدية: «أيتها الروح، هل يارا من...؟»

قالت الروح بثقة ووضوح: «نعم، يارا من نسل الأسلاف، بشرية، لكنها ولدت لغرض وحيد: إعادة التوازن.»

فقال كون، بعد أن أدرك ثِقَل كلام الروح، وصوته يخرج ببطء كأن كل كلمة فيه
تحمل حمل قرون:

«ماذا بعد التوازن؟»

رفعت الروح رأسها قليلاً، كأنها تستمع لحنين قديم يتردد في جدران المكان، ثم قالت
بنبرة جافة، باردة مثل صقيع الفجر:
«الموت.»

ارتجف صوت المورون، وملامحه تعكس مزيجاً من الرفض والذهول:
«لكن الأسلاف... لا يموتون!»

ابتسمت الروح ابتسامة شاحبة، وكأنها تتذكر شيئاً فقدته منذ زمن، ثم أطرقت
برأسها نحو يارا، تحدّق فيها بعينين يملؤهما الأسى:

«سوف تمر يارا بعقبات كثيرة، وسوف تنقذ الكثير... لكن حين تحتاج هي لمن ينقذها، لن تجد أحدًا. محزن... محزن أنها ستموت، رغم أنها خالدة.»

رفع كون حاجبه في ارتباك، وكأن عقله يحاول رفض الفكرة:

«خالدة؟!»

أجابت الروح، وصوتها يمتزج بين الحزن والفخر:

«يارا تختلف عن أسلافها الذين حملوا نصف المعادلة فقط... لقد امتلكوا القوة لخلق جانب واحد من التوازن، لكن يارا هي التوازن نفسه. ولهذا فهي خالدة. أمها اكتشفت ذلك في اللحظة التي غرست فيها أظافرها في لحمها لتلتهمها، وأبوها... أبوها قرر الموت فداءً لهذا السر. لم يستطع البوح به لأي عالم، ولا حتى لأقرب المقرّبين. لكن رؤية المآسي تتكرر أمامه كانت كحجارة تسحق روحه... فاختر أن ينهار، أن ينهي نفسه، ويترك أمها تائهة، ويترك ذاته تتحرر من العذاب.»

وفجأة قطع صوت الروح بشهقة حادة، شهقة من جوارا، كأنها سكين اخترقت قلب الحاضرين. كانت الدموع تهطل من عينيه بحرارة، وصوته يتقطع:

«ه... هل ستموت حقًا؟»

أومأت الروح ببطء، والظل يزحف على ملامحها:

«نعم... لكن... هناك شيء فعلته أنا في حياتي كـ"يارا" كان سببًا في نجاتها. لقد نزعته من جسدها المشاعر، جعلتها فارغة من الألم... لكن الآن، أريدها أن تعيش كإنسانة.»

مال المورون إلى الأمام، عينيه تضيئان بتساؤل حاد:

«هل عشتِ هنا من قبل؟»

ضحكت الروح ضحكة قصيرة، فيها مرارة التجارب التي لا تُعد:

«نعم... أنا أُعاد إلى جسدها كل مائة عام. أعيش قرنًا كاملاً، أرى أحداثه، أواجه نهايته، لكن الأشخاص يتغيرون. هذه حياتي الثالثة.»

انحنى كون للأمام أكثر، الدهشة تكاد تفجر ملامحه:

«لحظة... هل تقولين إن يارا وجدت قبلنا؟»

نظرت إليه الروح بعمق، وقالت وكأنها تفتح بابًا نحو ماضٍ لا يُقاس:

«يارا من الأسلاف. عاشت معهم، وشهدت كل العصور. لكن لأن مصيرها هو التوازن، ولأنها التوازن ذاته، لم تستطع أن تغيّر بشاعة العوالم، ولا أن تمحو الشر المدفون خلف الظلام. لقد عادت، ثم ماتت... عادت، ثم ماتت... بطرق متعددة. أحيانًا تُترك لتسقط، أحيانًا تُباع، أحيانًا تُستغل. لكن في حياتها الثانية... قبض عليها الشيطان، ومعه أخوك، واستخلصوا طاقتها، واستدعوا بها الوحوش العاقرة. والمؤسف أن تلك الوحوش لا يمسخها الزمن، ولا يُبطلها البعث... إنها دائمة.»

ظل المورون صامتًا للحظة، وكأن الظلام حوله يثقل صدره، ثم قال بصوت مبحوح:

«والآن... ما العمل؟»

رفعت الروح رأسها، كأنها تلبست لسان يارا وعينيها تشعان بعزم غامض رغم الارتباك:

«يجب أن أعيش... كنسانة. يجب أن أصل إلى شلال السيرون، وأبعث الحياة في

العوالم. لا... لا تدعوني أموت فقط.»

لكن يارا، هل تتذكر كل ذلك؟

قالها كون بصوت بارد كالجليد، عيناه ثابتتان عليها دون رمشة، كأن كل كلمة منه سهم يخترق الصمت.

قالت الروح، بصوت يخرج من عمق الضباب المحيط بهم:

لا، يارا لا تتذكر... ومن الجيد أنها لا تتذكر.

لكنها، في زمن بعيد، في حياتها الثانية، عاشت طويلاً بلا مشاعر... وكان ذلك بسببي.

انتزعتُ منها مشاعرها حتى صارت تتلذذ بالقتال، بعد أن أخذتها أنت أيها المورون...

ارتجف الهواء فجأة، والتوى ظل المورون على الأرض كأفعى سوداء، وانقلبت عيناه بحدة، وصاح:

كيف؟ وماذا؟ أنا؟ كيف حصل ذلك؟

ابتسمت الروح ابتسامة حزينة، وكأنها تتذكر المأ غابراً:

لقد أخذتها من حدودكم... كانت تشبهكم لدرجة أنكم ربيتُموها كواحدة منكم،

علمتموها القتال تحت وهج الثلج القارص، حتى صارت مقاتلة عظيمة.

وربما هذا الشيء الوحيد الذي ستذكره.

ستكبر لتقول: "أنا من المورون"... نعم، أحببتكم بلحمها وعظمها وعروقها... أحببتكم، وربما بدأت تتذكر.

هناك ذكريات مؤلمة أفضل أن أمحوها أنا بنفسني، لأنها مأساوية للغاية...

سكنت الروح لحظة، والثلج بدأ يتساقط حولهم في صمت ثقيل، ثم واصلت:
بعد أن عاشت بينكم، ذهبت للقتال مع حراس الحدود، لكن انتهى بها الأمر مقطوعة الرأس... ومعلقة هناك، حيث لا يراها أحد.

لا أحد تذكرها سواك... وربما طردك كان لأنك أردت البحث عنها، رغم أنك لا تتذكرها.

آه... أنا مجرد روح تخزن الذكريات المحطمة.

اقترب المورون خطوة، وبريق غضب في عينيه:
إذن، لماذا حصل هذا؟ ألم تقولي إنها قوية؟

ردت الروح بصوت متماوج بين الحزن والفخر:
قوية، نعم... لكن لم يعلمها أحد استخدام قوتها الحقيقية.
يارا لا تستطيع حتى استيعاب قوتها لأصفها... لكن، رأيت تلك النجوم الطائفة في السماء؟

قوة يارا تكمن في جمع الطاقة من كل شخص يلمسها دون أن تؤذيه، ثم تخزينها لتطلقها في لحظة... ربما عبر وميض في عينيها، أو لهب يخرج من يديها، أو تنقل خاطف، أو حتى إنقاذك أنت دون أن تدري.
مهمتها الوحيدة... إنقاذ الجميع.

تدخل جورا، وصوته يقطر دهشة:
إنها تشبه الإلهة...

هزت الروح رأسها ببطء:
ليس تماماً... لكن العالم صار فوضى عميقة لدرجة أنه اندمج معها وحسبها سلاماً.
يارا وجدت... وحسب.
ولا أعرف حتى أنا كيف، لكن أظن أنها في النهاية تعرف...
أنا، روح تخزين حياة يارا فحسب.

وفجأة، تحركت يارا، عيناها تلمعان بنظرات حنونة، لكن خلفها ظل حزن عميق، وكأن روحها تتذكر كل من فقدت.

كان الجميع يحدقون بها بحسرة، فمدت يدها نحو سيف كون، قبضت عليه بإصرار، وقالت بصوت خافت لكنه مليء بالعاطفة:

"إنه أخي... لقد حبسه الشيطان هنا، لكنه تحرر من سلطته. أظن أنني تذكرتك يا أخي."

فما كان من السيف إلا أن نطق فجأة:

"أختي، نامي... أنا بجانبك."

شهق الجميع بدهشة، واقترب المورون من السيف بفضول حاد، رافعاً عصاه، وأطلق منها وهجاً شاحباً تحوّل إلى روح مقاتل شاب، وجهه مليء بالعزيمة.

قال الروح الشاب بصوت هادئ:

"من أنت؟"

ردت يارا والدموع تلمع في عينيها:

"إنه أنت... يا أخي القديم. اشتقت إليك... ليتك عشت، وأنا متُّ."

ثم خارت قواها فجأة، وسقطت مغشياً عليها، والثلج يذوب فوق شعرها، فيما ظل الجميع واقفين في صمت، غير قادرين على فهم ما حدث للتو...

بعد استدعاء المورون للروح من السيف الفضي، سقطت يارا فاقدة الوعي، وكأن جسدها لم يحتمل ثقل اللقاء. لكن الروح لم تختفِ... بل بقيت، تطفو أمامهم وهي تبكي بصوت متقطع، بكاءً يحمل شيئاً أعمق من الحزن العادي. لم يكن المورون أو كون قد رأيا الروح في هذه الحالة من قبل.

وقف المورون يحدق فيه للحظات قبل أن يتقدم نحوه، لتبدأ بينهما مجادلة حادة. صوت الروح كان مهتراً، لكنه مليء بالغضب والخذلان:

"أتعلم...؟ يارا لم تكن مجرد فتاة بالنسبة لي... في حياتها الثانية، كانت أختي. تربينا معاً بين المورون، أكلنا من نفس الخبز، وشاركنا نفس السرير البارد في الليالي الطويلة. قاتلنا جنباً لجنب، حتى جاء ذلك اليوم..."

صمت للحظة، وعيناه الفارغتان كأنهما تبحران في ذكريات غارقة، ثم أكمل بصوت خافت:

"يومها، سقطت هي في المعركة... وسقطت أنا معها. لكن قدرتي كان أبشع... فقد ظلمت عالماً بين عالم الأحياء والأموات، حتى قبض عليّ الشيطان، وأسرنى داخل هذا السيف، ليستخدمني ورقة يبتز بها يارا متى شاء."

المورون نظر له بحدة، كأنه يقرأ ما وراء كلماته، بينما كان كون يستمع، يحاول أن يفهم كيف أن شخصاً من المورون تربى مع يارا صار أسيراً في قطعة معدنية.

لكن فجأة، شعر المورون بشيء غريب، إحساس غامض يتسلل لعقله... كأن هناك دخيلاً من خارج المكان. أغمض عينيه، مستعيناً بقدرة الخطاف، ليرى بعينه ما لا يراه الآخرون. المشهد كان مرعباً: فوق النفق، يتجول وحش عاقر ضخم، وعلى ظهره امرأة غامضة، وبجانبيها فتاة صغيرة مقيّدة، ملامحها تكاد تكون نسخة عن نساء الزورا، وكأن دمهم يجري في عروقها.

التفت المورون إلى كون، وأخبره بما رأى. لحظة الصدمة ارتسمت على وجه كون، فذكره المورون بأن بيروم حذره سابقاً من العودة، لكن كون كان منشغلاً بيارا ولم ينتبه. حينها كشف كون عن السبب الحقيقي لعودته: بيروم لم يأت من أجل يارا فقط، بل كان يريد إنقاذ نساء الزورا اللواتي اختطفهن الشيطان، وهذه الفتاة التي مع المرأة ليست إلا إحدى تابعاته.

اندفع كون للأمام، يريد الصعود للنفق، لكن المورون أوقفه، واضعاً يده على صدره بقوة.

"تلك المرأة نصبت لك فخاً... وهي تعلم أن يارا هنا. الشيطان يريد استهداف شعبك ليبتزك أنت أيضاً."

ثم أشار المورون بخطة جريئة:

"اذكر اسم شخص ميت للعصا، وانطقه بلغة الشيطان... سنجعله يخرج بدلاً عنك."

نفذ كون ما قاله، فظهر أمامهم رجل مهيب الملامح... جده، الذي كان يعرفه الجميع بقدرته على التحكم بعناصر القوة. سحره المورون، وجعل ملامحه نسخة مطابقة لكون، ثم أرسله نحو المرأة.

عند النفق، التقت العيون. المرأة، ما إن رأت كون المزيف، حتى ذبحت الفتاة أمامه بلا تردد، وأطلقت قبة نارية حوله. لكن الجد، بخبرته وقوته، حطم القبة باندفاع هائل، وأسرع بسيفه نحوها. المرأة قفزت بخفة شيطانية، وفي لحظة خاطفة، تحوّل الوحش العاقر الذي كانت تركبه إلى امرأة أخرى فاتنة الملامح، لتقف بجانبها.

المعركة بدأت... سيف الجد، المتنكر بهيئة كون، يلمع في الهواء، يصد ضربات الاثنتين ويهاجم بلا هوادة. وفي أسفل النفق، كان كون الحقيقي يراقب المشهد عبر العصا، وقلبه يخفق بعنف، وهو يرى جده يواجه امرأتين إحداهما ليست بشرية على الإطلاق.



استمرت المرأة في تلويح طاقتها، خطوط داكنة ملتوية تتماوج في الهواء مثل أفاعٍ هائلة تلتف حول فرائسها قبل أن تخنقها، لكنّها لم تقترب من كون المزيف بما يكفي لإصابة جسده. كانت تلامس الرمال الذهبية فقط، تثير غبارًا يلتف في دوائر بطيئة، وكأنّها تتعمّد استفزازه لا أكثر. عيناها ضاقتا بابتسامة مأكرة، مزيج من التحدي والاستهزاء، كأنّها تعرف أن أي خطوة يخطوها ستكون محسوبة عليها.

كون المزيف تقدّم خطوة بلا تردّد، أمسك مقدّمة السيف الحادة بيده العارية. المعدن اخترق كفّه بسهولة، واندفعت الدماء الدافئة من جرحه لتتساقط على الرمال. القطرات، بدلاً من أن تنتشر، بدت وكأن الأرض نفسها تشرّبها بنهم، تاركة وراءها بقعاً داكنة تتلاشى بسرعة. لحظة صمت ثقيل سيطرت على المكان، ثم اهتزّت الأرض تحته قليلاً، كما لو أن الدم أثار شيئاً قديماً يختبئ تحت السطح.

شهيقه صار مضطرباً، والسعال الحاد مزّق صدره، دافعاً بمزيج من الدم والهواء إلى الخارج. وعيناه، رغم الألم، انجذبتا نحو المرأة الثانية التي وقفت في الخلف، تمسك عصاً داكنة يتصاعد منها بخار بارد. هناك، خلفها، كان يقف جده الميت... أو ما يشبهه، بملامح جامدة وعينين لا حياة فيهما. فجأة، شعر ببرودة حادة تخترق كتفه، رشح من طاقة غامقة اللون غاص فيه حتى ارتج جسده، وفي اللحظة نفسها انفجرت الذكريات في رأسه بلا رحمة.

رأى نفسه في زمن آخر، جسد آخر... رأى يارا، لكن ليست يارا التي يعرفها الآن، بل نسختها من حياتها الثانية. كانت محاطة باللهب والفوضى، تصرخ وهي تُسحب بعيداً عن مكان ينهار. أمامها كانت نينا... نفس المرأة التي تقف الآن، لكن بملامح أقل قسوة، تدفع يارا بعنف للخروج من ذلك الجحيم، تلتفت مرة أخيرة بنظرة غامضة، ثم تختفي وسط الظلام. تلك اللحظة علقت في ذهنه كطعنة باردة في القلب.

عادت الحاضر فجأة، وكون المزيّف يختنق تحت قبضة نينا التي التفت حول عنقه بإحكام. أنفاسه صارت قصيرة، والألم في كتفه يشتعل كالنار. خلفها بدأ الفضاء نفسه يتشقق، خطوط سوداء تتسع، والهواء يندفع نحو الفراغ الجديد بقوة كادت تقتلع الرمال من الأرض. دوامة ضخمة تشكلت، تبتلع الضوء والصوت والحرارة.

نينا سحبت جسده بقسوة، خطواتها ثابتة وسط العاصفة، وعيناها تلمعان ببرود. اقتربا من حافة الدوامة، والظلام العميق في الداخل بدا وكأنه يتنفس، يرسل موجات من الرهبة حتى إلى العظم. قبل أن يقفز، لمح كون المزيّف ومضة من النار الحمراء في قلب الظلام، وصوتاً عميقاً يخرج من الأعماق، لا يشبه أي صوت بشري، يهمس باسمه وكأنه كان ينتظره منذ قرون.

قفزت نينا ومعها كون المزيّف إلى الداخل، واختفيا في لحظة، تاركين خلفهما فراغاً مخيفاً وهدوءاً غير طبيعي. وفي أعماق ذلك الظلام، كان الشيطان ينتظر، وساحة معركة أخرى تتهيأ للاشتعال.

نينا... ذلك الاسم الذي كان يقطر حقدًا كما يقطر جرح قديم صديدًا.

رغم بشاعة عينيها اللتين كانتا كشقين عميقين في بحرٍ من الظلام العكر، ورغم ابتسامتها التي تشبه أكثر ما تشبه انكماشة جرح يرفض الالتئام، كانت تحمل في قلبها ثقلًا هائلًا من آسى شعبي المنقرض، ذكريات موتهم تتشبث بروحها كما تتشبث الأظافر المتسخة بجدار رطب. كانت تعرف أن ذلك الحزن هو ما يقيها من السقوط في العدم، لكنه أيضًا كان وقودًا لحقدتها.

ويارا... آه يارا. كانت بالنسبة لها صورة مستفزة لما لن تناله أبدًا. مميزة بلا جهد، كأن السماء نفسها أعطتها كل شيء منذ ولادتها، بينما نينا كانت تضطر أن تمزق نفسها يوميًا لتنال فتات اعتراف. لم يكن الحقد الذي تكنه مجرد منافسة، بل كان شعورًا خانقًا، كأن يارا هي الشمس التي تحرقها وهي معلقة في الظل إلى الأبد.

حين التقتا لأول مرة، نينا في الثانية عشرة ويارا في التاسعة عشرة، كان الفارق بينهما كهوة سوداء، خاصة وأن يارا كانت خالية من المشاعر، باردة كتمثال رخامي. وحتى حين كُلفت نينا بحمايتها باعتبارها نصف مورون، لم تجد منها سوى الاحتقار، ذلك الاحتقار الهادئ الذي يقتل أكثر من الشتائم.

كانت تلك النظرة من يارا كافية لأن تُشعل في قلب نينا قسمًا خفيًا: "سأعلو فوقك مهما كلف الأمر". ومنذ ذلك اليوم، تحولت حياتها إلى سباق محموم لتحطيم كل معيار، حتى بلغت رتبة يارا وهي في السادسة عشرة. لكنها لم تجد أمامها إلا يارا التي في الثالثة والعشرين لم تلتفت لها، كأنها لم ترَ إنجازها أصلًا.

ومع ذلك، لم تتوقف نينا. كانت تعرف أن العظمة الحقيقية تُثبت في لحظات الانكسار. وجاءت تلك اللحظة في المعركة العظمى بعد موت الأسلاف. الوحوش اجتاحت الحدود، والسماء كانت سوداء بجناحات الموت. نينا، وعينيها تلمعان بخبث، دفعت يارا إلى قلب الجحيم، حيث أسراب الطيور الحديدية.

وقفت تراقب من بعيد، شفتاها ترتجفان من النشوة وهي ترى الطيور تلتف حول يارا، مخالها تمزق لحمها، وأجنحتها ترفرف كالسكاكين. لم يرف لنينا جفن وهي ترى ذراع يارا تُنزع من جسدها، الدم يتفجر كنافورة على أرض المعركة الموحلة. كانت تستمتع... نعم، تستمتع وهي تشاهد ذلك الكائن الذي احتقرها ينهار أمام عينيها.

لكن النهاية لم تكن كما توقعت. وسط الفوضى والدخان، ظهر شخصان، يبدوان خارج الزمن، وجهيهما خاليان من أي تعبير. أحدهما نظر إلى يارا المشوهة، ولم ير فيها جرحًا أو ضعفًا، بل رأى في داخلها طاقة تكفي لسحقه إن تحررت. إلى جانبها كان أخوها، يتنفس بصعوبة، يودع آخر لحظاته.

حين حمل الرجل يارا، اشتعلت روح الأخ بالغضب واليأس، لكنه لم يجد صوته. أمسك بالسيف الفضي، وضغط عليه حتى سال الدم من قبضته، واندفع بجنون ليقطع طريقهما. لكن ضربته تحطمت كما يتحطم زجاج هش أمام جدار من الفولاذ. سقط، وروحه تتبخر من جسده، حتى أمسك بها الرجل، وحبسها في السيف كما تُحبس الأرواح في الأحجار الملعونة.

بعد ذلك إستخلص الشخصان قوتها كلها و قطعاً رأسها كي لا يشك أحد أنها كانت
مخطوفة و كان رأسها جلياً لكل الذين يمرون من تلك الأرض البور التي حطمت
فؤادها

...

استيقظت يارا من كابوسها، ودموعها تسيل بلا توقف. لاحظ المورون بكاءها، لكن
وجهها ظل جامداً، كأنها لا تعرف لماذا تبكي. وعندما لامست جبهتها قطرات دم كون،
انفجرت الذكريات في رأسها.

رأت النجوم اللامعة تحيها كملكة، لكن تاجها كان من الشوك، كل شوكة تنغرس في
جلدها وتقطر دمًا ساخناً على وجنتيها. التفتت نحو كون، وقالت بصوت ثقيل
كالرصاص:

- الشيطان يريدني... لا يريدك.

انتفض كون، ووجهه شاحب، فقد رأى في العصا مشهداً يقشعر له البدن. الشيطان
كان جالساً على عرش من الجماجم، هيكل العرش متشابك من عظام بشرية، وكل
جمجمة تحمل قصة موتها. كان يمسك برأس طفل رضيع، وجهه مازال يقطر دماء
الحياة، لكن قسماته مشوهة، ليست من الزورا، ومع ذلك تشبههم بطريقة مقلقة،
كأن الدم قد اختلط في رحم مجهول.

الشیطان لم یأكل الرأس كما یفعل المفترسون... بل كان ینهش منه ببطء، یقتطع اللحم بأسنانه السوداء الطویلة، یلوك كل قطعة حتى تتحول إلى عجینة دمویة، ثم یتلعها بصوت طقطقة وعروق تتمزق. الدم یسیر من زاویة فمه، یقطر على الأرض، فیتحول حیث یسقط إلى دیدان سوداء تتلوی وتصرخ كأنها تتألم.

كانت عیناه جمرتین تحترقان من الداخل، والجلد حولهما متشقق یرج منه دخان رمادی. على رأسه قرنان ملتویان، یلتف حولهما حبل من شعر بشري معقود بخرز أحمر داكن.

وفوق العرش، كانت جمجمة ضخمة لخنزیر عملاق، بلا أي ملامح مألوفة للخنازیر، لكن عینها... عینها كانتا شیئاً آخر. لم تكن عیون حیوان، بل عیون كائن جائع منذ الأزل، تشبه وحش العاقر، لكنها أعمق، أظلم، وأشد قرفاً، كأن كل قذارة العالم سُکبت فیها.

شهق کون، وهمس المورون، وكأن الهواء نفسه صار ثقیلاً:

- ما هذا...؟

ظهرت يارا فجأة أمام الشيطان، ودموعها تنهمر كالشلالات التي تهطل من السماء الغائمة، تعجب المورون كيف اختفت تلك اللحظة كأنها سراب، كأنما خفتت كواحدة من أشباح الماضي. لكن حين رأى كون ذلك المشهد من خلال العصا، اجتاحتته صدمة عميقة تسربت إلى عظامه وكادت تكسّر روحه من هول ما رأى.

وقفت يارا هناك، أمام الشيطان، وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة باردة، كأنها شفرة حادة تنزف جليداً. وصوتها الهشّ صارخاً في آنٍ معاً:

«كفى... كفى... أنت بغيض. لماذا لا تتركني؟ لماذا؟»

أنا أكرهك. أكرهكم جميعاً... لقد مللت.

أتريد قوتي؟ خذها... لكن توقف!»

نظرت إليه بعيون ترتعش من الخوف والتمرد في آن واحد، والرجفان يتسلل إلى جسدها كنسيم شتائي قارس. كانت هذه لحظة ضعفت فيها الحواجز، فتسلل الشيطان بكل خبث، واستغل الفرصة التي منحتها إياها.

بلا تردد، رمى رأس الطفل بعيداً، كأنه قطعة خردة لا قيمة لها، وأمر أخ كون بإحاطة المكان بأسوار من الظلال والأسلاك المضيئة، تحكم السيطرة على كل مَنْ فيه.

لكن يارا لم تستسلم، رفعت يدها نحو السماء الملبدة بالغيوم، وقالت بصوت مفعم بالتحدي واليقين:

«إن لم تمت الآن، فسوف أقتلك.»

ضحك الشيطان ضحكة مملوءة بالتهكم والسخرية، صوتها يرن في أذني الحضور كعقارب ساعة الموت. وقال بصوت خشن وكأنه ينبعث من أعماق الجحيم:

«أنت كما أنت، ولو عشت مئات السنين، تعالي يا أيتها الأميرة، تعالي.»

ابتسمت يارا بسخرية باردة، وقالت بصلاية:

«أنا لن آتي. هل تظني خائفة؟ أنا لست خائفة منك، ولا منه، ولا منها.»

ثم، بصمت يملؤه الألم والحنق، التفتت يارا إلى نينا، عينها تلمعان بدموع لا تكاد تُرى، وقالت بصوت كأنه ينساب من قلبٍ ممزق:

«لو كنت أكثر تقبلاً لحقيقتك، أيتها الهجينة... أنت نصف مورون، لكنك كنت طماعاً، وبعث نفسك لهذا الشيطان.»

خفضت يارا يدها ببطء، ووجهت السيف برود نحو نينا، وعندما لامس طرف السيف عنق الأخيرة، تسارع نبض الشيطان، واندفع بلهفة نحو يارا كما لو أن حياته تعتمد على ذلك.

لكن، في تلك اللحظة، جمدت يارا الوقت، توقفت الحركة، وانحبس الزمان في فقاعة من السكون، كأن العالم بأسره أصبح أسيرًا بين يديها.

ظل الأشخاص الذين كانوا يومًا ما نقية، أصبحوا الآن أشخاصًا ملوثين، أراهم كما لو أنهم قيدوا بأغلال مظلمة، وكأن المحاولات التي دفعت ثمنها يارا لتغييرهم لم تفلح.

انهارت يارا باكية، دموعها تتساقط كحبات لؤلؤ تتلاشى في الفضاء، وقالت بصوت مليء بالحزن:

«لماذا... لماذا أنا؟ لماذا لا يعود السلام؟ هل هذا مستحيل؟

هل سينسفني القدر كل مرة حتى يعود السلام؟

أنا تعبت... لقد تعبت.»

ثم أغمضت عينيها، وتسلفت إلى أذنها دقات قلبها المتسارعة، كانت موسيقى النهاية والبداية معًا.

فتحت عينيها فجأة، لترى نفسها في مكان فارغ لا حدود له، كأنها معلقة بين الواقع والخيال. أمامها، امرأة تحرق بها بحنان لا مثيل له، وصوت يارا ارتفع في صرخة مؤلمة:

«أمي... أمي، أرجوك، خذيني معك. خذيني يا أمي، لا أريد البقاء هنا، لا أريد، يا أمي... آه!»

كانت دموعها تتناثر كأنها لآلى مضيئة تذوب في مجرات لا متناهية، ووسط هذا السكون، سمعت دنور روح أبيها، صوته كان منهكاً ومؤملاً، لكنه كان يحمل قوة لا تُقهر: «ابنتي... أنت أقوى مما تتصورين.

تحملين كل شيء... استمري في التقدم، وحقي السلام.
العدم سينتشر بدونك، يا ابنتي.»

قبلتها والدتها بهدوء، وبرقة لم تشهدها من قبل، لكن يارا رفضت، وقالت بمرارة: «لا... لا... لا، هذا غير عادل.

أنا أريد أن أكون معكم، لماذا تركتموني وحيدة؟
لماذا... لماذا... لماذا؟»

صدمت صرختها في الفضاء اللامحدود، حتى كادت تحطم الصمت والفراغ المحيط، فجاءت هالة مضيئة تتجمع حولها فجأة، كأنها قمة نورية تحيط بجسدها الممزق.

فتحت عينيها لترى أن الأشخاص المتجمدين ما زالوا ساكنين بسبب قوتها، نهضت ببطء، ونظرت إلى نينا، والسيف على وشك أن يدخل عنقها، لكن برقة غير متوقعة، مسحت يارا بيدها على خد نينا، وقالت:

«أنت بريئة.

ربما في المرة القادمة، سوف نكون أصدقاء..»

عضت يارا شفتيها بإمتعاض و إنكسار كأنها لا تريد فعل هذا وقالت و الأصوات
تتزاخم داخل عقلها الصغير...

هذا مشين أيها القدر... هذا مريبك و قاسي و مقرف جدا .لماذا..لماذا

ثم صوبت نظرها نحو كون المزيف في مشهد ينفطر منه الحجر الصلب و إقتربت منه
وقالت..

سامحني يا كون..أعرف أنني أنانية و أنك حاولت جاهدا مرارا و تكرار إنقاذي من هذه
الفوضى...لكني سأعود إلى مكان ينتمي إلي و أنتهي إليه...ليس إلى عالم تحكمه الغريزة
قبل الإنسانية... ليس إلى هنا...ربما ستتألم و تصرخ و تقول أنني سأنقذها مثلما لم
أنقذ زوجتي... و سيقول جوارا أنني فتاته المستقبلية..لقد رأيتك في حياتي
الثانية..كنت معتوها و تائها دون وجهة... و الآن مازلت هكذا و ستظل الشخص
الودود بالنسبة لي

ثم ضحكت يارا و هي تتنهد..

أظن أنني سأنتهي هذه البداية.. لأعود إليك أيتها الأنا ..أيها الموطن الغابر و النجمة
المرشدة للسلام إغمريني بالعبير...لأعود وردة في بساتينك..أرجوك

ثم أعادت يارا الحركة إلى الأجسام الخاملة و عاد كل شخص إلى ما كان يفعله و قبل
أن يصل الشيطان إليها...

أطلقت صوتا يشبه نداء أخيرا نحو السماء المظلمة و تبخر كل شئ.. و قالت...
لن أعود إلى المنتصف...أقلني أيها المجهول..و إطردي من هذا المعلوم سأتعلم القناعة
بالمحتوم.. أرجوك

و إنتفضت الأرض الجرباء من تحت قدميها و تحولت إلى بحر أزرق صاف و إحتضنها
الموج و سكنت يارا إلى هدوئها و فتحت يديها على مصراعيها

و مرت كل الذكريات أمامها كقطار قديم.. ذكريات عتيقة لم تلبث أن تحولت إلى
بتلات من نرجس... و قالت يارا.. و وجهها يكسوه الطمأنينة

النرجس... أحب النرجس.. كما كنت أحب أن أمتطي الجواد كثيرا و ألاعب الأطفال....

ثم تهاوى جسدها عبر الماء الثقيل و كأنها غارقة في بئر و فتحت عينيها لتجد نفسها
ممددة على رمال ذهبية و ضوء حارق يزحف إلى عينيها الزرقاوين...

رفعت يارا رأسها كأنها تعلم ما حدث

و قالت

بداية أخرى في بعد آخر... لن أكون الجيدة بعد الآن.... سأرسم بالطباشير آمالي على
كل جدران العالم

وإلتفتت إلى مجموعة من الصغار يلعبون بالكرات و مشهد مدينة حديثة

..وقالت..

لن أضطر لإنقاذهم أيها القدر....فإختر شخصا آخر

ثم إستلقت على الرمال و إستسلمت إلى النوم

حسنا، بعد أن انتقلت يارا، أحست بالارتباك الشديد وهي تفتقد إلى كل ما كان
مألوفاً في عالمها السابق. كانت في عالم آخر، عالم متطور مليء بالأضواء والضجيج
الذي يملأ صدرها الضيق كأنه لا يترك لها مجاًلاً للتنفس.

وجدت نفسها تمشي بجسد مختلف، جسد فتاة شابة في الخامسة والعشرين من عمرها، عينان مختلفتان، وصوت جديد غريب، يشبه صوت الماعز، كما لو أن القدر أراد أن يزرع فيها سخرية مؤلمة لكنها مريحة في نفس الوقت.

كانت تائهة وسط هذا الزحام البشري، الناس حولها كالنمل يمضون بسرعة في طرقات المدينة الحديثة، أصوات المحركات، الموسيقى الصاخبة، أضواء النيون الملونة تتراقص على الوجوه المتعبة.

في قلب هذا الضياع، عرفت أنها مرتبطة الآن، وأنها في طريقها لمقابلة حبيبها. ضحكت يارا من أعماق نفسها، ضحكة طازجة، طفولية، لم تشعر بمثل هذه الظرافة والمشاعر من قبل.

وعندما جلست على الكرسي في الحديقة التي اتفقا على اللقاء فيها، ارتعش قلبها رغم غياب السيطرة على جسدها الذي تصرف دون إذن منها.

برز بجانبها شاب طويل القامة، وسيم، ولكن بملامح ناضجة تشبه رجال الأعمال. كانت نظراته حادة، وله حضور قوي يملأ المكان.

تمالكت يارا أعصابها، وصوتها هادئ لكنه مريب، قالت:

- أنت...

قاطعها الشاب بابتسامة جافة وباردة، وقال:

- لننفصل.

تفاجأت يارا للحظة، ثم ضحكت ببراءة مكشوفة، وكأنها لا تصدق ما تسمعه.

ازداد انزعاج الشاب، وقال:

- أنت غريبة الأطوار.

لم تتردد يارا، فمسحت دموعها التي تسلتت بلا إرادة، وأمسكت بخديه برقعة،

قرصتهما برفق، ثم طبعت قبلة طفولية على جبينه وقالت:

- أنت ذكي حقًا، لكن إذهب.

أكملت ضحكها الطائش، ضحكة غريبة، مؤلمة، لكنها مرضية لها، لأنها لأول مرة تعرف طعم مشاعر الحب، شعور جديد كليًا لم تعشه من قبل، فقد تعلمت طوال حياتها الوفاء والإخلاص للوطن والقوم، لكنها لم تعرف قط كيف تحب من تلقاء نفسها.

هكذا، ظلت تائهة في شوارع المدينة الكبيرة، تبحث عن طريق بين أضواء المدينة البراقة وصخبها المستمر، ولكنها كانت في ضياع كامل، لا تعرف أين تذهب، ولا كيف تجد نفسها.

كانت أصوات الموسيقى تعلو من بعيد، وموجات البشر تتدفق كأنه تيار لا يمكن مقاومتها. دون قصد، وجدت يارا نفسها تدخل إلى أحد المنتجعات الليلية التي تضيء أضواؤها النيونية الشاهقة، ودخان السجائر يملأ الجو برائحة حادة.

كان المكان يعج بالموسيقى الصاخبة والناس الذين يختلطون في حركات متشابكة، يرقصون ويتحدثون بصخب. في تلك اللحظة، شعرت يارا بالغربة والإثارة والخوف، وكل المشاعر المختلطة التي يمكن أن يعيشها إنسان جديد على عالم الليل والضجيج.

بين الزحام، لاحظت بعض المتحرشين الذين يحاولون التقرب منها بنظرات جريئة وأفعال غير مرغوبة، لكن يارا لم تستسلم للخوف، بل وقفت بشجاعة، نظرت لهم بعيون صارمة كأنها تقول لهم: "لا مكان لكم هنا".

ثم، بخطوات ثابتة لكنها هادئة، دخلت إلى غرفة مغني معروف في ذلك المنتجع. كانت الغرفة مظلمة نوعًا ما، لكن الأضواء الخافتة تعطي جوًا من الغموض والتقرب.

المايك كان أمامها، والمغني يتألق بصوته الجذاب، يملأ الغرفة بألحان تخرق القلب،
ويبدو أن يارا تجد في تلك الموسيقى ملاذًا من الفوضى التي تعيشها.

وقفت تستمع، تترك نفسها تغوص في الإحساس، وتدرك أن هذه اللحظة هي بداية
فصل جديد في حياتها، رحلة لم تكتمل بعد، لكن فيها بذور التغيير والبحث عن ذاتها
الحقيقية.

بعد أن ظلت يارا برهة طويلة متسمة في مكانها، عيناها معلقتان بألحانٍ غريبة
تسرب من شفتي ذلك المغني، كانت موسيقى غير مألوفة، تحمل في طياتها نغمات
حزينة متناقضة مع حيوية المكان. توقفت الموسيقى فجأة، وتحول الجو من سحر
خافت إلى صمت مشحون بالتوتر، وكأن لحظة واحدة جمّدت الزمن.

ارتسم على وجه المغني تعبير غريب، وكأنه شبح خافت يخرج من الظل، ثم مد صوته
بتلعثم وارتباك:

- من أنت؟

أجابت يارا بهدوء عميق، صوتها الناعم يحمل ثقة غامضة، كأنها تملك سرًا لا يريد
أن يُكشف:

- ما هذا الصوت الجميل؟ أنت حقًا بارع، لا شك في ذلك.

تملّك المغني شعورٌ مفاجئ بالفخر يعتلي صدره، لكنه سرعان ما حاول أن يكبح نفسه وقال ببرود وادعاء:

- موهبتي لا مثيل لها، والجميع يعرف ذلك.

ولكن بين كلمات الكبرياء تلك، تسلل إلى يارا سؤال عميق يختلج في صدرها سؤال عن سبب تواجد مبدعين كثير في مكان يشبه السجن، محاطين بحشود صاخبة، حيث تبدو الأرواح محاصرة وسط جنون العالم.

كانت كلمات يارا صادمة، وصفها الدقيق كأنه مرآة عاكست ما يخفيه المغني عن نفسه، وصعق للحظة، متلبدًا بمشاعر متناقضة، لكنه لم يملك وقتًا للتفكير.

فجأة، اقترب أشخاص من المكان، يضجون بحضورهم، فأراد المغني بسرعة الإمساك بيد يارا ليمنعها من المغادرة، لكنه لم يحسب ردة فعلها.

بحركة رشيقة خفيفة، دفعت يارا يده أرضًا، فوقع الرجل على الأرض بسقطة صادمة، وأصدر ظهره صوت طقطقة مزعج من أثر السقوط.

ارتسمت على وجهه علامات الدهشة والألم معاً، وقال بدهشة واحترام:

- أنتِ بارعة حقاً!

نظرت يارا إليه بحدة، وعيناها تتلألأان بسخرية لطيفة، وقالت بابتسامة خفيفة:

- أنتم رجال هذا العالم أكثر نعومة مما كنتم عليه في عوالمنا السابقة.

لم تستطع مقاومة الإغراء، ولمست وجهه برقّة، لكنها فوجئت بردة فعله حين أبعد

يدها بحدة وتذمر:

- لقد سرقت منا رجولتنا، أيتها الغريبة!

ضحكت يارا، ضحكة عميقة قادمة من أعماق روحها، مزيج من المرارة والانتشاء، ثم

مدّت يدها لمساعدته على النهوض.

جلس الرجل على الطاولة، وقد بدت عليه علامات الارتباك، يحاول استيعاب

شخصية الفتاة الغامضة التي تقف أمامه.

في عمق قلبه، كان هناك شعور غريب، رغبة متجددة في الاحتفاظ بهذه الفتاة إلى

جواره، لمعرفة سر لمعان عينيها، التي كانت كالنجوم في ظلام هذه الليلة.

كانت تلك الصدفـة عشوائية، لكنها حملت معها وعدًا بـلقاءات أخرى، ربما تغير
مجرى حياتهما إلى الأبد.

في لحظة مفاجئة، قبلت يارا جبينه بلطف، قائلة:
- أنت تفكر كثيرًا، يا صديقي.

خرجت من الغرفة بخطى واثقة، بينما تتبعها رون وهو يرتجف، لا يخفي ارتباكـه بعد
قبلة خاطفة منها.

وفجأة، ظهر من خلف يارا خيط متوهج بلون أزرق بارد، ينساب بهدوء بين الظلال،
وأضواء وسط العتمة كأنه شعاع من عالم آخر.

صدم هذا المشهد المغني بشدة، لكنه تمالك نفسه وأخذ يتبعها بخطوات حذرة بين
الحشد المتدفق، رغم أن تلك الحفلة كانت ستدر عليه ملايين.

كان هناك شيء في داخل قلبه يخبره بأن يتبعها، شيئًا لا يمكن تفسيره بالكلمات أو
المنطق.

تابع خطواتها المتسارعة عبر شوارع المدينة المضيئة، حيث أضواء النيون تعكس
ظلالهم المتحركة على الأرصفة الرطبة.

وصلت يارا إلى مكان هادئ نسبيًا، لكن الرجل ظل يتبعها، لم يكن مجرد رجل عادي،
بل كان ينظر إليها بعينين لا تريان جسد الفتاة فقط، بل تستحضران يارا الحقيقية،
بكل أسرارها وألمها.

همست يارا بقلق، تتلفت خلفها:

- هذا الرجل... مثير للمتاعب.

كان صمت الليل يحيط بها، والمدينة نائمة حولهم، لكن في داخلها، كان نبض قلبها
يتسارع، يدرك أن هذه اللحظة ليست كباقي اللحظات، وأن شيئًا كبيرًا على وشك
الحدوث.

و إستغرقت يارا في تأمل النجوم المعلقة في السماء... كانت صغيرة مقارنة بذلك العالم
الكبيرة و المتوحش ثم دفعت بكلماتها نحو فمها لتقول: أشتاق إلى جمال البراءة
حقا... جمال شائب من الضغينة

فقال المغني بكل سكون: من أنت حقا

قالت يارا و يدها مستمرة في إختراق خصلات شعرها و قالت:
أنا التي سأصبح شريرة

فجأة تراخت أعين المغني بوجهه الذي يشبه حد كبير وجه جوارا الذي تذكرته يارا
على غير العادة....لقد حفر ذلك الشخص ذكراه عميقا في صدى رأسها

و هنا بزغ القمر و كشف عن عيون زرقاء جذابة لذلك الرجل الطويل

فقالت يارا بإندفاع:

كلكم ضخام البنية لكن ضعفاء

فأصدر المغني صوت إصتكاك من أسنانه و قال: من تنعتين بالضعيف أيتها الغريبة

ثم إقترب منها و أمسك ذراعها و رفعها إلى فوق...

لكن جمالها كان فتاكا فأسره..رغم ذلك قاوم

رون لا يقابل العديد من النساء بسبب إنعزاله عن المجتمع و لأنه سهل الوقوع في
شراك النساء ليس لأنه غبي.... لأن جموح عاطفته كان يقوده تلقائيا

كان رون كما وصفته يارا ناعما مثل المياه

تلك المياه التي نقلتها إلى هذا العالم المعقد

ظلت أعين رون منشغلة بقراءة ما وراء هذه الفتاة... لكنه إنتبه إلى الظلام الكثيف و
قال بحدة: ألا تخافين من التجوال وحدك في هذا الوقت

قالت يارا و هي تضحك بمكر..: لا أيها الجميل

أزعجه تملق يارا فترك يديها و قال بنبرة تطفلية: ..

هل لديك مكان للذهاب إليه

و ردت عليه يارا بنفس النبذة التي أزعجتة و عيونها لا تفارق وجهه الوسيم:

أنا غريبة هنا و لتقل أنني ضائعة عن بيتي....

فتفاجئ و قال: كيف لا تعرفين طريق بيتك و تعرفين المنتجعات الليلية و طريق غرفة
الغناء

قالت و الضحكة لا تبارح فمها الرقيق: أحب أن أضيع في الأماكن التي يتواجد فيها
الوسيمون

فإحمر وجهه للحظة ثم فرك مؤخرة شعره و قال: لا تمنعين إن أخذتك إلى فندق
صحيح فحسب ما أرى فأنت مفلسة مجنونة

تغيرت ملامح يارا فجأة و لكمته على كتفه العريض: أيها الغريب الفظ...كن لبقا و
أنت تحمل هذا الوجه الأبيض

نظر إليها و هو لا يصدق كيف له أن يكلم فتاة غريبة في وسط حديقة مهجورة

إستيقظت يارا على أصوات السيارات المندفعة في الشارع، هدير المحركات المتشابك مع صفير الإطارات فوق الإسفلت الرطب كان يتسرب إلى أذنيها كإبر رفيعة، يزيد من ثقل رأسها ويثير في صدرها انزعاجًا خانقًا. لم تكن تلك الأصوات غريبة عليها، لكنها هذه المرة بدت وكأنها مطرقة تضرب على أوتار أعصابها،

تمنعها من الغرق في نوم هادئ. حاولت أن تدير جسدها على الجانب الآخر علّٰها تجد راحة، لكن إرهاق الأمس كان أثقل من أن يُتجاهل، فانزلقت ببطء في غيبوبة النوم، لتستسلم فجأة لكابوس داهمها بلا رحمة.

وجدت نفسها تطفو في فضاء أسود ممتد بلا نهاية، الظلام كان كثيفًا، حيًا تقريبًا، يلتف حول جسدها كما يلتف ثعبان عملاق على فريسته. الهواء -إن وُجد- كان خانقًا، باردًا لدرجة أن عظامها ارتجفت. وسط هذا السواد العميق، بدأت تظهر عيون ضخمة،

تحقق بها من بعيد، حدقاتها لامعة بلون دموي، تتسع شيئًا فشيئًا حتى شعرت أن النظرات تنفذ إلى عمق عقلها. أفواه هائلة انفتحت في الظلام، تتساقط منها دماء كثيفة لزجة، ترسم خطوطًا حمراء متقطعة على العدم.

ومن بين هذا السواد، خرجت حبال سميكة،

داكنة كاللحم، تتحرك ببطء مقزز كأنها أفاعٍ زاحفة،

وانقضت فجأة على جسد يارا. التفت حول ذراعيها وساقها وصدرها، وانغرست أطرافها الحادة في جلدها. الألم كان حارقًا

، كأنه آلاف الشفرات تمزق لحمها من الداخل. شهقت يارا وصرخت، صرخة حادة ارتدت في الفضاء المظلم حتى شعرت أنها تسمع صداها يتهشم فوقها.

فجأة، ومن العدم نفسه، ظهرت مرآة ضخمة، إطارها من حديد أسود متآكل، سطحها العاكس مغطى بضباب بارد. اقتربت يارا بخوف، لكن ما انعكس أمامها لم يكن هي كما تعرف نفسها...

كان انعكاسها نسخة مشوهة، جسدها مغطى بخدوش غائرة وندوب قديمة، بشرتها باهتة كالجثث، وعيناها غائرتان في محجريهما حتى بدتا كحفرتين مظلمتين.

تقدمت تلك النسخة ببطء نحوها، خطواتها ثقيلة كوقع المطرقة على الأرض. في يدها ، سحبت الحبال الملتفة حول جسد يارا وكأنها تنتزعها من ملكيتها، وكل سحب كان يترك خلفه ألماً يتغلغل في العظام. تأوهت يارا من شدة الوجع، لكن النسخة لم تُبد أي تعاطف،

بل اقتربت أكثر، حتى شعرت يارا بأنفاسها الباردة على وجهها. قبلتها قبلة جافة، باردة، كأنها وسم من الجليد، ثم قالت بصوت بارد، متزن، لكنه يقطر احتقاراً:

- أنتِ أنانية يا يارا... ورغم أنكِ هربتِ، فسوف تعودين مرة أخرى، مقيدة بسلاسل مصيرك...

سوف يعثر عليك الشيطان... ذاك الذي خلقته أنتِ من غفلتك، ومن ظنك أنك حرة في هذا العالم.

سيأتي ويفتح جراحًا لن تندمل، وسيترك وراءه دمارًا شاملاً.

ذلك الشيطان... هو من صنعك أنت... صنعته من أديم جبنك.

أنتِ جبانة، لأنكِ تركتِ الجميع يتألمون،

وتركتِ قلوبهم معلقة على المحك.

القدر لا مفر منه... وإن كنتِ قد فررتِ إلى هذا العالم الشائب بالسلام، فسوف

تسقطين في واقعك ومصيرك... أيتها المختارة.

تراجعت يارا للخلف، قلبها يخبط بعنف داخل صدرها، لكن كلمات النسخة

التصقت بأفكارها كوشم لا يمحي. وفي لحظة خاطفة، تلاشى كل شيء...

فتحت عينيها بفرع، وعيناها تبحثان عن أي أثر للحبال أو الدماء، لكنها وجدت

نفسها في غرفة الفندق. كانت أنفاسها سريعة، وقطرات العرق البارد تلمع على

جبينها.

حدقت في السقف للحظات، ثم تمتمت بصوت مبحوح وهي تحديق من النافذة حيث

المدينة تلمع بأضواء الفجر:

- أنتِ لستِ السبب يا يارا...

لم يدم هدوء الصباح طويلاً، إذ قطعت طرقات متتابعة على باب غرفتها. في البداية

تجاهلتها، مغمضة عينيها على أمل أن يرحل الطارق، لكن الطرق استمر بإصرار.

ثم جاء صوت مألوف من خلف الباب، صوت ذلك المغني الذي تبعها البارحة:

- هل ما زلتِ حية؟

أجابت بإنهاك، وهي تجلس على حافة السرير:

- أنا حية...

قال صوته من الخارج بنبرة حازمة:

- هيا، اخرجي من هناك... أريد محادثتك.

رفعت رأسها نحو السقف، تحديق فيه بفراغ، قبل أن ترد ببرود:

- أنا آتية.

فتحت الباب ببطء، فوجدت رون واقفًا، عيناه تحاولان أن تلتقيا بها لكنهما تهربان بخجل نحو الأرض، وأذناه محمرتان حين رآها بملابسها الفوضوية وشعرها المبعثر. بدا عليه شيء من الارتباك الممزوج بالاستغراب، وقال وهو يرفع حاجبه:

- هل حصلتِ على كفايتك من النوم البارحة؟

قالت بجمود، وهي تحاول مسح التعب من ملامحها:

- لا... ماذا أتى بك؟

تردد قليلاً، يبحث عن الكلمات المناسبة، ثم قال متلعثماً:

- بسبب... بسبب... أريد أن أريك شيئاً... هلا تأتين معي؟

لم تكن يارا مهتمة برون، الذي يمسك بيدها بكل حزم وحنان، كأنه وجد فيها ما كان يبحث عنه طوال حياته الممزقة بالوحدة. نظرت إليه بعينين باردتين، تحاول قراءة ما يختبئ خلف تلك النظرة الصامتة، وقالت في نفسها بصوت خافت لكنها صارم: ستتذوق طعم الخيانة عن قريب...، فالمشاعر جميلة ولحظاتها ممتعة، لكنها تسلبك ما فقدته، وتترك في قلبك ندوباً لا يداويها سوى الزمن.

تمعنت يارا بطول رون الشاهق، بكتفيه العريضين وملامحه الصارمة، وشعره الذي يلمع تحت أشعة الشمس الذهبية، وقالت له بصوت حازم:

- اترك يدي، رون.

نظر إليها كأنه كان ينتظر هذه الكلمات، وكأنها الشرارة الوحيدة التي تمنحه الحق في
الاقتراب أكثر، مزال يمشي بخطى سريعة على الطريق الترابي الذي يؤدي إلى جبل في
آخر المدينة. الشمس كانت تحرق المكان بحرارتها، تلقي بأشعتها على وجهيهما،
محدثه ظلالاً طويلة على الصخور المتناثرة حولهما، مزيداً مشاعر يارا توهجاً وحرناً
في آنٍ واحد. كل مشهد جميل يعيد لها نفس السيرة القديمة،
كل لحظة من صمت أو ابتسامة،
تعيد ذكريات مؤلمة، ترسم على قلبها خطوط الجرح والحنين في آن واحد.

كانت عيون رون الغربية عنها، تحمل شيئاً من صمت الروح... شيء يقول له: أنا يتيم
الأم، لم أذق الطمأنينة، ولكني ما زلت أبحث عن من يهتم بي. كان إنطوائياً، ربما هذا
ما جعله يتمسك بيارا بهذه الطريقة، كأنها خلاصه الوحيد من العزلة التي اعتادها
منذ ولادته.

قالت بسخرية، بصوت يمزج الألم بالاستفهام:

- حتى هنا، الجميع يلجأ إليّ طالبين مني الكمال... لا يفهمون أنني مثلهم أشعر بكل
مشاعرهم الثقيلة. أنظر إلى الأفق وأفكر... هل سيسقط الأفق؟ وهل سأتمكن من
إنقاذه؟ الجميع يريدون الشفقة، ولا أحد يهتم بمساعدتي. ربما كان هروبي حلاً
جيداً...

وصل رون بعد أن تقطعت أنفاسه من المسافة التي قطعها، ووقف أمامها يطلب منها الجلوس على صخرة كبيرة بجانب شجرة وارفة، أوراقها تتمايل مع نسيم خفيف، تحجب أشعة الشمس أحياناً، وتلقي بظلالها على وجهيهما. الهواء كان معبأً برائحة التراب الساخن والأعشاب البرية المنتشرة حول الجبل، بينما كان صوت الطيور يضيف نغمة هادئة وسط صخب المشاعر.

يارا لم تكثرث لما سيحصل، شعرت كما لو أن الأمر أشبه بقضاء أمسية في حفرة مظلمة، الكآبة كانت تحيط بها من كل جانب، تمتصها بلا رحمة. لكنها لم تكن تعرف أن رون أخرج من جيبه كاميرا صغيرة، عينيها اتسعت من الدهشة لهذا الجهاز الصغير، فطلب منها أن تجلس بجانبه، فسمحت له. وما إن جلس حتى التقط صورة لهما،

ضحك رون، وارتسمت الفرحة على وجهه، رغم التعب والعرق الذي يغطي جبينه:

- أنا آسف... لكن أردت بشدة أن تجمعني صورة معك. دائماً يطلبون مني المعجبون أن أشاركهم صورة، لكن أنت... أنت مختلفة.

نظرت يارا إلى عينيه، شعرت بصدق كلماته، برائحة روحه التي كانت تنساب منها رائحة الأريج، أخبرتها بصدق مشاعره، رغم غرابتها: هو يحبها، رغم كل شيء، رغم أنها غريبة. وهي، رغم غرابتها عن العالم، شعرت بأنها تشبهه في تلقي الألم، في المشاعر، في الأسئلة التي لا تنتهي. لقد ولدا من أمهات مختلفات، مرّوا بنفس التجارب القاسية...

لكن لماذا تقول عنه غريب؟ لماذا لا تكون هي الغريبة، التي أفسدت كل شيء؟ العالم يحبها لأنها مميزة، لكنه لا يحب يارا.

شعرون بحزنها المحفور على وجهها، قال برقة، وهو يربت على شعرها المجعد:
- لست مولعًا بتتبع النساء العشوائيات، لكن أحب أن أحظى بتجارب عديدة... رغم أن الجميع سيئون فهمي.

ابتسمت له يارا، ابتسامة وديعة كنسيم صباح هادئ، شعرت أنها بصيص من الأمل
زرع في قلب هذا الرجل، الذي اعتادت روحه أن تتحمل الكثير. قبل رون جبهة يارا،
وكاد أن ينصرف، لكنها أمسكت يده فجأة، بنبرة ضعيفة لكنها حازمة:

- أريد أيضًا أن أعيش تجربة مثلك... أرجوك... أرشدني.

لمعت عينا رون فجأة، واحمر وجهه بخجل، ثم قال:

- غدًا صباحًا... سألقاك في الفندق، اتفقنا.

كان مشهد هبوط رون مع يارا أشبه بنجمتين ضاليتين تبحثان عن مستقر، تمسكان
بأيديهما بحنان، كأنهما وجدا في بعضهما الحرية التي فقدوها، والأمان الذي طالما
حلموا به.

الأشجار، الجبال، ونسيم المساء، وكل شيء من حولهما بدا وكأنه يشهد هذه اللحظة، وكأن الطبيعة نفسها أيدت شعورهما، وسرّتهما المشتركة في الألم والفرح، في الوحدة والحنان.



عند عودة يارا إلى الفندق مع رون، كانت خطواتهما تتناغم على بلاط المدخل البارد، لكن قلب يارا لم يكن على الإطلاق في تناغم مع أحد. نظرت إليه وهي تهتم للصعود على الدرج الحلزوني المكسو بسجادٍ أحمر داكن، تتخلله إضاءة خافتة من مصابيح جانبية قديمة الطراز. رفعت عينيها إليه بنظرة مشوبة بالابتعاد

وقالت، بصوت منخفض لكنه حاد كحد السكين:

- لا تنخدع بالزهور، فأغلبها يخفي سمومه خلف ألوانه.

كانت كلماتها موجّهة في حقيقتها إلى نفسها، كأنها صفعة خفية تذكّر قلبها بسمومه المخفية، لكن رون لم يفهم. اكتفى بتركها تصعد ببطء إلى غرفتها، مغادراً المكان بخطوات ثابتة، وهو لا يدرك أن ذلك المكان أصبح الآن ملاذاً لأفكار يارا السوداء وأسرارها العميقة.

غرفتها كانت هادئة على نحوٍ غير مريح، الستائر نصف مغلقة، وأشعة الشمس المتسللة من الشقوق ترسم خطوطاً ذهبية على الجدار، تراقص ذرات الغبار في الهواء. جلست على حافة السرير، ووضعت كفيها على وجهها، ولأول مرة، بدأت تفكر بجدية في مصيرها...

في هويتها المسمومة التي لطالما أخفتها خلف قناع الكمال المصقول، وفي نفسها التي تكسوها الهالة المبهرة بينما ينهشها الفراغ من الداخل.

أغمضت عينيها على وقع تلك الأفكار، وشعرت بالظلام يثقل على جفونها، حتى استيقظت فجأة لتجد رون واقفاً أمامها

، ينظر إليها بهدوء غريب، وهي تفرك عينيها بدهشة. تتأبّت للحظة، ثم استوعبت أنه هنا وقالت، بصوت مبحوح ومعالم النوم لا تزال بادية عليها:

- كيف دخلت؟

ابتسم ابتسامة صغيرة وأجاب بهدوء:

- لقد تركت الباب مفتوح.

كان وجهه المنشرح يثير فيها نشوة غريبة، نوع من الدفء الممزوج بالدهشة، وكأن ابتسامته الطفولية قادرة على إذابة الجليد المتراكم على قلبها. اقتربت منه بلا وعي، مدت يدها، وشدت شعره فجأة بقوة وهي تهمس بلطف ساخر:

- أنت غريب أطوار حقًا.

ارتبك رون لهذا التصرف المفاجئ، وانفجر وجهه خجلًا، كأنه طفل ضبط وهو يسرق قطعة حلوى. ضحكت يارا، ضحكة قصيرة لكنها خففت ثقل الجو، ثم وقفت وقالت وهي تتأمله:

- أنت خجول... مثل قطة مؤدبة.

مد رون يده يرتب خصلات شعره السوداء وقال وهو يشيح بنظره قليلاً:

- ممم... سوف أنتظرك في الخارج. تركت بعض الملابس لترتديها.

فتحت يارا الهدية بعفوية، وألقت نظرة على الملابس الجديدة، وقالت بابتسامة
مقتضبة:

- شكرًا...

خرجت يارا من الغرفة بعد قليل، بخطوات رشيقة وكأنها ملكة تهبط على أرض
موكيها.

رون كان واقفًا ينتظرها في الممر، وحين رآها، انعكس الضوء على شعرها المتموج،
فتوهجت ملامحها، وأحمرت أذناه دون أن يشعر،
ليقول بصوت خافت لكنه واثق:

- ما أجملك.

لم يكن يبالغ، رغم أن يارا كانت في جسد غريب عنها، إلا أن جمالها ظل ناصعًا، كأنه
لا يتأثر بالزمان ولا المكان.

تقدمت نحوه، أمسكت بيديه، وبدأت تركض به في الممرات وعلى أدراج الفندق،
وكانها طفلة هاربة من قيود العالم.

حاول أن يهدئ من سرعتها، وهو يلهث من شدة الجري، لكنها تجاهلته تمامًا، وظلت تجره في الشوارع المرصوفة بالحجارة القديمة، ضحكاتهما تتطاير مع الهواء، وقالت وهي ترفع وجهها للشمس:

- إن الشمس منعشة...

ثم فجأة توقفت، وكأن عينيها وقعتا على كنز، لترى مجموعة من الدراجات المصفوفة أمام متجر قديم.

- ما هذا؟

قال رون وهو يلهث، واضعًا يديه على ركبتيه من شدة التعب:

- إنها دراجة هوائية... كيف لا تعرفينها؟

اقتربت يارا من إحدى الدراجات، وملامح الدهشة على وجهها، ثم فجأة أحاطها نور خلاب أزرق اللون،

لامع كالبلور في ضوء النهار. تحولت الدراجة أمام عيني رون المذهول إلى عربة مزخرفة التفاصيل،

عجلاتها تتلأأ وكأنها صنعت من الفضة، والمقاعد مبطنه بالمخمل.

فتح رون فمه من الصدمة، لكنه لم يجد الكلمات، بينما كانت يارا تقول بثقة:
- إن القوة تنفع لإسعاد النفس.

لم تمنحه فرصة لطرح الأسئلة، صعدت إلى العربة ودعته بلمحة من عينيها، فجلس بجانبها. كان داخل العربة جميلاً، جدرانها الداخلية مرسومة بألوان سماوية ونقوش تشبه زهور الغابة،

أما رون، بخصلات شعره السوداء المبللة بالعرق، وعيونه الزرقاء التي تعكس السماء، فكان مأخوذاً بيارا وهي تضحك بانسراح،

حتى لم يلحظ أن العربة بدأت تبتعد عن الأرض، ترتفع ببطء في الهواء.

جذبتة يارا برفق، وأشارت إلى الخارج:

- انظر...

التفت، ليجد نفسه أمام مشهد أسطوري؛ البيوت الصغيرة أسفلهم كأنها لعب أطفال، الأشجار تمتد مثل بحور خضراء، والأنهار تتلأأ كأشرطة فضية تحت ضوء الشمس.

- بئسًا... ما هذا؟!

ضحكت يارا، وقالت وهي تتنفس بعمق:

- إنه مشهد طبيعي... ومناظر عجيبة. المكان جميل... لا يشبه الصحراء المسكونة بالوحوش الفظيعة.

ثم مدّت يديها، قرصت خديها بخفة، قبلت وجه رون بسرعة، وصرخت بصوت يملؤه الحماس:

- أريد البقاء هنا إلى الأبد!

لكن رون، وسط هذه البهجة، لمح وميضًا خافتًا مر بينهما، ثم اختفى كأنه لم يكن. أطلق في نفسه دون وعي: يا لها من فتاة...

كان معتادًا على التجوال في الصباح الباكر وحيدًا، بين المحلات والأروقة، لكن هذا النوع من التجوال الذي يشبه الحلم، كان يسحر عقله ويقلب موازين قلبه.

اندفعت العربة الطائرة فوق الأشجار الكثيفة، حتى هبطت فجأة على مرج أخضر واسع، الهبوط كان مروّعاً، حتى أن التراب تناثر على ثيابهما. لكن رون لم يهتم، بل مد يده يعانق يارا برفق،

وقال بصوت مبحوح:

- أنت ربيع نائم، وقد استيقظ لتو... إبقى هكذا، فالناس هنا مملون.


ابتعدت يارا بسرعة، وكأنها هاربة من وقع كلماته، وظلت ترتب شعرها وهي واقفة، بينما هو ما زال ممدداً على العشب، يحدق في السماء ويقول بهدوء:

- يا له من حلم...

فجأة رفعت يارا تنورتها قليلاً، ربطت شعرها إلى أعلى، ثم قفزت من المرج بخفة، متجهة إلى بحيرة قريبة كانت قد لمحها. المياه كانت تعكس السماء كمرآة، والأشجار تحيط بها كحارس صامت.

اندفعت بجنون، حتى انتبه رون، فلاحق بها. كانت سترته تتطاير مع هبات النسيم، ويارا لا تهتم إلا بالبحيرة التي قفزت نحوها

، تاركة قطرات الماء تتناثر حولها كالماس، وهي تقول بابتسامة عريضة:

- رائحة الماء منعشة... 

ألقت يارا بجسدها الممشوق على المياه، كأنها تطلق العنان لكل ما تراكم في روحها من ضيق، فتناثرت قطرات الماء في كل مكان محدثة صوتًا شجيًا، أشبه بضحكة الطبيعة وهي تتلقف جسدها بين أحضانها الباردة

. كان ذلك الصوت يتردد في الأفق، يتداخل مع خريف الماء ورائحة الأعشاب المبتلة، حتى بدا وكأنه لحن خاص لا يسمعه إلا قلب يارا.

توقف رون، وقد جمده المشهد، لينظر إليها عن كثب. كان شيء ما في طريقة تحركها يجذبه، كأنها كائن أسطوري خرج للتو من أسطورة قديمة. مشهد شعرها المتموج، الذي تراقص فوق سطح المياه كأمواج ذهبية مشوبة بلمعة داكنة، وبشرتها الحنطية

التي انعكست عليها أشعة الشمس فزادتها دفناً، وعيناها الواسعتان اللتان كانتا
تلمعان بصفاء غريب

... كل ذلك أوقعه في سحرها، وأسرّه بلا مقاومة. شعر أن كل ما حوله اختفى، ولم
يبقَ في هذا العالم سوى تلك اللحظة.

يارا، التي لم تمر بهذه المشاعر المرهفة من قبل، شعرت وكأن قلبها يتسع لأول مرة
ليستوعب كل هذا الجمال والهدوء في آن واحد.

غمرتها البهجة حتى أغرقت كل ظل للهمّ في داخلها، وانسابت بخفة في المياه الصافية.
كان جسدها يرقص داخل الماء بخطوط ناعمة وانسيابية

، كأنها تعيد رسم علاقتها بالحياة، ليست علاقة حرب وبقاء فقط، بل علاقة انسجام
ومصالحة.

ثم رفعت رأسها قليلاً لترى رون وهو يقفز في المياه، وجسده عارٍ، فتسلل إلى داخلها
إحساس غريب... مزيج من الدهشة والارتباك، وكأنها تُختبر بمشهد لا تعرف كيف
تصنّفه. لكن قبل أن تترك الفكرة تتمدد في ذهنها، باغتتها صورة من أعماق ذاكرتها...
صورة جوارا.

لوهلة، لم تكن في الماء، بل كانت عالقة بين زمنين. ملامح جوارا طفت أمام عينيها فجأة، وامتدت الذكريات كأنها شريط قديم يمر بعنف أمام ناظريها. عصر قلبها زخم من الصور والمشاعر؛

وجوه أحبّتها، أماكن فقدتها، لحظات لم تنج منها روحها بالكامل. لكن يارا، بجهد أشبه بالقتال، لوحّت بذلك الضباب المزعج عن رأسها

، وكأنها تمسح بيدها عن مرآة ملطخة، وقالت لنفسها بهمسٍ عميق: أنتِ حرة يا يارا، كما لم تكوني يومًا...

سبح نحوها رون محاولاً إمساكها، لكن المياه جعلت حركته بطيئة وثقيلة، فلم يستطع لمسها قبل أن ترفع رأسها إلى الشمس الذهبية.

انهثرت بمشهد الطبيعة الفاتن؛ الأشجار الزاهية التي امتدت على ضفاف البحيرة كحراس قدامى، المرج الأخضر الذي تلالاً بأزهار صغيرة كأنها نجوم أرضية

. صرخت يارا بسعادة لم يسبق لقلبها أن عاشها، كأنها ولدت من جديد.

رون، الذي لم يطق هذا الجمال المشحون بالعاطفة، شعر بحرارة تتصاعد في وجهه، واحمرّت وجنتاه بينما يدفع شعره المبلل إلى الأسفل. كانت كلمات يارا تتسلل إلى

أعماقه، حين قالت بصوت يملؤه الصفاء والرجاء: إن هذا المكان جميل... ليتني لا أعود، وأبقى هنا إلى الأبد

. اقترب منها رون بخطوات هادئة، وكأنه يخشى أن يوقظ حلمًا، ووضع يده على خصرها، لكنها ببلاهة طفولية قبلت جبينه كما تفعل دائمًا، وكأنها تثبت حدود العلاقة التي يراها هو تتسع.

عندها، طبع على خدها قبلة طويلة واحتضنها، بينما في عينيه لمعان خفي لم تهتم يارا بقراءته.

لكن قبل أن تترك نفسها تمامًا لهذه اللحظة، أحست بصوت مألوف في باطن المياه... كان الصوت أقرب إلى نداء مكتوم قادم من الأعماق. التفتت بعينها نحو الأسفل، لتشهد خيالاً تعرفه،

وكان هناك مرآة تحت الماء تعكس شخصًا يريد تمزيق صفحة الماء والخروج منها. فجأة، ارتجت البحيرة للحظة، وصعدت فقاعات إلى السطح، وكأن أحدًا كان يتحرك في الأسفل بعنف.

عمّقت يارا نظرها، لتجد شابًا جميلًا، شعره أسود فاحم، وعيناه زرقاوان تلمعان في الظلام المائي مثل شعلتين جليديتين.

شهقت، وهمست وهي تحاول الاحتفاظ بما تبقى من أنفاسها تحت الماء: جوارا...

خرج رون من البحيرة مذعورًا، وظل ينادي على يارا بعد أن رآها تهبط نحو القاع. كانت المياه تتجمد رويدًا رويدًا، كأن برودة خفية تزحف إليها من روح مجهولة. لم يستطع رون المكوث أكثر، فغاص خلفها قبل أن تتصلب البحيرة بالكامل. لكن قبل أن يصل إليها،

صعدت يارا إلى السطح، ومعها جوارا، الذي كان يحملها بين ذراعيه بعدما فقدت الوعي.

عندما التقت عينا يارا بعيني جوارا، اضطرب قلبها، وكأن نبضاتها انفجرت في كل أنحاء جسدها. وفي لحظة، خرج من جسدها شبح يشبه جسدها الحقيقي، شفاف لكنه مهيب. تجمد جوارا من الصدمة،

ثم أسرع نحوها حين رآها توشك على الغرق مجددًا، وأمسك بها، رغم أن جسدها كان يبعث طاقة أحرق ذراعه، لكنه تحمل الألم بلا أنين، ومددها على العشب.

رون، الذي كان يقف مصعوقاً، لم يفهم ما الذي يحدث أمامه. عيناه تتابعان جوارا وهو يقبل يارا ويمسح على وجهها، الذي بدأ نصفه يتغير ليكشف عن وجهها الحقيقي، وكأنها بدأت تنسلخ من وعاء مزيف لطالما كانت حبيسة فيه.

هزها جوارا بعنف وهو يقول: يارا... أرجوك، استيقظي... استيقظي.

وفجأة، دوى صوت تصدع من الأعماق، لكن من أصابع يارا تسرب جليد أزرق باهت، تسلل إلى البحيرة الهائجة التي كانت تبتلع من قبل شقاً كبيراً. وصل ذلك الجليد إلى عمق البحيرة، وجمدها بالكامل، لقد جمّدت يارا البحيرة وهي فاقدة الوعي.

اضطر جوارا إلى حملها والهرب إلى أبعد مكان، لأن الأرض نفسها بدأت تتأرجح تحتهم، وتتصاعد طبقات الجليد من يارا، كأن روحها تحاول إيقاف كارثة لكنها في نفس الوقت تخلق أخرى.

أسرع جوارا بكل ما يملكه من قوة، كل عضلة في جسده مشدودة كوتر مشدود، عينيه متسعيتين من الرعب والحذر، لأنه ما كان خلفه سوى مشهد مروّع لم يشهد له مثيل: يارا، تلك الفتاة التي لطالما حاولت السيطرة على قوتها، مزالت تصارع ذلك

التصادم الذي حدث بينها وبين جوارا، تصارعه جسديًا ونفسيًا في آن واحد، وكأن كل ذرة في جسدها ووعيها أصبحت موصولة بعالم آخر، عالم يختلف تمامًا عن الواقع، عالم القوة المطلقة والخطر المحدق.

قوتها، التي طالما كانت محدودة، تدفقت بحرية مرعبة من خلال أناملها، تصيب البحيرة المتجمدة المتواجدة أمامها، وتجعل المياه تتحول إلى بحر من طاقة متألئة، تتطاير منها شظايا الجليد في الهواء، تتلألأ كأشعة الشمس المقطعة إلى ملايين القطع الحادة، كل واحدة منها كأنها سيف صامت يقطع كل ما يقف في طريقه. رون كان يركض بجانبها، قلبه يكاد ينفجر من الخوف، عيونه تتسع لرؤية وجه يارا المنسلخ بين واقعين، جسدها الأبيض الناعم كالحليب، طاقتها المرعبة التي تدمر كل ما حول البحيرة، وكأن الطبيعة نفسها فقدت صوابها فجأة.

الأرض صارت جليدية، الأشجار المتناثرة حول البحيرة بدأت تتلوّن بلون فضي متلألئ، والهواء محمّل بجزيئات متألئة من الجليد، تتحرك وكأنها كائنات حية صغيرة، تتراقص مع الريح التي حملتها قوة يارا. فجأة، خرجت من المياه يد شفافة ضخمة، تشبه يد الأشباح، تمدت دون أن تتأثر بالجليد، لتلمس السماء الملطخة بلون الدم القاتم، اللون الذي يذكّر جوارا بموت ودمار الصحراء البعيدة.

يارا فتحت عينيها، لكن ليس استيقاظًا حقيقيًا، بل كانت تحقق بلا وعي، عينيها تشعان بضوء خافت غير متماسك، تحدقان في اليد العظيمة، في القوة التي لا تعرف حدودها. الجليد المنتشر في البحيرة بدأ يتجمع تدريجيًا في نقطة واحدة، يتحوّل إلى

شكل امرأة هائلة، ضخمة، تضع اليد في غياهب الصدع، ثم تشق بعصاها السماء لتصبح كلها منيرة، شعاعها يخترق الظلام، يسطع فوق كل جبل، يعكس ضوءاً يتغلغل في كل حجر وشجرة، ويترك خلفه وهجاً يثير الرعب في قلوب كل من يراه.

جوارا ابتعد عن سريان قوة يارا، لكنه وضع يده على عينيها بحذر، يعرف أن الألم النفسي والجسدي سيكون شديداً، ثم أخرج خنجرًا، أمسكه بفمه بإحكام شديد، حتى ثار الدم من شفته ونزل على شفاه يارا، كأنه جسر بين قوتها وبين العالمين المتصارعين. فجأة، ارتفع جسدها، وتحول المشهد إلى فضاء رمادي مشوه، حيث تفاعل دم جوارا، الممزوج بقوة العالم الآخر، مع جسد يارا المرتبط بهذا العالم. كل تناقض بين العالمين بدأ يتجلى، أي محاولة لدمج هذه التناقضات تهدد بوقوع كارثة لا تحمد عقباه.

لكن، فجأة، هدأت يارا، عادت إلى هدوئها الداخلي، رغم أنها مازالت غير واعية تمامًا، مدركة أن الأرض المنيرة التي تركت بصمتها عليها قد تحولت إلى كارثة، برق مهيّب امتد من البحيرة الصامتة إلى أعلى الجبل، كأنه صاعقة متجسدة، تضيء كل شيء حولها، ويهز الجو بقوة مخيفة، كأن الطبيعة نفسها تصرخ من الرعب.

استيقظت يارا، تتأمل جوارا، غير مصدقة أنه واقف أمامها، قوته وهدوئه كانا جسور الأمان الوحيد بين الفوضى والطاقة الغامرة التي حولها. الخوف اختفى من وجهه ببطء، لكن رون، الذي عانى عناء التصديق، جلس يضغط على جرحه في قدمه؛ إحدى السهام الجليدية اخترقت قدمه، تتسرب قطرات من الدم على الثلج،

لكن ذلك لم يكن غريبًا بقدر وجه يارا المشوه، الممزق بين جمال غريب وسحر خفي،
جمال يأسر العقل ويربك الحواس، كأنها كائن من عالم آخر يمزج بين الرقة
والوحشية في آن واحد.

نطقت يارا ببضع حروف مهمة، صوتها ضعيف لكنه محمّل بثقل ما حدث، وقالت:

< هل انتهى؟

رد جوارا بصوت هادئ، لكنه مليء بالمسؤولية والثبات:

< نعم يا يارا، لقد انتهى... أنا بجانبك فقط.

ثم، ببطء، اقترب ميض خافت يشبه نجمة عائمة، ضوءها يتراقص حول يارا، ينير
ملامح وجهها المتعبة، يترك أثرًا من الدفء وسط كل الفوضى المحيطة. همست
النجمة بغموض:

< سوف تعودين...

لكن سرعان ما انقلب هذا الوميض، وتحول إلى وجه قبيح مشوّه، يحدّق بها بعينين ملتهبتين، صوته حاد كالسكين:

< ماذا تشعرين الآن، عندما أفسدتِ النظام بمشاعرك البالية؟ أنت حقًا شريرة.

الهواء حول يارا اهتز، كل شعاعها تلاشى في موجة من الطاقة الغريبة، تاركا الجو مليئًا بالتوتر، وكأن العالم نفسه ينتظر رد فعلها، في مواجهة ما بين القوة، والوعي، والخطر الكامن الذي يهدد كلاً من العالمين.

فتحت يارا عينيها بصعوبة بالغة، وكأن جفونها كانت أثقل من الجبال، فوجدت نفسها مستلقية على سريرها في الفندق، والهواء من حولها دافئ لكن مشحون بطاقة غريبة، ووجه يطل عليها من مسافة قريبة، يراقبها بخوف واضح يكاد يتساقط من ملامحه.

تلك العيون الزرقاء، التي تذكرها بصفاء السماء قبل العاصفة، كانت الآن تحمل توترًا غريبًا، وكأن لونها نفسه قد خفت من هول ما رأى. وجه الشاب بدا مألوفًا، لكنه لم يعد ذلك الوجه المطمئن، بل صار قاسي الملامح، مشدودًا، كأن أحداث الليلة الماضية قد حفرت فيه خطوطًا من القلق والخوف، وشفاهه الرقيقة كانت تلمع برذاذ رطب، كأنها تقطر مياهها باردة في ليلة شتاء.

حاولت يارا أن ترفع رأسها، لكن رأسها أثقلها صداد شديد، وكأن أصوات الأمس كلها كانت ما تزال تصرخ في جمجمتها. امتد الألم إلى جسدها، فأحست بوهن يعتصر ذراعها اليمنى، خاصة أصابعها التي شعرت وكأنها محاطة بأغلال خفية. خفضت بصرها نحو ذراعها، فوجدتها متورمة، والجلد مشدود عليها بشكل مؤلم، ومن بين مسامها وطبقاتها برزت خطوط غريبة، أشبه بعروق متعرجة، لونها أسود قاتم، وكأنها جذور نبات مسموم تغلغت تحت الجلد.

نظرت يارا حولها بعينين متعبتين، تبحث عن معنى لما حولها، فرأت رون واقفًا كتمثال، لا يتحرك، عيناه مفتوحتان على اتساعهما، وكأنه لم يفق بعد من صدمة ما رأى. أما جوارا، فكان أمامها، ساكنًا، لكنه في الوقت ذاته يفيض بشيء من القلق العميق، وكأنه يحمل على كتفيه ثقل ما حدث.

لم تتمالك يارا نفسها، فاندفعت نحوه، تحيطه بذراعيها بحضن متشبث، وهي تبكي بصوت مكتوم، دموعها تتساقط قطرات حارة على فراشها، تختلط بحرارة اللحظة.

جوارا، الذي بدا متفاجئاً في البداية، ردّ عليها بعناق أقوى، كأنه يحاول أن يعيد إليها الأمان الذي انتزع منها، يواسيها بصمت، وصدره يعلو ويهبط بأنفاس ثقيلة.

قالت يارا بصوت مبحوح وهي ترفع رأسها قليلاً لتتأمل وجهه:

.ماذا حصل؟ كيف وصلت إلى هنا؟ ولماذا... لماذا حدث هذا كله؟

شدّ جوارا قبضته على طرف السرير، وكأن ذكرى ما رآه تخترق جلده، وقال:

.لا أعرف... حتى أنا... كل ما أذكره أنني كنت أنا وأبي نهرب من قبضة الوحوش الجامحة، تلك التي استنزفت كل قوانا بعد المواجهة. كنا نركض بين أنفاس الرمال والرياح، وفجأة شعرت أنني تجمدت في مكاني. نظرت إلى أسفل، فوجدت قدمي عالقة في شيء أسود، لامع، يشبه مرآة سوداء تمتص الضوء.

توقف لحظة، وابتلع ريقه بصعوبة، ثم تابع:

.لكن ما أربني أنني رأيتك هناك... وجهك كان مشوّهاً، لم أتعرف عليه أولاً، عيناك كانتا غريبتين، وكأنهما تنظران من عالم آخر. سحبتني نحو المياه، بينما كنت أصرخ داخلياً وأبحث عن أبي، الذي... الذي اختفى فجأة، وكأنه ابتلعه الهواء. ثم الأرض... الأرض انفجرت من حولنا، ليس انفجاراً عادياً، بل كانت كأنها تنشق لتلد شيئاً شريراً. الصحراء القاحلة تحولت إلى ضباب، وكأن السماء والأرض تأمرتاً علينا... والبقية... أنت تعرفينها.

قالت يارا بصوت منخفض:

.لماذا؟ لماذا كل هذا؟

لكنها فجأة، وهي تلتفت قليلاً، رأت انعكاس وجهها في المرآة المقابلة للسرير... فتوقف الكلام في حلقها.

الوجه الذي رآته لم يكن وجهها الذي عرفته... عاد لون بشرتها إلى بياضه المشرق، وعيناها كانتا زرقاوين صافيتين، لكن شعرها... شعرها كان باهتاً، أبيض كالثلج.

شهقت يارا بصدمة، وكتمت صرخة، لكن صوتها خرج مخنوقاً:

.وجهي... شعري... ماذا حدث لي؟

نظر إليها جواراً مطولاً، ثم قال بنبرة حذرة:

.ربما... ربما إنسلخت روحك عنك في البحيرة. وربما تلك الروح، التي رأيته، هي التي أعادتك إلى طبيعتك، أو بالأحرى إلى ما تظنين أنه طبيعتك. هذه فرضية فقط... لكن ما أنا متأكد منه أن شعرك، الذي كان أحمر قانياً، لم يعد كما كان، لأن القوة التي أطلقتها هناك لم تكن طبيعية.

أهوت يارا برأسها نحو السرير، كأن ثقل العالم انسكب على كتفها، وقالت بصوت يائس:

.لم أعد أفهم شيئاً...

وقبل أن يكمل أي منهما الحديث، بدأت الأرض تهتز من جديد، لكن هذه المرة كان الاهتزاز أعمق، وكأن قلب الأرض نفسه ينبض بعنف. من السماء، انبثق صوت حاد،

مظلم، قلوبهم تحجرت، ورجل ما، لا ملامح له، يلتهمها بلا رحمة. ثم رأت السماء وهي
تمطر شيئاً أسود يتصاعد ويتكاثف...

بذلت يارا ما تبقى لديها من قوة، واستجمعت كل ذرة طاقة في جسدها، ثم قالت
بصرامة:

.لن أموت اليوم.

طلبت من جوارا أن ينزلها، فتردد، لكنه أنزلها برفق. وقفت، بالكاد متماسكة، ورفعت
يدها السليمة، فانطلقت منها طاقة هائلة، أكثف وأشد من تلك التي أطلقتها البارحة.
اهتز جسدها مع اندفاعها، وأحاطت بهذه الطاقة الفندق كله، وهي تصرخ بصوت
اخترق كل شيء:

.لن أعود أيها القدر... ليس الآن! إن كنت تريد هزيمتي هنا، فهذا جبن!

تحول المشهد البشع من حولهم إلى نور ساطع، نور غطى الأرض والسماء، تراجعت
المادة السوداء، انسحبت، وهدأت السماء، وعادت الأرض إلى سكونها. ابتسمت يارا
ابتسامة باهتة، ثم انهار جسدها على الأرض.

حملها جوارا بسرعة، وعيناه تبحثان عن أي خطر آخر. لكنه توقف فجأة... أمامه،
وسط السماء التي ما زالت تتوهج بالدم، كان هناك شخص يهبط ببطء. ركز بصره...
وعندما اقترب، اتسعت عيناه أكثر:

.إنه... أبي.

أثناء رحلتهم من المدينة الصغيرة التي تحوّلت إلى فوضى كارثية، كانت يارا غارقة في
سابع نومها داخل سيارة رون، جسدها شبه متمدّد على المقعد، وعقلها يغوص في
أعماق الأحلام المتشابكة،

حيث تتصارع ذكرياتها مع الواقع بطريقة تجعل كل شيء محيّرًا ومرعبًا في الوقت
ذاته.

كانت ترى نفسها تتلاشى كذرات غبار متناثرة في الماء،

تتناثر بلا وزن ولا هوية، شعور بالخوف ممزوج بالحرية

، ووهلة من الإحساس بالمسؤولية الثقيلة التي كادت تسحق روحها. كل نسمة هواء
تدخل أنفاسها شعرت بها وكأنها ثقيلة، تضغط على صدرها، تكاد تخنقها، وكل حركة
جسدها تتطلب مجهودًا خارقًا

، وكأن كل جزء من جسدها يرفض أن يتماشى مع العقل.

رون، المسكين، جلس جامدًا على مقعده، عينيّه متسعَتان على وسعِهما، لكنّه عاجز عن الكلام، عاجز عن التحرك. كل شعور داخله ينهشه، بين الرعب والدهشة، وكأن قلبه محاصر بين صراخ داخلي لا يستطيع الإفصاح عنه. كان يشعر بالثقل الهائل للواقع الجديد

، كل حدث وكأن له صدى داخل قلبه، وكل نظرة إليه تشعره بأنه مجرد شاهد عاجز على قوة تفوق فهمه.

جواراً، من جانبه، كان قريبًا منها، محاطًا بحيرة وقلق لا يفارقه. لم يفهم هذا العالم الجديد بعد، لكنه كان يحاول بكل ما أوتي من قوة أن يبدو هادئًا ومتناسكًا. كل خيط من شعوره كان موجّهًا لحماية يارا

، كأنه يحمل ليس جسدها فقط، بل كل ما تبقى من الأمان الذي يمكن أن يمنحه له هذا العالم الجديد. كل خطوة، كل نظرة،

كل حركة منه كانت مليئة بالاهتمام والحرص، كأنه يحاول سد الفراغ الكبير الذي تركته الأحداث وراءها.

عندما وصلوا إلى العاصمة الكبيرة، شعرت يارا بأنها عالقة بين كوابيسها الحقيقية والأحلام المختلطة بالواقع. كل شيء أمامها اختلط: الماضي، الطاقة الغامضة التي تحرك الكون، والحاضر المليء بالحشود والأصوات الغريبة. شعورها بالذنب أصبح أثقل من أي وقت مضى

، وكأن العالم كله معلق على أكتافها، وهي الوحيدة التي تعرف الحقيقة: أن اختيارها للهروب تسبب في تغيير كل شيء، وأن كل خطوة تقوم بها لها صدى مدمر على الوجود نفسه. كل نسمة هواء شعرت بها كانت تذكرها بمسؤولية لا تحتمل، وكأن الأرض نفسها تنتظر منها قرارًا.

بعدما استفاقت يارا في غرفة كبيرة ممتلئة بالناس، كان أول ما وقع عليه نظرها هو وجه جوارا. كان المسكين مرتبًا من كل شيء، لم يعرف كيف يتصرف في هذا العالم الحديث، لكنه كان يقف بجانبها،

يحاول أن يمنحها الأمان الذي تحتاجه. عينيه الزرقاوين تلمعان بالدهشة والقلق، لكنه كان يحاول أن يظهر هادئًا، متماسكًا، وكأن كل خطوة خاطئة قد تهدد يارا أو العالم من حولهم.

شعرت يارا أن شعورها بالارتباك والخوف يختلط بلمسة غريبة من الراحة لمجرد وجود جوارا بجانبها. اقترب منها بحذر، يلمس وجهها بعينيه المليئتين بالاهتمام، قائلاً بصوت خافت:

"أنتِ بخير؟"

لم تكن يارا متأكدة مما حدث، كل شيء كان مشوشًا داخلها، كل الأحاسيس تتصارع: الخوف، الصدمة، الراحة الغريبة من وجود جوارا بجانبها. شعرت أن كل نبضة قلبها تعكس قوة هائلة

، قوة لم تعرف كيف تتحكم فيها، قوة تجعل العالم كله يبدو وكأنه يتوقف ويتربع خطواتها.

بعد قليل، اقترب كون، وجهه قد تغير بعد مرور الزمن، يبدو أكبر وأكثر حكمة، تقريبًا في الأربعين، بينما جوارا عمره 19 فقط، ما خلق تباينًا غريبًا بين الشخصين. كان حضور كون ثقيلًا

، وكأن كل خطواته محسوبة، وكل نظرة منه تحمل وزنًا غير مرئي، وكأنها تحدد مسار المشاعر والأحداث.

بلا تفكير، وضعت يارا يديها على وجه كون بعفوية، محاولة أن تشعر بالحنان والدفع الذي فقدته

، محاولة أن تعود إلى شعور بالأمان ولو لبرهة قصيرة، وكأنها تبحث عن نقطة ثقل
تثبت عليها نفسها في بحر من الفوضى النفسية والعاطفية الذي يعصف بها.

رون جلس جامدًا، قلبه مشدودًا من المشهد، لا يفهم ما يحدث لكنه يشعر بثقل
المشاعر المتشابكة حوله،

بكل تفاصيل المشهد الذي أصبح واضحًا أمامه بشكل يفوق قدرته على الاستيعاب.

كون، بصوت صارم لكنه دافئ، قال لها:

"لا بد أن تعودي."

ردت يارا بعفوية وارتباك:

"مستحيل أن أعود إلى ذلك المكان، ذلك العالم دمرني."

كون شد على وجهها بحزم، لكنه لم يخفِ حنان قلبه:

"أنتِ لستِ السبب. هناك أمور غريبة تحدث، يا يارا. بعد رحيلك، الوحوش هاجت، والشیطان وأتباعه أيضاً... بعد مغادرتك، توقف الزمن عليهم، فهم الآن محاصرون في دائرة الزمن. هذه نقطة إيجابية، لكن الجانب السلبي أن الرون والمورون بدأوا يتصارعون على شلال السيرون."

كل شيء أصبح دموياً ومكثفاً بالمشاعر والعنف المتبادل، الحراس الأربعة من الأسلاف الذين حافظوا على الظلام اختفوا

، والزمن أصبح أطول على النور، وكل ذلك أثر مباشرة على شعب الزورا والمورون. الرون أصبحوا تحت ضغط شديد، والمدينة تئن تحت وطأة الأحداث التي لا تستطيع يارا فهمها بالكامل

، شعورها بالعجز يزداد، وحرقة قلبها تتضاعف مع كل نفس جديد، وكأن الكون كله يراقبها ويقيم تصرفاتها.

يارا جلست مستمعة، مصدومة، وعقلها يدور بلا توقف، وهي تحاول أن تلتقط فكرة واحدة، أي سبب من هذه الفوضى

. فجأة اقترب رون منهم، الصمت يخيم، وقال الطبيب الذي جاء لمراقبة حالتها:

"هل تريد شيئاً؟"

ردت يارا بصوت ضعيف، وجهها شاحب وجسدها يرتجف:

"كأس ماء..."

كون، بقوة وإصرار، شد يدها وقال:

"إياك أن تنفعلي.. مشاعرك الآن تُخرج منك طاقة كبيرة، كما حدث سابقًا. حافظي على صفاء ذهنك، يا يارا."

ترجفت يارا، عينها مليئة بالخوف والحيرة، وقالت:

"ما الحل إذن؟"

رد كون ببطء، صامتًا في البداية، ثم قال:

"لا أعلم، لكن يجب أن تعودني، ربما يتغير شيء."

هنا شعرت يارا بأنها محاصرة، عالقة بين عالمين، غير قادرة على فهم ما حصل عندما
ذهبت إلى البحيرة ورأت جوارا

، قلبها ممزق بين الرغبة في الهروب ومسؤولية التوازن الكوني.

نظرت إلى جوارا، وقالت بغضب وحيرة:

"لماذا جئتم إلى هذا العالم؟"

ردوا في نفس اللحظة، بصوت مليء بالغموض والحذر:

"ربما القدر لديه حديث آخر عنك، يا يارا."

أخذ كون ابنه إلى زاوية منفردة، بعيداً عن صخب الغرفة وضوضاء الأقدام والهمسات، حيث كان الضوء خافتاً يتسلل من النوافذ العالية، يلقي ظلالاً متحركة على الجدران العتيقة،

ويمنح الجو شعوراً بالرهبة والقلق الخفي. هناك، جلس كون على حافة المقعد، عيناه تتفحصان ابنته بجدية مختلطة بالحرص والحيرة، وكان صوته مثقلاً بالمسؤولية حين قال:

"إياك أن تخبرها عن اقتراب السماء من الأرض... أظن أن يارا لا تدرك أنها دفعت المصائب إليها."

ثم تنهد ببطء، وكأن كل شهيق وزفير يحمل ثقل اللحظات العصبية التي مروا بها، ونظر إلى رون، الذي بدا مذهولاً ومربكاً، لكن حاول أن يظهر التصديق، ربما كتحية للنظام الذي لا يفهمه،

أو كوسيلة لإخفاء خوفه. اقترب كون من رون بهدوء وثقة، وكلماته كانت تمثل مزيجاً من الأمر والنصيحة:

"شكراً على اهتمامك بيارا، لكن من الأحسن أن لا تطيل التفكير فيما حصل... يارا ضعيفة جداً الآن، لذلك يجب أن تستعيد قوتها. اعتني بها أيها الغريب عندما لا نكون هنا، أنا أثق بك."

ثم انصرف كون، تاركاً رون في حيرة تامة، بينما بقي جواراً واقفاً، قلبه يرفرف بسرعة، وعقله يتسائل عن تلك اللحظات العجيبة، خطوات والده التي تركتها علامات على الأرض أثرت فيه،

فقرر قطع صمت الغرفة بسؤال مباغت:

"لكن يا أبي، نزولك من السماء كان مفاجئاً، وعندما وجدتكم لم تتضرر... كيف حصل ذلك؟"

جلس كون على المقعد، جسده مائل قليلاً إلى الأمام، وعيناه تتفحصان الأرض كما لو كان يحاول جمع خيوط الوقت والمكان معاً، ثم بدأ بالكلام بصوت هادئ لكنه مثقل بالتجربة:

"حتى أنا لا أدري... عندما جرفك الشق، أمسك بي الطائر وحلق بي إلى السماء، وفجأة، بينما كنت أحاول الإفلات من مخالفته، ظهرت يد قد اتجهت نحو الشق الذي انزلت منه.

بدأت السماء تقترب بشكل مخيف من الأرض... تشبثت بها كي لا أموت، وصعدت بي إلى سماء هذا العالم. هناك، في تلك السماء، وجدت عيوناً تراقب وتنتظر شخصاً ما... لكنه ليس أنا... ربما يارا. لكن حين وجهت بصري إلى الأسفل، اختفت اليد،

وبدأت الدماء تهطل من فوق، وتغير لون السماء. أظن أن يارا قد أغضبت القدر
بتمردھا على مصيرھا

، وفي النهاية... ھا أنا بينكم."

صمت جوارا للحظة، وشعور التوتر يلفه، قلبه ينبض بسرعة، وأفكاره تتصارع بين
الغضب والخوف والدهشة،

بينما تتراقص الصور المربعة للسماء المتقاربة من الأرض والدماء المتساقطة أمام
عينيه. ثم قال بسخرية:

"يا لها من سخرية، أن يضعنا القدر هنا، في بيت ذلك الغبي... انظر إليه، كيف يحوم
كالغراب حول يارا... أريد قتله حقًا... لكني جائع... أريد أن أكل شيئًا."

رد كون بنبرة باردة، صوته محمل بالإزدراء والحذر:

"لا أعرف لماذا انجذب إليها... ربما هناك سر فيها حتى هو لا يعرفه... لماذا شخص
عشوائي يقترب من يارا لهذه الدرجة ويتبعها كظلها؟"

رمى جوارا والده بعينين متسائلتين، ووجهه يفيض بالقلق والحيرة، وقال:

"إنه مهووس منحرف... انظر إلى عضلاته وغده..."

ابتسم كون، ضحكة خفية تكاد لا تظهر، لكنها كانت تعكس إدراكه لطبيعة الغيرة في قلب جوارا:

"بئس لك... اترك الشاب وشأنه، واذهب إلى يارا... ربما تستيقظ."

ذهب جوارا نحو يارا، شعوره مشحون بالمسؤولية والحذر، قلبه يثقل بالقلق، ويده ترتعش قليلاً عند لمس جسدها للتأكد من سلامتها. بعد أن طمأن عليها قليلاً، ذهب يبحث عن طعام،

وكل خطوة كان يتخذها في المنزل العملاق مليئة بالانتباه، إذ كل ظل وحركة كانت تجعله متيقظاً. صادف شخصاً غريباً يحمل كاميرا، يبحث عن رون، لكن جوارا لم يفهم هدفه، واستمر في التجول حتى وصل إلى المطبخ، حيث ظهرت الثلاجة أمامه كجدار ضخمة يختزن الغموض، وخوفه زاد.

سحب سيفه بحزم، ودفع قدمه نحو الثلاجة بسرعة متأهبة، ثم ظهرت فتاة غريبة تضحك بسخرية من خلفه، لم تتراجع ولم تُبدِ أي خوف، بل وضعت في فمه تفاحة حمراء بمكر، ثم انسحبت. سرت قشعريرة سامة في جسده، تخبره بأن هذه المرأة تنوي شراً،

لكنه تجاهل ذلك واستمر في العبث بالثلاجة حتى فتحت، فتراجع ببطء، ثم رأى الطعام، سال لعبه وبدأ يأكل، وملاً بطنه أخيراً. شرب الماء وهمس لنفسه:
"لم أذق الطعام منذ أيام... آه يا بطني."

ثم سمع أصواتاً متعددة لأناس في الخارج، فتوجه نحو النافذة، ورأى حشداً ملتفاً حول المنزل ينادي ويصرخ، ولاحظ مرور رون مع تلك المرأة، وهو يرتجف ولا يريد الخروج، لكنها أصرت على ذلك وقالت بنبرة خانقة:
"كل ذلك بسبب تلك الغريبة الساحرة..."

لقد أثرت ضجة ومكان جميل بأكمله دمر بسببك... كيف ستبرر ذلك للناس؟"

ظل رون صامتاً، يراقب بدهشة، بينما همس جواراً لنفسه بصوت منخفض:
"ساعد يارا... إنها في خطر."

?

سمعت يارا الضوضاء الخارج من المنزل، فشعرت بغضبٍ عميق ينهش روحها كما لو
 أن ناراً مشتعلة قد اجتاحت كل خلية فيها. لم يكن هذا غضباً عادياً، بل شعوراً ثقيلاً
 وكثيفاً، كأن كل صوت غريب يغرس سكيناً حاداً في قلبها، وكل اهتزاز في الهواء
 يوجعها. نهضت بخطوات متثاقلة، ظهرها مقوس كما لو أنه يحمل ثقل العالم
 بأسره،

وكل حركة من جسدها كانت كإشارة تحذير لا يمكن تجاهلها. الهواء حولها بدا ثقيلاً،
 يتكثف، وكأن الجدران نفسها تنفس تحت وطأة الطاقة التي انبعثت منها.

من حولها، شعر الجميع بالهالة الغامضة التي انطلقت منها، لم تكن مجرد هالة
 مرئية، بل تموجات تتخلل الروح والقلب، تؤثر على كل من حولها، حتى من لم يفهم
 معنى الغضب شعر بها. كون، الذي كان واقفاً أمام المشهد، لاحظ الصحفيين الذين
 اكتظوا أمام المنزل

، ورون وجوارا، كلهم شعروا بالتحذير قبل أن تستيقظ يارا. الهالة التي انبعثت منها مزقت كل شيء جامد، كل شيء حي، وكل ما لم يتوقعوه شعور به في أعماقهم، وكأن الأرض نفسها تصرخ تحت وطأة قوتها.

يارا لم تكن بوعيمها، كانت أسنانها تحتك بشدة، تصدر صوتاً مؤلماً يقطع الصمت، ويدها المليئة بالخطوط السوداء بدأت تنبض

، لحمها الشاحب تحول تدريجياً إلى أسود حالك، متموج كأن الظلام نفسه صار ينساب عبر جلدها. وجهها حافظ على هدوئه الظاهري، لكنه لم يكن إلا قشرة رقيقة تحجب عن العالم عاصفة الطاقة المرعبة التي كانت تتدفق من جسدها.

تسمر كون في مكانه، عاجز عن تحريك ساقيه، وكل شعور بالخوف والرغبة يتصارع في داخله، لأنه كان يشعر بأن الطاقة التي تنبعث من يارا خالية تماماً من أي تمييز بين الخير والشر، النور والظلام، الوحشية والسلام، كأنها سبات كوني متجمد لا يهدأ، يلف كل شيء حوله في صمت رهيب.

تقدمت يارا، وفتحت الباب بكل هدوء، لتكشف ألواناً من الوجوه، مثل نجوم صاخبة ومضيئة، وكل منها يرمز إلى حالة من الرهبة والدهشة. الحشد كله توقف، وكأن الزمن تجمد للحظة واحدة، وكأن الهواء نفسه أصبح كثيفاً وممتلئاً بالتوتر.

لكن المرأة التي أفلتت يد رون لم تتركها تمر، اندفعت نحو يارا بعينين متألّتين بالطمع، وقالت بصوت مخنوق: "هذا كنزي، هذا مجدي!"، إلا أن اختناقها لم يكن بسبب يارا مباشرة،

بل بسبب سرب من الأرواح والوحوش امتزج في هيئة واحدة، أحاط بجسد يارا، كأنها درع حي يلتهم كل شيء حوله.

الوحوش والأرواح تمازجت في حركة شبه سائلة، تتراقص في الهواء، تتفاعل مع كل نبضة في قلب يارا، والوحشية التي تنبعث منها جعلت كون وجوارا يشعران بأن الكون نفسه يهتز تحت أقدامها، والوقت يتلوى حولها.

جوارا انزل من النافذة كالصاعقة، يواجه الصحفيين وأعينهم التي ذبلت من الرهبة، ثم أطلق صرخة نداء لأبيه من الداخل. خرج كون، يمسح تعابير الصدمة عن وجهه، ملوحاً بسيفه نحو الكيان الذي ظهر فجأة

، أظافر طويلة تخرج من جسد المرأة، تتحول إلى أشواك تطعنها، ثم تتلوى كالشعابين، ثم تتحول إلى رمال سوداء تتطاير في الهواء، تلتهم كل شيء بالقرب منها.

نظر كون إلى يارا، وهي تحرق في السماء الملطخة بالدماء، التي أصبحت أكثر بشاعة من أي وقت مضى، وقال موجها كلامه لجوارا: "لا تقترب منها، فقط انتظر حتى تطأ

قدمها التراب... لن يمر هذا بسلام إلا إذا تركت يارا هذا العالم، أرجوك يا ابني، لا تتهور".

جوارا ربط رأسه الذي ارتطم إثر تلويح الكيان بأشواكه، والسماء لم تهدأ، بدأت تطلق أصواتاً مزعجة، كأن الجحيم نفسه قد انتقل إلى الأعلى. الأرواح والوحوش ظهرت للملأ، ولم يستطع أحد التحرك

، لا كون، ولا جوارا، لأن يارا أوقفت الزمن، كل شيء متجمد، حتى الرياح توقفت، وكل ورقة، وكل شعاع ضوء، وكل قطرة مطر معلقة في الهواء.

اقتربت ووضعت قدمها على الرصيف، وبمجرد أن لامس التراب أصبح أحمر، وكأن الأرض نفسها تنزف، وأخذت حفنة منه ورشته على شعرها الأبيض، الذي تحول بعد ذلك إلى مادة سوداء كثيفة، كأنها تجسد الظلام في أبسط صورته وأكثرها كثافة.

رغم تجمد كون بالوقت، استطاع تحريك فمه قائلاً بصوت مختنق:

"يارا، أرجوكي، لا تفعلي! سوف تصبحين الظلام، وسوف يسجنك داخله! الكون أنت وأنت الكون، فلا تختاري شيئاً على شيء... العالم يتغير إن تغيرت، إن استسلمت لضعفك، إن قررت تغيير من أنت، فالكون سيغير هويته! أرجوكي!"

لكن يارا لم تبالي ظاهرياً، فهي محاطة بقوة أعظم من أي تحذير،

وعينها في السماء، تشاهد تلك العين التي رآها كون من قبل، تحولت مباشرة إلى ثقب
أسود ينظر إليها بشراهة لا نهائية

، يبتلع كل الضوء وكل الفهم من حوله.

صرخ كون بأعلى صوته:

"يارا!! أرجوكي! يارا، لا تذهبي... إذا ذهبت إليها، سيختفي التوازن! تذكر كل من
أحبك: أنا، جوارا، أمك، أبيك، المورون... الجميع سيساعدك لتجاوز هذا! أنت لست
وحدك!"

بدأ كون يسعل من شدة الضغط المحاط به بسبب الزمن المتجمد حتى الرياح
توقفت، بينما التفتت يارا إليه بعينين باكيتين، وقالت بصوت حزين وممزق:
"سامحني... إنه يناديني كل يوم، تزورني كوابيس هذا العالم وذاك، كل الأموات وكل
الأحياء... أنا لا أستطيع، أرجوك افهمني".

ثم نزلت من السماء حبال بأفواه متجهة نحو يارا لتجذبها إلى العين السوداء، وكانت
السماء تقترب، ودماءها تتصبغ بشكل أشد رعباً، بينما يارا تبكي وتتوسّل لكون:
"أنا خائفة يا كون! أنا خائفة! أرجوك أنقذني، أنا حقاً بحاجة إلى الإنقاذ!"

?

صرخت يارا، وأنفاسها تتصاعد بشكل متقطع وعنيف، جسدها يرتجف تحت ضغط السماء الذي يسحبه نحو الأعلى، كل عضلة مشدودة كما لو أن كل شعور مكبوت منذ زمن بعيد انفجر دفعة واحدة. صرخاتها لم تكن مجرد أصوات، بل كانت موجة من الألم والخوف والغضب امتدت لتغمر المكان كله، تخترق كل زاوية وكل شبر، حتى كون الذي شعر بالدهشة والرهبة في الوقت ذاته، لم يستطع تحريك أي جزء من جسده.

"لا لا لا لا لا أرجوك، لا أريد... أريد أن أكون معهم! لماذا يحتم عليّ البقاء داخل الرماد؟" كلماتها كانت متقطعة، تتخللها تقطعات النفس المتلاحق، لكنها حملت صراعًا داخليًا هائلًا بين رغبة الحرية والخوف من المجهول، بين التمرد على المصير واستسلام القوة الخارقة التي تحيط بها.

"لا أريد، أرجوك... لقد هربت لكي أنعم بالحرية... لماذا تجرني إلى هذا السجن... أنا أنا!" الصراخ كان كالعاصفة، يختلط فيه الألم بالخوف، والحنين بالحرية المفقودة،

والدموع الساخنة كانت تنهمر على التربة الحمراء، تتغلغل في التراب كما لو كانت تحاول غسله من كل ألم ودمار. كل قطرة دمعة تصنع دوائر صغيرة عند ارتطامها، تنشر الحزن في كل أرجاء المكان.

ابتلعها العين، تلك العين الغامضة الصادرة من السماء، وابتلعت كل وجودها، تاركة فقط آثار العيون الباكية، كأنها آخر لمحة لإنسانيتها. السماء نفسها انطفأت فجأة، تاركة الأزرق يخيم على المكان، كأن الكون توقف للحظة صمت مطبق، يتأمل في ما تركته يارا من أثر، وكأن الهواء أصبح ثقيلًا من شدة الصدمة.

ثم تدفقت الحركة فجأة في أجساد الجميع، كأن الزمن استعاد نفسه بعد صمت طويل، كل من حولها شعر بالاهتزاز، بالارتجاج، وكأن العالم كله ارتعش مع انفجار مشاعرها. يارا اختفت من الأعين، والصدمة انتشرت في عروق كون، جعلته يقف مشدوهاً، كأن كل حركة كانت تؤلمه على نحو شخصي.

رافعًا صوته، صرخ كون وهو راکع في المكان الذي تركت فيه يارا آثار قدميها:
"مستحيل، مستحيل، مستحيل! ليس هي... كيف... كيف لي أن أتحمل خسارة أخرى؟" صوته كان امتدادًا لصراخه الداخلي، كل كلمة مشحونة بالألم واليأس والغضب، كأن الكون كله يستمع إليه.

"لا... أيها الكون اللعين! أيها النجوم والوحوش والبعد اللعين! أيها الأسرار التي أكلت قلوبنا... ابتعدي... ابتعدي... ليس يارا!" كانت الكلمات تتطاير، كشرر من نار داخلية،

كل حرف من صوته يخترق الهواء الثقيل، يهز كل شيء في المكان، وكأن صوته يريد مزق العالم ذاته.

أجهش بالبكاء، صوته الخشن يخرق الصمت، يتردد صدهاء في الجدران والهواء، يترك أثراً كالصاعقة في الأجواء. المكان أصبح ساكناً بالكامل، سوى صدى بكائه المتكرر، وكأن العالم نفسه يصغي إلى حزن الإنسان وفقدانه الأعظم.

الجميع فقدوا وعيهم، لم يعد أحد قادراً على النهوض، سوى كون الذي نبش بأظافره التراب الأسود المتحجر، كل حركة منه تترك أثراً قاتماً، وكأن الأرض نفسها تشارك في وجعه. نزفت أصابعه، واللون الأحمر اختلط بالأسود، كأن دم قلبه امتزج بالحزن المكبوت، ثم فجأة ظهرت وردة سوداء أمامه، تسقط أمامه كرمز لما فقد، وسقط مغشياً عليه من شدة الألم والعجز.

استيقظ جواراً، وهو يشعر بأن جزءاً من يومه قد انتزع من ذاكرته، لا يتذكر شيئاً سوى والده أصبحت كالصنم، عيونه كئيبة، بلا أي تعابير، تعكس الصمت والفراغ الذي حل بالعالم من بعد اختفاء يارا.

رجع كون وابنه إلى الصحراء البائسة، بلا أي أثر لما فقدوه، بلا أي أثر لما كان يُحتمل أن يكون. عادوا إلى موطنه الذي أصبح نصفه مدمراً بسبب التداخل الكارثي مع العالم الآخر، الذي لم يترك شيئاً على حاله. مات الجميع، كل من عرفوه، كل من أحبوه، حتى الهواء بدا وكأنه يئن من الثقل الذي تراكم في المكان.

ظل المورون يحاولون تجديد ما دمر، عبثًا، في حين كانت العين التي خرجت من السماء تتسلل من أرضهم، تهتز الأرض تحتهم كأنها مريضة محمومة، والهواء أصبح ثقيلًا، كل شيء حي ذبل وسقط ميتًا، لكن هذا لم يعد يهم أحدًا.

لم تعد يارا موجودة، ربما كانت في مكان أفضل كما قال كون، لكن أثرها ظل محفورًا في كل شيء حولهم. كانت معلقة بين نور وظلام، سلاسل النار تلتهب حولها، كأن كل شعاع قوة في الكون حاول أن يمسك بها ويعيدها إلى مكانها.

ستعاقب على هروبها، هذه الحقيقة تلوح أمام كل من يعرفها، وكل العالمين يشعرون بخطورتها. كان هذا الهروب ضربة قاضية للعوالم، إذ أن كل توازن هش قد انهار، وكل رابط بين الأبعاد تهشم. يارا، التي أصبحت شخصًا آخر، باردًا، غير مكترث بما يحصل أمامها، يسمع صوت ستون قاضيًا يوجهون أصواتهم نحوه.

رفع أحدهم قبعته، وأمر بروح قوية أن تضرب يد يارا الغارقة في السواد. تلك اليد، التي كانت سببًا في إتلاف الرابط الوحيد لحماية العوالم، أصبحت أداة كارثية، مزقت التوازن وفتحت الطريق للكوارث المتتالية.

هناك بين العوالم، كان هناك رابط دقيق لحماية الموازنة، ومنع التداخل بين الوجودات، لكن يارا، بقوتها الجبارة، وبجهلها، مزقت كل شيء، وأطلقت العنان للفوضى.

?

هناك، في مكان لا يعرف زماناً ولا مكاناً، علّقت يارا بين عالمين: أعلى، سماء مرصّعة بالنجوم، كل نجمة تشعّ وكأنها عين تراقبها ببرودٍ أزلي. وأسفل، هوة لا متناهية، سوداء كالموت، تفغر فمها كوحش قديم ينتظر وليمة جديدة. لا أرض تحت قدميها، ولا هواء تنفّسه سوى ذرات غريبة من نورٍ باهت يتلاشى من حولها.

أمامها، مصطفّون في دائرة هائلة، ستون حاكماً كونياً. كانوا عمالقةً في هالاتٍ متوهجة، لا تُرى ملامح وجوههم كاملة، بل كانت عيونهم وحدها بارزة كنجومٍ سوداء، ثابتة بلا رمش، وكأنها تحكم عليها بمجرد النظر. أصواتهم حين نطقوا لم تكن مجرد كلمات، بل ارتجافات في الوجود كله، صدى يخترق العظم والروح.

لم تأبه يارا لتلك اليد السوداء التي طوّقت معصمها، ولا لأولئك العيون الجامدة التي
تشدّها نحو محاكمة بلا رحمة. كانت قد فقدت كل ما يربطها بالحياة الحرة. لقد
سُلبت منها الحرية، وسُلب كل شيء معها.

قال أحد الحكام، صوته كالرعد:

"ستُنْفين."

أجابت يارا ببرودٍ مميت:

"لا يهم."

تقدّم آخر، صوته أشبه بصرير أبواب جهنم:

"جُرمك لا يُغتفر يا يارا... لقد سحقتِ الروابط بين العوالم بهروبك، وأحدثتِ شرخاً
لا يندمل. هل أنت واعية بحجم المأساة؟"

ابتسمت ساخرة، وكشّرت عن نابيها في تحدٍّ ساخر:

"لا يهم أين أذهب... فأنا لست حرة أبداً."

حينها، ارتفع صوت ثالث، كالقدر المكتوب:

"إذن، ستُسلبين كل مميزاتك وقواك. لن تعود يارا كما كنت. ستعيشين حياة الرماديين."

ساد الصمت، سوى نبض قلبها الذي تباطأ كأنه يستعد للنهاية. همست ساخرة:
"الرماديون؟... أهذا حكمكم العظيم؟ حياة الرماديين البائسين؟... البؤس يمر، أما السعادة فيُبحث عنها... آه، أيها القدر المشؤوم... آه."

وفي لحظة، انفلتت من قيدها، وانزلت إلى الهوة. لم يكن سقوطاً عادياً؛ كان غوصاً في العدم، الريح تمزق شعرها، العتمة تلف جسدها. ومع ذلك، لم تصرخ... بل ابتسمت، وأغمضت عينيها وهمست:
"هذا مريح... سأعيش مجردة من الكمال."

فتحت يارا عينيها، فوجدت نفسها في عالم آخر. لم يعد هناك سواد ولا نجوم، بل منزل قديم تعلوه الألوان الباهتة: بني مترب، جدران متشققة، أثاث بسيط كُسرت بعض زواياه. لم يعد هناك سحر يحيط بها، بل أصوات أطفال يركضون، ضجيج عادي اخترق أذنيها حتى أوجعها.

شعرت بطفل صغير يشدّ طرف فستانها المتسخ، يطالبها بانتباهٍ لم تفهمه. على المائدة
جلس رجل وسيم، لكن وسامته كانت مشوبة بحزن دفين، نظراته مثقلة وكأنه يحمل
هموماً لا تنتهي. رفع عينيه نحوها وقال بنبرة هادئة لكنها كسيرة:

"اسكبي الحساء... لماذا أنتِ شاردة؟"

ارتجفت يارا، تركت ما في يدها واقتربت من النافذة. في زجاجها البالي انعكس وجه
غريب: امرأة في الثلاثينات، شعرها أشقر ناعم ينسدل على كتفها، عيونها خضراء
باهتة، جسدها جميل لكنه بلا إشراق. لم تعد يارا هي يارا.

الأسئلة تكاثرت على رأسها كزوبعة: من هي؟ ما هذا المكان؟ أين قوتها؟ أين عالمها؟
لكن الذهول انكسر فجأة حين أحاطها زوجها بذراعيه بلطفٍ غير معتاد، وهمس لها:
"هيا... اسكبي الحساء، الطفل ينتظرك."

التفتت، ورأت الطفل الذي يشبهها تماماً. وفي قلبها اشتعل شيء غريب... دفء صغير،
سعادة عابرة. ابتسمت وقالت في سرها:

"عائلة...!"

لكن سرعان ما تجمّدت تلك الشرارة، حين تذكرت أن الرماديين لا يعرفون السعادة
ولا الحزن. حياتهم مستقرة، بلا فوضى، بلا مشاعر جارفة... حياة مسطحة، لا لون
لها سوى الرماد.

رفعت عينها نحو الفراغ، وأدركت الحقيقة:

"هذا ليس عقاباً... بل جزاء... حياة الرماديين ليست موتاً... لكنها موت بطيء، في ثوبٍ من الاستقرار."

هناك، على سفح الجبل البعيد، تقطن يارا في عالم يغزوه البرود. هواء ثقيل يزحف بين الأغصان اليابسة، يلسع الخدود، ويترك على الجدران طبقات من جليدٍ كأنها وشوم منسية. مشاعر النسيان تتسرب إلى كل القلوب كما يتسرب الضباب إلى الوديان. لا أحد يستطيع إخماد جبروت النسيان، تلك اللعنة التي تطفئ ببطء كل شعلة حرية. إنَّه عقاب من يبحث عن الانعتاق، قيد يلتفّ على الأرواح بدل السلاسل.

تنظر يارا من خلال نافذة المنزل، النافذة المطلّة على جمالٍ ساحرٍ للطبيعة، جبال شامخة وسماء زرقاء صافية، لكن كل شيء باهت مقفر من أي لون مبهج. الأشجار عارية إلا من ظلها الرمادي، الثلج يغطي الأرض ببياضٍ ميت، لا يثير الفرح بل يضاعف الوحدة. نظرت إلى انعكاسها: شعر بلاتيني طويل يتلألأ بخفوت، وعيون خضراء عميقة لكن لا حياة فيها. عندها تذكرت أنّها كانت سجيناً في قفص أبشع من هذا، سجيناً في عوالم الحكام الكونيين. لكن سؤال يلحّ عليها: لماذا هذا العقاب المجحف؟

لم تُمهّلها الأفكار وقتاً لتتمادى، إذ قاطعها صوت زوجها. كان صوته دافئاً لكنه مرهق، كصوت رجلٍ يحمل على كتفيه ثقل سنوات من التعب. أمسك بيديها المبللتين من غسل الأواني، نظر في انعكاسها في الزجاج وقال:

"لقد تأخر الوقت، لنذهب إلى النوم عزيزتي... غداً سنذهب لجمع الحطب كما المعتاد."

قبلها قبلة خفيفة على جبينها، قبلة روتينية بلا شغف، ثم ترك لها شمعة صغيرة. اللهب تراقص في الظلام، كأنه يفضح ملامح المطبخ: أوانٍ نحاسية متآكلة، طاولة خشبية متصدعة، وأرضية يغطيها غبار الثلج الذي تسلك من تحت الباب.

لطمت يارا خدها بخفة، كمن تحاول إيقاظ نفسها من كابوس، وقالت:

"حياة الرماديين غبية حقاً... لا أعرف كيف سأأقلم هنا."

مسحت تعابير السخط من على وجهها، وتقدمت بخطوات رشيقة نحو غرفتها. كانت الغرفة منسية، جدرانها عارية، ألوانها لا تحمل سوى لون الخشب القوي المزخرف بنقوشٍ بسيطة. زوجها كان نجاراً محترفاً، تنبض يداه بحرفية نادرة، وعلى النقيض منها هي، خياطة ماهرة. لقد تزوجا وهربا إلى هذا الجبل بعيداً عن القرية. كان يقول لها: "الحياة في القرية أشبه بالموت بقطرات الماء... كلهم نسوا أحباؤهم وذكرياتهم، ثم قتلوهم... يقتلون من ينسى أو يدفنه الزمن."

خلعت فستانها المهترئ، ووقفت أمامه بسؤال يشبه طعنة:

"ماذا بشأننا؟"

أجاب وهو يحدّق في ملامحها بإمعان، عيناه تحترقان بصراع داخلي:

"أنا لم أنسك أبداً. ربما أحياناً... أتوق إلى قتلك، لأن هذه اللعنة تجبرني. لكن لا أنساك. ربما لهذا حفرت اسمك على ذراعي، واسم ابننا، كي لا أجن. وجدت شيئاً أنقذنا نحن الاثنين: ابننا لا ينسى أبداً. كلما ناداني بكلمة "بابا" أستيقظ من سباتي وأتذكر. لذلك أريد البقاء هنا إلى الأبد... كي لا أقتلكم."

عندما نطق بهذه الكلمات، تألأت عيناه ببريق غريب، خليط من الرجاء واليأس. في تلك اللحظة، تألّقت دموع يارا وانسكبت، دموعٌ صافية لأنها وأخيراً فهمت عقابها: ستنسى. ستنسى ذكرياتها... ستنسى كون وجوارا، ستنسى عالمها، ستنسى أمها وأباها. ستنسى هويتها، وكل ما جعلها استثناءً. كان عقابها الحقيقي ليس الحرمان من القوة، بل الحرمان من الذكرى.

مدّ يده المرتجفة، جذبها بقوة، أسقطها على السرير، احتضن جسدها النحيل الأبيض. أصابعه المحترقة من العمل مسحت دموعها بصبرٍ صامت. كان قد نسي اسمه حتى، لكنه تذكّره حين همست له شفيتها:

"أزيل..."

ذلك الاسم كان الحبل الأخير الذي يربطه بالإنسانية.

نامت يارا بين ذراعيه، لكن قلبها ظلّ مستيقظاً.

مع بزوغ الفجر، استيقظت يارا مبكراً. فتحت الباب الخشبي المتهاالك، خرجت إلى الهواء البارد. الرياح قرصت عظامها، خدّاهما توهجا بلون قرمزي جميل، الشتاء كان يبتلع الجبل. وقفت تتأمل المشهد: الجبال مغطاة بالثلج، الغابة نائمة تحت بطانية بيضاء، والسماء رمادية كأنها لوحة غير مكتملة. فجأة أحاط بها ابنها الصغير، ضمّها ببراءة كاملة. كان يشبهها بطريقة حزينة ومفرحة في آن واحد، جماله رقيق كزجاج قد ينكسر من مجرد لمسة.

حملته بين ذراعيها واتجهت نحو البئر. الماء كان متجمداً، صدى صوتها ارتد من أعماق الجوف. همست:

"الشتاء جميل... لكنه لاذع."

في تلك اللحظة، تفتّن أزيل لغياب زوجته. نظر حوله، نسي اللحظة من هي، ظلّ يهيمهم بلا وعي، يبحث في عقله عن خيط. ثم لمح اسمه محفوراً على ذراعه، فاستيقظ فجأة كمن خرج من حلم خائق. أخرج خنجراً صغيراً، خدش إصبعه، امتص قطرات

دمه. كانت تلك طريقته ليهدي القوى الكامنة داخله. قوى تشبه دباً هائجاً يبحث عن فريسة.

ارتدى قميصه الصوفي بسرعة، واندفع نحو الباب. عندما فتحه، تجمد الدم في عروقه: رأى جسد زوجته الضئيل مع ابنيها قرب البئر، وعلى بعد خطوات، كان شيء أسود عملاق يتقدم. دبّ ضخم، عيناه ناريتان، فروه يتماوج مع الريح، زئيره يشق السماء.

صرخ أزيل بكل قوته، صرخة هزّت الجبل:

"إميليا... إهربي! إهربي!"

يارا لم تفهم ما يحدث، لكن شعرت بالهواء يثقل فجأة. الأرض تهتز تحت أقدام الدب، خطواته تمزق الثلج. حملت ابنيها بكل قوتها، ركضت، قلبها يخفق بعنف، وشعرها الطويل يتطاير خلفها كراية ذهبية. وشاحها الذي طرزته صباحاً سقط، طار مع الريح، لكن لم تهتم. الطفل يبكي في حضنها، دموعه تزيد من رائحة الخوف التي اجتذبت الوحش أكثر.

انفجر الباب خلفها، وخرج أزيل حافياً، يحمل فأسه الصغير. ركض بسرعة لا تصدق، وجهه شاحب لكن عيناه تقدحان شرراً. عبر بجانبها كلمح برق، شعره البني يتطاير مع الثلج، جسده كله اندفع نحو الدب.

قفز عالياً، رفع فأسه بكل ما يملك من قوة، وصوّبه نحو رأس الدب. للحظة، تذكرت يارا كون في الصحراء، حين قفز لحمايتها من وحشٍ عاقر. المشهد تكرر أمامها، لكن النهاية لم تكن مضمونة.

الفأس اصطدم بجمجمة الدب، لكن عنقه كان سميكاً كجدارٍ من الصخر. أدرك أزيل أن الضربة لن تكفي. بوحشيةٍ غير بشرية، أمسك برأس الدب بكلتا يديه، أدار عنقه بصرخةٍ تزلزلت معها الأرض. صرير العظام ولحمٍ يتمزق دوى في الفضاء. ثم غرس فأسه في مكان التمزق، وقطع رأس الدب بضربة واحدة.

سقط الرأس الضخم على الثلج، وتدحرج ببطء، بينما جسد الوحش ارتطم بالأرض كجبل ينهار.

أنفاس أزيل كانت تتسارع، قلبه يخفق بعنف، عيناه السوداوان فقدتا بريقهما، جسده ارتعش كمن أنهلك من الداخل. حاول أن يقف، لكن ساقيه خانتاه، وسقط مغمىً عليه في حضن الثلج الأحمر.

ركضت يارا نحوه، دموعها تسيل، وضعت يدها على وجهه. كان بارداً، لكن قلبه لا يزال ينبض. نظرت إلى ابنها المرتعش بين ذراعيها، ثم إلى جثة الوحش، ثم إلى زوجها

الملقى. في تلك اللحظة، أدركت أن الرماديين... رغم بساطتهم... يعيشون في عالمٍ
يفترسهم من الداخل والخارج معاً.

تناثر الثلج فوق رأس يارا، كان يذوب على خصلات شعرها البلاتيني فيسقي وجنتيها
ببرودة تلسع العظم، ومع ذلك استجمعت رباطة جأشها، تماسكت وهي تكبح ارتعاش
جسدها، وقالت بصوت يبعث الأسى، كأنها تخاطب ذاتها قبل أن تخاطب من أمامها:
"أنت بخير... نعم، أنت بخير، لا تنظر إلى هناك، إلى تلك السماء الملبّدة بالنسيان... لا
يا عزيزي أزيل، لا..."

ارتجفت شفتاها وهي تجرّ الكلمات جرّاً، ثم أطلقت من حنجرتها تهويده شجيرة،
هدهدت بها المكان المضطرب وكأنها تبتّ السكينة في الجدران قبل الأرواح. لقد
سمعتها من كون، ذلك الصدى البعيد الذي يتردد في قلبها كلما هزمها الأرق وأثقلت
كوابيس الليل عينيها. راحت تغني بصوت رقيق مختنق، ناعم كهمس الريح بين
الأشجار:

"لتنام، لتنام أيها الملاك... لترى النجوم تسبح هناك... سأنام، سأنام معك أيها
الملاك... أغمض عينيك..."

اذهي أيتها الشياطين... اذهبي هيا، اتركي صغيري ينام... سينام هذا الملاك لتغمره
الآمال..."

تكسرت نبراتهما عند بعض الحروف، لكن الأغنية انسابت صافية، تلمع فيها دمعة
وحنان. عندها ابتسم أزيل بشيء من السخرية الصامتة، ابتسامة قصيرة لكنها أذابت
جزءاً من صلابته، وقال بصوت واهن:
"هذه أول مرة أسمعك وأنت تغنين... ما أجملك."

ثم أغمض عينيه كمن استسلم لسلطان النوم، أو كمن ألقى بجسده المرهق بين
يديها مطمئناً.

حملته يارا بأقصى ما تملك من قوة، وقد خارت قواها التي طالما أثارت الجميع، تلك
القوى التي سحقت من يقف أمامها، لكنها اليوم كانت تحطمها هي. كان جسد أزيل
ثقيلاً على ذراعيها، وأنفاسها تتصاعد بحرارة، يتبعثر معها الأدرينالين الذي أغرق
عروقها فأشعل جسدها المتجمد. جرت به نحو الداخل، كل خطوة كأنها حرب ضد
الأرض، حتى وضعت زوجها على الكنبه المجوفة. رفعت شعرها المبلل عن جبينها
والتفتت نحو ابنها الذي ارتبك من المشهد، فأمرت بصوت يائس، يختلط فيه الصبر
بالرجاء:

"أحضر لي منشفة مبللة من الحمام... أسرع."

كانت كلماتها تتساقط مثل أنين طويل:

"هذا مخيب للآمال... أن يحتذي بك من لا تريده... أن يصدقك القدر بقوة لا تريدها... أن تمشي بلا إرادة... وتنسى بلا إرادة... أين قراري في هذه الأشياء؟"

يدها المرتعشة عصرت قطعة القماش، ثم خلعت قميص زوجها الصوفي الذي كانت قد طرزته بحب وتفانٍ. كان القماش مثقلاً بدمائها التي لم تستطع محوها، لأنها لا تملك صابوناً يغسل آثار الجروح. زوجها لا يعود كل يوم بالحاجيات، وواقعهم جعلها تحرق الحطب وتغلي الماء في القدر الكبير كي تنظف الثياب، لكن دمها ظلّ ينزف بين الخيوط، شاهداً على كل ما كابדתه. تذكّرت الشمعة التي ذابت قبل أن تنهي القميص، ومع ذلك أكملته متجاهلة وخز أصابعها بالإبرة الصدئة، كأنها تتجاهل آلامها من أجل حبها.

جلست تمسح على صدره العريض، تُزيح منه رائحة العرق والدم، رائحة دبّ جريح. لكن إيميليا، بحسّ الشمّ الحاد الذي ورثته، لم تكن لتحتمل هذه الروائح، فتغضّ بصرها وتحبس أنفاسها.

بعد أن غطت يارا أزيل بعناية، أوصدت النوافذ لتكسر هبوب الريح، وأدخلت الحطب إلى الموقد كي توقد النار وتدفع البيت المتجمد. من المطبخ حملت حساءً وحليباً فاتراً، وضعتهما قرب ابنها الصغير الذي كان قد غفا على كنزتها المطرزة بالصوف. مشهد غريب عن بيتهم... غريب عن يارا نفسها... مشهد لم تعتده لا هي ولا هذان الشخصان النائمان بين يديها، كأنهم في زمن آخر.

اقتربت من أزيل وربتت على جبينه، توقظه برفق، وقالت وهي تنظر حولها بقلق
ممزوج بدهشة:

"البقاء هنا جميل... لكنه مخيف."

فتح أزيل عينيه بصعوبة، رمقها بنظرة باهتة، ورأى يارا فوقه، تنحني عليه، تمسح
بيدها المرتعشة عرقه، كأنها تخبي خوفها بين أصابعها.

رغم أن النسيان يجرها إلى أعماق أراضيه، لكنها تتشبث بخيوطها البيضاء.
يارا، و لأول مرة، أصبحت تغني بصوت متعثر، لكنه يلامس القلب الدامي. كان صوتها
يخرج من صدرها مثل ارتجافة وتر قديم، مختنق بالحزن، لكن نبراته تحمل دفء أمّ
تخشى أن تنطفئ شمعتها.

تحت وهج الشمس الصيفية، التي أحرقت ظهرها وأثقلت رأسها، إستقرت يارا على
روتينها المعتاد: غسيل، واعتناء بالزوج، وبالإبن، وبنفسها، وبالمنزل. منزل صغير، لكنه
أصبح متحفاً لمشاعرها الأزلية. كل حجر فيه يحمل صدى ضحكة أو تنهيدة أو دمعة
انسكبت على جنباته.

يارا لم تنسَ ما كابדתه، وما نزفته، وما أضاعته. لذلك فقد حولت بيديها الهزيلتين المنزل إلى لوحة زاهية، ألوانها لا تبهت. حتى أزيل نفسه تعجب من التغير الذي أصاب هذا المنزل القديم، ذاك الذي وجدوه صدفة وسط الغابة الكثيفة وسكنوا إليه كلاجئين من قدر لا يرحم.

تعلمت يارا النجارة من أزيل؛ كانت تتبعه بعينها وكأنها تتعلم لغة جديدة من حركات يديه وهو ينقش على الحطب المبلل بقطرات الندى. كل مرة يتساقط فيها خشب صغير من بين أصابعه، كانت تلتقطه كما لو كان أثمن من الذهب. وكلما تعلمت شيئاً أسرع لتطبيقه. لكنها لم تكن كل المحاولات مفلحة؛ فأصابعها، التي تشبه أعواد القطن، لم تمنحها قوة كافية لتصقل ما نقشته.

فاستعانت بخنجر ساخن، غرزته في الخشب، وراحت تحرقه بحذر. كانت آثار الحرق عجيبة، كأنها نقوش نيزكية على سطح شجرة قديمة. ووسط تلك الأمسيات الطويلة، جلست يارا منحنية على الخشبة، تنحتها بتفانٍ وعزم. وأخيراً، رسمت عليها عالماً من النجوم، مثل ذلك العالم الذي كانت تسكن فيه في أحلامها. عالم يزخر بالحياة، لا يشبه هذه الحياة البالية.

ورغم ضعفها، أبرمت يارا عقداً مع أزيل: أنها سوف تغير حياتهما إلى الأفضل. لكن أزيل لم يفهم. كان يغادر مبكراً، يحمل فأسه، ليجمع الحطب من أعماق الغابة، ثم يعرج على مكان تتفتح فيه زهور الريحان والنرجس. كان يقطفها بعناية لأجل يارا، التي تلح عليه إلحاحاً شديداً بأن يأتي بها.

يارا، تلك المرأة ذات الروح الملتوية في إيجاد الفرح، كانت تطحن الورود كما يطحن
الفلاح الخبز اليابس ليعيده رغيًا شهيا. حوّلت الريحان إلى بهجة، والنرجس إلى زينة،
وكان البيت يغرق بعطرها مثل معبدٍ مقدس.

لدى يارا طرقها الملتوية للعيش بسعادة. ربما كانت تلك السعادة تُغمرها عندما تعود
منهكة إلى منزلها المغطى بالنقوش والألوان الجميلة، بعد جهد كبير بذلته هي وابنها
الصغير. حتى زوجها، أزيل، الذي كان وجهه متعبًا وملامحه قاسية، أصبح لأول مرة لا
تفارق الضحكة محيّا وهو ينادي اسمها عند عودته.

أصبحت الأواني القديمة الباهتة أطباقًا مزخرفة من الخشب. الطاولة الخشبية باتت
تحمل سحرًا ينقل من يجلس حولها إلى عالم آخر، عالمٍ أخاذ. كل هذا من صنع يارا
المتقن.

جلس أزيل ذات مساء يتأمل زوجته وهي تطبخ الحساء، بينما جلس هو على كرسي
خشبي جديد يشبه الحلم. حتى هو شعر أنه تغير. نظر إليها بعينين دامعتين وقال:
- أنت زوجة نجار بارعة. لم أعرف أن لديه هذه القدرة على تحويل الميت اليأس إلى
حي سعيد. أنت زوجة كادحة يا إيميليا.

إلتفتت يارا، وقد ألهمت الروائح التي انبعثت من جسده الضخم، وقالت:

- أنت وسيم على غير العادة يا أزيل، ما الأمر؟

فضحك ضحكة خفيفة، ثم مد ذراعيه القويتين وضمها بقوة من خصرها الممشوق.
داعب أذنيها برفق وقال:

- لمَ لا تتركين هذا الطعام وتهتمين بزوجك كما تهتمين بإعادة الحياة إلى هذا المنزل
البارد؟

قالت وهي تقطع الفلفل الذي جنته من حديقته المكونة خلف المنزل:
- ماذا تريد؟

فقال وعينيه تلمعان:

- أريدك كما لم أرد أحدًا في هذه الحياة.

تنهدت يارا، وابتسمت نصف ابتسامة وقالت:

- أنت طفل مدلل يا أزيل، سوف أكمل الحساء بعد قليل، أعدك.

ثم رمقته بنظرة تحمل موافقة خفية. عندها لمعت عيناه كمن حصل على كنزٍ. ترك
قبلة طويلة على عنقها الأبيض، وانصرف وهو يغني بنغمة عشوائية.

- أزيل، أنت هالك! صاحت بصوت صادح.

فضحك الآخر، متجاهلاً توعدها.

وفي تلك الليلة، التم شمل العائلة الصغيرة على الطاولة التي تزينها الشموع الصغيرة. كانوا يأكلون في صمتٍ مفعم بالحياة. لم يحتمل أزيل هذا المشهد؛ قبض على يد زوجته وقبلها بحنان، ثم نظر إلها بنظرة استعطاف، وهو يهمس خشية أن يسمعه ابنه:

- هيا يا زوجتي المحبوبة، هيا.

عضّت يارا على شفتيها بغضب خفي وقالت:

- ابني، هلا نذهب إلى النوم؟

غادرت مع ابنها إلى غرفته، وأزيل اغتنم الفرصة. أسرع إلى غرفة النوم، نظر إلى نفسه في المرأة، فرك بيديه شعره البني، ثم نزع ثيابه ومد جسده على السرير، ينتظر إيميليا.

يارا، بعد أن نظفت الأطباق وأعادت كل شيء إلى نصابه، ظلت متسمرة لبرهة أمام باب غرفة النوم. رفعت رأسها إلى الأعلى، وهمست:

- أيها القدر، لترحميني.

ثم دفعت الباب بهدوء، ومشيت على أطراف أصابعها وسط ظلام الغرفة. بدأت في فك
الفيستان، وفجأة، لمعت عينا أزيل من وسط الظلام. شعرت بقشعريرة تسري في
جسدها، وقالت بصوت مرتجف:
- أزيل، بحق السماء لا تخفني هكذا.

لم يصدر صوتًا، بل تقدّم إلى الشمعة وأشعلها. عندها، رأت يارا جسده العاري،
فتفرست فيه وقالت وهي تحاول أن تخفي ارتباكها:
- بئسًا لك.

اقترب أزيل بخطوات ثابتة، وقال معتذرًا:
- زوجتي، هل أفزعتك؟ أنا آسف حقًا.

قالت يارا
- سوف أقتلك يا أزيل، أيها المخادع.

قبل أزيل و لمس وجهها برفق، وقال بصوت متقطع:
- يمكنك فعل ما تريدين، أيتها الأميرة المشاكسة.

تمالكت يارا نفسها، أمسكت بشعره، ونظرت إليه بحدة . كادت أن تبكي لكنها
تماسكت وقالت:

- لتعلم أنني...

لم يترك لها مجالاً للحديث، فقط أطفأ الشمعة و إرتى نحو السرير

استيقظت يارا في الصباح، وعلى غير العادة، كان أزيل يغط في النوم مثل الكسلان.
جلست تتأمله، وجهه الوسيم هادئ كطفل. همست:

- هل خوض كل المحن يجعلني إنسانة حقًا؟

مد أزيل ذراعه دون أن يفتح عينيه، طوقها بجسدها واحتضنها. قال وهو نصف نائم:
- أنت تبكين كثيرًا يا إيميليا... لم أعرف أنك قوية لهذه الدرجة.

احمرّ وجه يارا، ولكمته بخفة:

- أنت فظ أيها الزوج الضخم. ما دخلي إن كنت ضخماً وأنا هزيلة؟

فتح عينيه قليلاً، ابتسم وقال:

- أنت قوية رغم أنك هزيلة، كأني أصارع قنفذًا غاضبًا.

وضعت يديها على عنقه وقالت:

- أنت... أنت...

ثم تنفست بعمق، نظرت في عينيه:

- لا تفعل ذلك مجددًا.

قال أزيل باستغراب:

- ماذا فعلت؟

قالت يارا بصوت منخفض:

- لا تنظر إلي بهذه المشاعر الكثيرة... أنت تنظر إلي كأنك ملكت العالم بأسره. لا تنظر.

فقال وهو يقبل جبينها:

- أنت عالمي يا إيميليا. لأول مرة أشعر بطعم السعادة. رغم أنني رمادي بائس، وأنت

كذلك، لقد تغيرت كثيرًا.

قالت وهي لا تفهم:

- كيف؟

أجاب:

- أصبحت مشرقة. هيا، ارجعي إلى النوم، مازال الوقت مبكرًا.

ابتسمت يارا، قبّلت جبينه وهمست:

- أنت طفل مدلل كبير.

فقال مازحًا:

- أنا كذلك، هل لديك مانع؟

قالت يارا بجدية رقيقة:

- أريد التنزه.

ضحك أزيل وقال:

- في هذا الوقت؟

أجابته بعناد طفولي:

- رغم أن جسدي يؤلمني بسببك، لكن أريد التنزه.

ضحك أزيل بمكر وقال:

- ارتاحي، وسوف آخذ اليوم استراحة، ونذهب حيث تريد.

بعد تجوالهم الطويل، أيقنت يارا أنها انغمست في هذا العالم حتى تلاشت ذكرياتها شيئاً فشيئاً، لم يسرقها النسيان دفعة واحدة، بل كان يتسرب بخبث، كما يتسلل الماء البارد في شقوق صخر جاف، لا يُسمع له صوت ولا يُرى له أثر حتى يذيب الحجر. انغمرت في سعادة مصطنعة، سعادة لامعة كالزجاج الملون، لكنها كانت تعرف في أعماقها أنها سعادة مسمومة، كشراب حلو يخفي في أعماقه سُمّاً قاتلاً.

لقد وقعت في الفخ... الفخ الذي نصبه الحكام بدهاء. كان عقابهم ناعماً، مُغلّفاً بطلاء بهيج من الزهو، لكنه في جوهره سلاسل غير مرئية. سلاسل حديدية تغلّ يديها ورجليها، تُقيد عقلها، وتكسر روحها التي وُلدت لتكون طليقة. كان العقاب الحقيقي ليس أن يُعذبوا جسدها، بل أن يسلبوا منها المثاليات التي بُعثت بها.

يارا... هي النظام نفسه، ليست مجرد امرأة. هي قلب نابض تُحرّكه المشاعر البشرية، لكن في عروقها تسري قوة خارقة تتجاوز البشر. وُلدت من رحم المثاليات، لكنها حوصرت في جسد هشّ، جسد يذكّرها في كل لحظة بأنها إنسانة خاضعة لقانون الحياة والموت.

حين تركت يد أزيل، كان الأمر أشبه بقطع آخر خيط يربطها بعالمٍ لم يعد يُشبهها. كان القرار لحظة ثورة، لا انسحابًا عاديًا. انطلقت كأنها شعلة مشت على قدمين، كأن الأرض كلها تضيق بها وتريد أن تلفظها. أزيل بقي مشدوهاً للحظة، ثم أدرك أن ما يحصل أكبر من أن يُوقفه. حمل ابنه على ظهره وركض وراءها، لكن خطواته الثقيلة بدت كأحجار تسقط على طريق، لا تُقارن بخفة قدميها.

يارا كانت تركض وكأن روحًا جديدة تسكنها، وكأن طفلة في داخلها تصرخ: "هيا، أسرع، اللعبة ستضيع إن لم نلحق بها." كانت أنفاسها تخرج كحشرجات نار، وصوتها يعلو فوق صدى الريح:

"لن أخضع! لن أبدّل! لن أموت في وهم سعادة زائفة! أنا يارا... أنا الكون! لن تُهزَم هويتي!"

قفزت من أعلى سفح الهضبة، جسدها كان كالبرق، اندفع بلا تردد، بلا أدنى خوف. أزيل شهق وهو يراها تقذف بنفسها كطائر جُرحت جناحاه لكنه يُصر على الطيران. للحظة، غطّت وجهه ابتسامة باهتة، ضحكة عابرة حجبت فاجعةً داهمة. بدت له كطفلة عادت من السوق حاملة سمكة صغيرة وتريد أن تفاجئ بها أمها.

وصلت يارا إلى أطراف القرية، والقرية بدت ساكنة كقبر مهجور. لكن حين صرخت صرخة عالية، ارتجفت الحجارة نفسها. كانت صرخة تشبه نداءً قديماً، نداءً اندثر عبر القرون. رفعت فستانها ودارت، يدها تصفق بإيقاع عجيب، كأنها تؤدي طقساً من طقوس الأجداد التي لم يُسجلها كتاب.

الرماديون، بوجوههم الجامدة وأجسادهم الراكدة، تجمّدوا أكثر. كأن الأرض ربطت أقدامهم بجذورها. بعضهم فتح عينيه على اتساعهما، وبعضهم تراجع خطوة كأن رقصتها سكين تخترق قلوبهم. أصوات خافتة ارتفعت بينهم، همهمات غريبة، لكن لا أحد تجرأ على التقدّم.

لم تعد يارا إنسانة في أعينهم. بدت لهم ككائن سماوي، امرأة تحكم الطبيعة بإشارة من يدها. الطيور رفرفت مذعورة، ثم عادت لتدور فوقها كأنها تشاركها الرقص. الكلاب والقطط والزواحف خرجت من جحورها لتحقق فيها. الرياح انطلقت تدور حول جسدها. السماء نفسها تغير لونها، النجوم لمعت بجرأة وسط النهار، والشمس أرسلت خيوطاً ذهبية بدت وكأنها تمسح على كتفها.

أزيل، الذي وقف مشدوهاً، لم يعرف إن كان يحلم أو يغرق في كابوس. همس لنفسه: "أُيعقل أن تكون هذه زوجتي؟ أيها القدر، لا توقظني... دعني أغرق في هذا الجنون."

كل ضربة من قدميها العاريتين على الأرض كانت كطبل عظيم يهز التربة. الأرض استجابت لها، تشققت من تحتها، الدم سال على قدميها، لكنه لم يُوقفها، بل زاد من عنفوان رقصها. ضحكت، ضحكة عالية، كأنها ملكة وجدت عرشها أخيراً. نادى: "تعال إلي يا أزيل... تعال، هيا أيها المجنون، أسرع... اقترُب، فنحن على وشك الرحيل!"

أزيل لم يفهم كلماتها، لكنها كانت تُشده كما يشد المغناطيس قطعة حديد. ابنه على ظهره بدأ بالبكاء، ثم توقف فجأة، وكأن الصغير نفسه شعر أن ما يحصل فوق طاقة البشر.

السماء انفجرت. الغيوم تدافعت بقوة، البرق لمع، والرعد دوى كأن السماء كلها تُصفق مع يارا. ثم... انفتحت عين أخرى، ليست كعين يارا الأولى، بل عين هادئة صغيرة، بوابة غريبة يخرج منها نور خافت.

تدفقت الأرواح منها، أطياف لا تُشبه البشر ولا الحيوان. وجوه نُسيت عبر الزمن، أشباح كانت تبحث عن مخرج. تهادى كل شيء في الفضاء وكأن العالم القديم خرج من قبره.

يارا لم تتوقف. رقصت أكثر، اندمجت مع زمجرة العين حتى صارت جزءاً منها. جسدها أصبح كخيوط نور، وصوتها صار كترنيمه مقدسة. وفي لحظة خاطفة... اختفت هي وأزيل وابنه، ابتلعهم المشهد دفعة واحدة.

سقطوا... سقطوا في عالم آخر، عالم الرمال التي تحرق، والرياح التي تعوي كذئاب،
والأفق الممتد بلا نهاية. فتحت يارا عينها ببطء، استنشقت الهواء الجاف، شهقت
من الانسراح، ثم ابتسمت. التفتت نحو أزيل، وضعت قبلة على خده، وقالت بصوت
مليء بالانتصار:

"لقد نجحت يا أزيل... لقد نجحت أخيرًا في تجاوز تعاستي."

"هل تستطيع هاتان اليدان القضاء على هذه القيود الحريية يا ترى؟"

في ارتباك لم يفارق يارا، نظرت إلى الرمال الذهبية الممتدة أمامها، تلك الرمال التي
ارتشفت من سيول السعادة لحظة عابرة، وكأنها تمنحها لحظة من الحرية قبل أن
تنقلب المشاعر على نفسها. كان الضوء الصادر من الشمس يحرق جلدها الرقيق،
لكنه في الوقت نفسه يلمع على حواف القيود الحريية، كأنه يحذرنا من قوة متوارية
داخلها، قوة لم تعرف كيف تستعملها بعد.

ثم خمد لهيب الفرحة لهزة كبرى، تألقت على إثرها عيون يارا بوميض ليلي دامس،
يلمع كجمر في العتمة، كأنه يصرخ في الكون: "أنا هنا، لن تتجاوزوا حدودكم."

وقالت بصوت خافت لكنه ممتلئ بالمعنى: "الوحش... أنت هو ذلك الوحش الذي صنعتك قوتي وقتلت الجميع. أستطيع رؤية شلالات الحقد تتصاعد من عينيك القبيحتين."

تجمد أزيل في مكانه، وهو يعانق ابنه بقسوة، يراقب صمت يارا، لا يجرؤ على تحريك قدمه، وكأن الهواء نفسه أصبح أثقل من الحديد.

الوحوش العاقرة، التي ظهرت في المشهد بشكل رهيب، انتفضت لصوت الانبعاث الغامض من حنجرة يارا، ولم تدرك أنها أطلقت صافرة العودة، لا تدعو شيئاً بل هي مجرد إعلان عن قدوم قوة لا يمكن كبحها. الصحراء كلها، تلك الأرض الذابلة والخالية من الحياة، بدأت تهتز، الريح بدأت تعوي، الرمال ترفرف في الهواء كأنها تجيب على نداء يارا.

يارا لم تكتفِ بالمراقبة، بل تقدمت بقدميها الملطختين بالدماء الحارة، الأرض تحت قدميها تزمجر، والرمال تتشقق كأنها تحت ضغط قوة لم يعرفها أحد من قبل. الوحوش لم تبد ردة فعل عدوانية، فقط صمدت في أماكنها، تنتظر أن ترى ما سيحدث.

في تلك اللحظة، شعرت يارا بأن السعادة التي كانت تعتلي وجهها هي مجرد قشرة رقيقة، سرعان ما انفصلت عن وعاء جسد إيميليا بطريقة بشعة. لم يكن الأمر مؤلماً فقط، بل كان يشبه الانفجار الداخلي، حيث اندفعت الطاقة الكامنة بداخلها إلى الخارج، وخرجت من أصابعها مخالب حادة كسيوف، قطعت القيود الحربية التي تربطها بالجسد دون عناء.

الوحوش، التي كانت في انتظار أي إشارة، راکعت، والسماء نفسها بدأت تمطر لأول مرة منذ قرون، قطرات الماء تتساقط ببطء لكنها تحمل معها قوة خفية، كأن الكون كله يشهد على ولادة قوة جديدة.

خرج أحد الوحوش العاقرة ليلتهم يارا، لكن في لحظة خاطفة، فصلت رأسه الأسود عن مكانه بإشارة من إصبعها، كأن قوة إرادتها وحدها قادرة على تنفيذ هذا الفعل. شعر أزيل بالغيثان، قلبه يرفض ما يراه، لكنه عاجز عن التحرك، جسده مشلول أمام هذه القوة، وعيناه تلتقطان كل وميض في شعر يارا المتوهج كأنه خطوط من الحمم، وعيناها الزرقاوان تلمعان بوميض مخيف يخترق الظلام.

ثم تنفست، وقد خرجت قدمها من فم إيميليا، التي عادت فجأة إلى جسدها المعتاد، لكن أزيل بقي مذهولاً من مظهر يارا، جسدها المملوء بالتعاونيد، كأنه ختم، يلمع بوهج غامض يربط بين السماء والأرض، ويعلن عن سيادة قوة جديدة على هذه الصحراء المتعبة.

منذ اللحظة الأولى التي بدأت فيها يارا بالرقص في أرض الرماديين، ختمت إنسانيتها، وأصبحت السجية الغرائزية هي التي تحكم الموقف. لقد دنست الروابط، دمرت القيود، وأهلكت نصف شعب الزورا بهروبها، تاركة وراءها الخراب والفوضى.

ولكن، على الرغم من كل ذلك، لم تزل يارا تتنفس السعادة المجنونة، شعورها بالحرية تجاوز كل الألم، كل الذكريات، كل القيود التي حاولت كبحها. لم تعد تبحث عن الإنسانية، بل أصبحت مهمتها الوحيدة إنقاذ الشظايا التي خلفتها.

في تلك اللحظة، اندمج العالمين، العوالم التي كانت تعيش فيها الروح والجسد، وبدأ الخراب يتسرب في كل مكان، إلا أن قوة يارا، مدفوعة بالغضب والحماية، بدأت تروض الوحوش، واحدة تلو الأخرى. كانت تحركها الطاقة الخالصة، صرخة الصحراء كانت تعكس قوتها، وكل حركة من مخالها كانت ترسخ سيطرتها على الواقع نفسه.

أزيل، على الرغم من أنه مسلح فقط بفأس خشبي ضعيف، حاول مواجهة الوحوش، لكن سرعان ما أدرك عجزه، وعلم أن يارا وحدها هي التي تستطيع الحفاظ على التوازن بين الفوضى والقوة. وحتى جوارا، الذي حاول التدخل، وقع ضحية لهجتها وحضورها المهييب.

في لحظة حاسمة، جمدت يارا الوقت، توقف الجميع، باستثناء كون الذي اكتسب قدرة التأقلم مع هذه القوة الغامضة. التفتت إليه بنظرة عميقة، وقالت: "كون، ماذا فعلت بجوارا؟"

نظر كون إليها بحدة وقال: "أنت ملعونة، و بسبب غبائك قد تم لعننا جميعاً، أيتها الأنانية."

أجابت يارا بصوت هادئ لكنها حازم: "أسفة، لأنني خلقت بطلة لعالم مدمر سلفاً، والآن، لتخبرني عن أمر السماء."

غرس كون سيفه في الصحراء، وأخذ ينزع الرباط عن معصمه، وقال: "لقد لعنتنا معك. لقد عوقبنا لأننا تخطينا الحدود بسببك."

رأت يارا التعويذة التي تشبه تلك التي تملكها على جسدها، وعرفت أن ما حدث كان بداية مرحلة جديدة، مرحلة تتطلب إعادة ترتيب كل شيء.

وقال كون: "نحن مجبورون على إصلاح هذا الخراب خلال عام واحد، وإلا سيختفي كل شيء. ليس هناك فرصة أخرى، يا يارا، ليس هناك فرصة للهروب مرة أخرى."

يارا نظرت إلى السماء، التي امتصت اللون الغريب، بين الظلام الذي لم يكتمل والنور الذي لم ينجلي، ووجدت نفسها واقفة وسط قوة لا تقارن بأي شيء عرفته من قبل.

تواصل عتاب كون ليارا حوالي ساعة كاملة، كان العتاب يموج في الهواء كأمواج بحر هائج، ممزوجاً بالشوق والحزن الذي لم تستطع الكلمات وحدها حمله. كانت نبراته ترتجف أحياناً بين القسوة واللفظ، وبين الغضب والحنين. وفي لحظة صمت قصيرة، تنهدت يارا بعمق، ثم رفعت رأسها وأمعنت النظر في عينيه، عيناه اللتان كانتا كمرآة تعكس ماضيها وحاضرها ومخاوفها الكامنة. ابتسمت ببهجة طفولية، وكأنها حاولت أن تهزم ثقل اللحظة، وقالت:

- أبي، لقد إشتقت إليك كثيراً.

ارتسم الارتباك على وجه كون للحظة، كأن صدى الكلمات أصابه بلا توقع. نظر إليها بعينين تتقاذف بين الدهشة والحذر وقال:

- أنت فتاة شقية... أخبريني، أين رحلت بعد أن ابتلعتك العين؟

حدقت يارا بأزىل، المصدوم حرفياً من هالة يارا الجديدة، وزوجته المغى عليها
بجانمها. تسلل إلى زوجته برهبة، محاولاً فهم ما يحدث، لكن يارا لم تتراجع. انحنت
وجذبت ذراعها نحوها وقالت:

- آسفة لإقحامك في هذا الأمر يا أزيل.

ارتعشت شفتي أزيل، واحتدمت دهشته إلى حد أن عينيه اشتعلت بالدهشة بعد
صراخ ابنه الذي مزق الصمت. قال بصوت متردد:

- من أنت، ولماذا زوجتي هناك، وكيف...

أسكتته يارا بهدوء لكنها محملة بالثقل، وقالت وهي تنهد:

- أنا من هذا العالم، كنت معاقبة من قبل الحكام الكونيين، وقد احتجزت في جسد
زوجتك. لكن لا تقلق، هي بخير، وعما قريب سوف تعود إلى موطنك.

ثم شد أزيل يد يارا بقوة، وهو يحاول فهم الموقف، وقال:

- لكن كيف أن أسحب معك إلى هذا العالم؟

قبل أن تنطق يارا بالجواب، استيقظت زوجة أزيل بصوت متقطع، ملؤه الارتباك والقلق:

- أزيل، لماذا ابننا يبكي، وأنت...

اقتربت يارا منها بلطف، مسحت على عينيها لتغفو ثانية في نوم عميق، مثلما استسلم أزيل للدهشة وشحب وجهه من الصدمة. لم يعرف عالم الرماديين قط مثل هذه الحماسة، حيث يسود الجمود والبرود على كل شيء.

ثم نظرت يارا إلى جوارا، صديقها، وقد صعقته بضربة من البرق لم يشعر بالألم، بل كان الوخز كرمز استدعاء لذكرياته الغابرة. لم يلبث أن تذكر شيئاً، همس باسمه:

- يارا...

فرحت يارا، وابتسامة واسعة ارتسمت على وجهها وهي تعانقه بحرارة:

- صديقي الجميل.

ثم رمقت كون بنظرة ساخرة حادة، وقالت:

- هل تعمدت طمس هويتي عنه يا أبي؟

أجابها كون، بنبرة نصف مزحة ونصف جد:

- لو أنك كنت أكثر فطنة وذكاء فقط.

ابتسمت يارا بصرامة، وقالت:

- كفانا هراء يا أبي، أنا عدت لهذا السبب. وحسنأً، كما سمعتني سابقاً، كنت معاقبة لهروبي وقد نلت جزائي، والآن لتخبرني، من هذا الصعلوك الواقف هناك خلف الوحش؟

أدرك كون وجود غابرييل، وأجاب باهتمام:

- إنه ابن أخي الشرير.

قالت يارا بدهشة:

- ابنه؟؟؟

أجابها كون:

- نعم، لحسن حظه لا يعرف من أباه، وإلا لكنت قتلتة... وجدته عالقاً في أحد
فخاخي... المسكين حسبها طعاماً يؤكل.

ثم نادا غابرييل بصوت عالٍ:

- هيا، سنذهب!

أشار كون إلى يارا وقال:

- يجب أن ننقلهم إلى مكان آمن، لماذا لا تتركهم في الحجر؟

ردت يارا:

- لكنه بعيد...

قاطعتها عين كون بحدة:

- اخرسي، وامشي أيتها المتكاسلة. كنت تلهين في الأرجاء بغباء، والآن تقولين إن المكان بعيد!

أمر كون غابرييل بحمل الأشخاص على ظهر العنقاء الصغير، صغير العنقاء التي قاتلها كون وقتلها الرون. ارتفع المخلوق بجناحيه المغطاة بالجليد نحو السماء والتي لا تزال تثير مخاوف يارا. فجأة، ظهر ظل خفي من بين الكثبان، متجهاً صوب أزيل الفاقد للوعي. شعرت يارا بطاقة الشيطان، وقالت:

- بئس، قد تحرر هذا القبيح من الزمن!

قال كون، بعينين جامدتين:

- لقد تحرر منذ أن تداخل العالمان وتم الدمار.

أخرجت يارا الأسواط من يديها، محاولة إصابة الشيطان، لكنه كان سريع الحركة. برمشة عين استولى على أزيل وأنزله إلى الأرض، محدقاً بيارا بابتسامة واسعة، ثم مرر مخالفه الحادة على وجه أزيل، فتشوه بكامله.

خاف غابريال على البقية، فأمر العنقاء بالتحليق بسرعة. صرخت يارا بقوة، لكنها كتمت غضبها لأنها تعرف أن الشيطان يسعى لاستفزازها. قال بصوت خشن:

- مرحباً، يارا البديعة... هل اصطحبت من سجنك الغرباء إلى عالمنا أيتها المختارة؟

غرس ما تبقى من مخالفه في قلب كون الذي مات، ثم اقتلع عينيه ورماهما في الرمل، وبدأ يلحق الدماء المتصببة من وجهه، ممتصاً أرواح المارة.

ثبتت يارا في مكانها متماسكة، ثم أطلقت من الأرض أشواكاً من نار، غرستها في باطن قدم الشيطان الذي تأوه بصوت عميق، ثم اختفى داخل الأرض. أرادت يارا اللحاق به، لكن كون أوقفها قائلاً:

- هيا، أرجوك، ستجتمع الوحوش هنا قريباً.

ظل الجميع يركضون، وارتبطت في ذهن يارا صورة الدم والموت الذي لم يفارقها.
فجأة، حل الليل عليهم دون إنذار، وتعالّت أصوات الأرواح التي فقدت نجوم السماء،
كأنها صرخات حادة تمزق الصمت.

أطلقت يارا صفيراً حاداً من حنجرتها، فجأة انتقلوا جميعاً إلى الحجر الذي كان
يختبئ فيه كون وابنه وغابريال من هجوم الوحوش.

كان جسد يارا عارياً إلا من قميص كون الذي أعاره إليها. ظل جوارا يحدق فيها،
والأسئلة تغلي في رأسه، لكنه فضل السكوت. نظرت يارا إلى زوجة أزيل وابنه الممددين
على الحصير وقالت:

- هذا فقدان سيسبب لهما صدمة، لكن ما العمل؟ سوف تستمر الحياة... يجب أن
أعيدهما الآن.

أرادت الخروج، لكن كون منعها، ومع ذلك أصرت بإصرار شديد، فأمر غابريال
العنقاء بحراستها.

خرجت يارا، وشاهدت السماء تتلألأ بالنجوم، خاوية من أي تعابير، وأصوات الأرواح
التي تنحب غاضبة. وقفت، رفعت شعرها، وبدأت ترقص. كانت الرمال تغطي قدميها،

تتمايل كغصن الزيتون، حتى التفت حولها وميض سرى نحو الابن والأم، وقالت وهي تلهج:

- عودة إلى الورا دون عناء ودون شقاء، لتعود الأجساد إلى تراها، هيا أيها الكون، أعد القطع المبعثرة إلى طريقها، إلى السلام، إلى العافية، والطمأنينة.

ارتجت الأرض تحتها، وصراخ الأرواح اشتد حتى أصم الأذان. فجأة اختفى الشخصان، وسقطت يارا مغشى عليها. ظلّت العنقاء تداعب خصلات شعرها بينما هي نائمة.

حل الصباح فجأة على صوت ثناؤي غابريال، لكن الأمر كان غريباً، فهم ليسوا في الحجر، إنهم في الخارج. قالت يارا، مصدومة:

- كون؟

التفت إليها، وارتسمت علامات الدهشة على وجهه، وقال:

- يارا، أنظري... نحن كنا في الصحراء، فما بال هذه الأبنية؟

أحست يارا بالسمااء تجذبها إلى الأعلى، وما إن وصلوا إلى الأعلى، رأى غابريال شيئاً،
لكن رأسه ارتطم فجأة، فأغشى عليه.



?

تداعت الأبنية و سحقت الجماجم المشوهة تحت ضغط سماء الصحراء
كل ما هو موجود بدأ يطير و حتى يارا التي حاولت إعادة الثقل لم تستطع
هناك كيان خفي يحاول محاصرتهم عنوة بين السماء الحانقة و الأرض الضحلة
صرخ غبريال بأقصى طاقته و هو يوجه قوسه على هامة سريعة الخطى تتجه نحو
جوارا و لكنه أخطأ الهدف بسبب طوفانه في الهواء و تباطأ حركة قوسه الكبير
فصعق جوارا لأن يده السليمة قد تخدرت تماما أما يده الأخرى فلا يستطيع التعويل
عليها لأنها مبتورة لم يجد بدا فهرب متجها نحو يارا و غابرييل و لكن كون لم يكتف
بالمشاهدة فحسب فقد حاول بكل قوة التخلص من ثقل تلك القوة و بصعوبة
تحررت قدماه و نزل على الأرض التي تنبعث منها طاقة هوجاء تشبه البرق
ركض غير مبال بالألم نحو الهامة التي هي مزيج قبيح من المورون و الوحش العاقر

قالت يارا وهي تعض على شفتيها: ذلك الشيطان الوغد

و قال جوارا وهو مذعور: أبي توقف هذا الوحش أخطر مما قاتلناه قبلا

لكن كون لم يستمع و لم ينتبه بأن ذلك المزيج البشع يخلف خلفه ثقبوا سوداء
كبيرة... مهمتها إبتلاع الأحياء و تحويلها إلى شياطين

غبريال الذي صوب سهمه المكسور المتبقي بكل يأس على حقل الطاقة الذي كان
الوحيد الذي يراه...و قال و الدم يتصبب من رأسه الذي إرتطم إثر الرجفة المفزعة
من الأرض و السماء و لكنه قبل أن يطلق قال ليارا: أرجوك فعلها أرجوك أنت أملنا
الوحيد يا يارا الوحوش سوف تتكاثر و سوف نهلك

يارا لم تستطع الإستشعار ببصيص واحد من قوتها لقد إستنزفت

نظرت يارا إلى غبريال بشفقة و قالت: قوتي نفذت

صرخ غابريال صرخة إخترت أذان كون الذي إنتصب مذهولا أمام فم غائر بالسواد
و أنياب أشبه بالسيوف المدببة و قال غابريال: مستحيل يا يارا هذا مستحيل..أنت
فقط متعبة لا تتركي الفشل ينهشك..أنت قادرة...أنت الكون و الكون كله فيك لا
تدعني لخيبتك لا تنظري إلى الجروح فقط إنظري إلى الوجوه التي تحبك و التي ضحت
جاهدة و ببسالة قدمت أرواحها فداء لك لكي تزهرى لذلك إستشيطي غضبا و
إصرخي لتسمع الذرات النائمة خطواتك فأنت السيدة الوحيدة التي نستطيع بشرف
و فخر ان نموت لأجلها

قال غبريال هذه الكلمات الحامية ثم صوب سهمه نحو حقل الطاقة الذي يشدهم
فمزقه لكن ذلك لم يكن كافيا فسقط غابريال أرضا و لكن يارا مازالت تتخبطها
المشاعر و الكلمات الساخنة التي تحرق صدرها الملتاع

فصرخت كمن يستنجد شخصا ليصرفها و يوقظها من صدمتها قالت و هي تبكي:
سوف أنقذكم يا أصدقاء و لو كان هذا آخر ما أفعله لن يموت أحد سمعتم لن
يموت فقاتلوا يا شجعاني قاتلوا حتى ينهض الظلام مجددا قاتلوا
خلف هذا الصوت اهتزت العزيمة في قلوبهم الصلدة و شد كل واحد على سلاحه
غابريال بسرعه توارى عن الأنظار ليقفز عاليا فوق رأس الوحش الضخم محاولا
دس قوسه المسموم في عينه التي تنتشر في كل مكان لكن ذلك لم يفلح و لا حتى
طعنات كون القوية التي سددها داخله
كون و في خطوة جريئة قفز إلى داخل فم الوحش لكن سيفه الفضي قد أحاطه
بطاقة تحميه من لعاب الوحش السام و قال كون بقرف: هذه الرائحة كريهة
لكن فجأة إمتلأ الفم بأشواك حادة و بدأ الفم يطبق على جسد كون لكن فجأة ظهر
جوارا الذي أمسك أباه و إنتشله بسرعة خارجا
ظل كون يلهث و أنفاسه تتقطع لكن الوحش لم يمهلهم...
الثقوب السوداء تلاشت من خلفه لتظهر أمامهم... غابريال الذي رأى ما أفضع من
خلف الوحش أسراب من الشياطين المخيفة قادمة و قال وهو يتصبب عرقا من
الخوف: يا جماعة الرون في خطر محقق سوف سوف نموت هنا

يارا التي طوقت نفسها بذكريات حزينة

موت أمها الذي أنهكها و أباه المنتحرو و كل المغامرات المميتة التي أذابت إنسانيتها و
كل الفوضى العارمة التي أقحمت نفسها فيها و كل ذلك جعلها تجن للحظة فإهتز
حقل الطاقة فجأة ثم تفتت و تساقطت الحجارة من بينها ثم رفعت رأسها و عيونها

تلهب حقدا و قالت و الشيطان أمامها مباشرة: لن تحصل على ما تريده أيها الخبيث
و قال وهو يمسح على شعرها و ينظر إلى جسدها المكدود و إختلط صوته بصوت
إمرأة مألوفة.: إبنتي إبنتي

فإرتسمت على وجه يارا إبتسامة مفرغة ثم قالت: أعرف أنك إمتصت أُمي بعد أن
أخذني كون و في كل مرة و في كل حياة كنت تقف لي بالمرصاد حتى أفقد آخر قطرة
من صبري هل وصل بك الهذيان أن تتخيل أنني سأصبح شيطانة و تمتصني أيها
المغرور ثم إقتلعت أعينه بطريقة وحشية و رمتهما على الرمال الذهبية و بصقت على
وجهه الكريه و لكنه تمادى و غير من شكله ليظهر بجسد أزيل المشوه ثم دون إنذار
صفعت يارا وجه الشيطان الذي تغافل للحظة و شعر بسيف يخترق بطنه فإلتفت
فإذا بكون يغرس السيف بقوة من خلفه لكن الشيطان لم يبد أي ردة فعل ثم نظر
إلى يارا براحة و طعن كون في كتفه حتى تهاوى و سقط أرضا

كانت تلك الطعنة مسمومة و أيضا كافية لتحويله إلى شيطان

يارا و بكل غضب إندفعت نحو الشيطان و أسواط من برق قد إلتفت حوله ثم فجأة
رجع الشيطان إلى هالته الأصلية...إمرأة شعرها أبيض و نصف وجهها مشوه و
جسدها ممشوق

كون وهو يتصارع مع هذا الألم نظر بصعوبة إلى تلك المرأة فتذكرها إنها تلك التي رآها
في الصحراء في ذلك المكان لكن الألم بدأ يشتد على كون ثم تغيرت معالم وجهه و بدأ
يستفرغ دما و روحه خرجت فجأة و طفت حوله و كأن شيئا قد إحتل مكانها

صرخ كون صرخة إرتعب منها كل من جوارا و غبريال اللذان يقاقلان الوحش بإستماتة
فكلما قطعاً جزءا من جسده أعاد تجديده و كلما صنع غابريال سهما من ألسنة
نيرانه تجمدت بفعل الصقيع..و جوارا الذي إنتبه لأنين أبيه لكنه فجأة سقط في ثقب

أسود قد إبتلعه لكن جوارا أمسك بصخرة كانت موجودة هناك لكن يده اليسرى لم تساعده فحول طاقته إلى قدميه و أراد القفز و في آخر لحظة توجه إليه غبريال و أخرجه

كان صراخ كون يملأ الفضاء كأنه يتقطع و يتعذب من قبل شخص ما كون و الذي يحاول عدم الإنجراف مع روح الشيطان لكن طاقته كانت محدودة لذلك إشتد به الألم أما يارا التي بالكاد إستطاعت تمالك غضبها فوجهت طاقتها نحو الشيطان الذي إستقبلها بكل سعادة و قال بكل هدوء مستراب: يارا أنت مشاكسة و عنيدة مثل أسلافك و حتى و إن قتلتني فإن شعبي سوف يعمر هذه الأرض الجرباء سأكون سيدا مثلك يا سيدة الكون الصغيرة

أحرقت يارا جسد الشيطان فتحول إلى أشلاء سوداء و تطايرت منه أرواح مختلفة منها 100 خنزير و لا يشبهون حتى الخنازير و أرواح أطفال مقطوعي الرأس و نساء يحملن أرحامهن و امعائهن في أيديهم و كانت الذكرى الوحيدة التي خلفها هي صرخة ضئيلة لكنها مشبعة بالكراهية و مجموعة من الشياطين تزحف نحو حدود الرون..

الرون و بكل قوتهم أحاطوا شلال السيرون و صنعوا سورا بأجسادهم الضخمة لأن لديهم يقين إذا لمست الشياطين هذه المياه سوف يتغير العالم و يصبح ملكهم و سوف تتغير قوانين العالم و هم أيضا سيختفون و فهذا الشلال يبسط جذوره في كل ذرة موجوة في كل العالم و كل شخص ينتهي إلى هذا الشلال بطريقة أو أخرى لكن ما يأملونه أن تعود يارا التي واجهتهم آخر مرة بصرخة مخزية.. يأملون عودة سيدتهم التي سوف تحمي سبب وجودهم

يارا من الجانب الآخر نظرت إلى كون الذي يتلوى و يتلون بألوان غريبة و جسده بدأ في إتخاذ هيئة الشيطان

جلست يارا حذوه و أمرت غابرييل و جوارا أن يفصلوا هذا المكان بحاجز حتى
تستطيع تجميع طاقتها التي إستهلكت في القتال لكن جوارا و غابرييل كانت طاقتهم
قد نفذت لذلك أشرت عليهم بسيف كون الممد بجانبه و قالت لهم: فقط نادوا بإسم
أخي سوف يمنحكم قوة لجعل الأرض هاوية يجب أن أستعيد قوتي لشفائه هيا هيا

غابرييل أمسك السيف بكل حزم و تقدم خطوات بسيطة و فعل ما أمرته يارا لكن
الوحش أطلق موجة من الطاقة أصابتهم بالخمول فإرتعشت أقدامهم لكن غابرييل
ضرب الأرض بكل شهامة و صرخ بإسم أخي يارا. قال : يا أيتها الروح المقاتلة إقسمي
هذه الأرض

فإرتعدت الأرض من تحتهم ليظهر جرف عميق و في داخله حمم تغلي لكن الوحش ما
إن أحس بوهج الطاقة أطلق صوتا يشبه العواء و توقف ثم سبقته الشياطين
بجنون متجهين نحو الحاجز...

ويارا التي أخذت نفسا عميقا و إنتهت من إدخار قوتها ووضعت يدها على صدر كون و
قالت: لتهدي أيتها الروح لتهدي..إذهبي إلى جحيمك و إقصي بأسنانك الجمر و
إشعري بطعم الصدا الذي سينهي الخلود

إنبعث من جسد كون ذراع لهيكل عظمي مشوه تنهشه الديدان كانت تلك روح
الشیطان ذاته الذي ظنت يارا أنه إستسلم

تلك الذراع أمسكت بعنق كون و أخرجت صوتا يصم الآذان: الظلام يسود
الوديان و النور مهجة الغزلان

ثم أخرج رأسه الكريه و نظر إلى يارا التي لم تتحرك ساكنة و قالت له: أنت داهية
كبيرة حقا أظننت أنني لم أحسب هذا ثم ظهرت على عينيها تعويذة و تغير لونها إلى

لون الفضاء السحيق و قالت بصوت إمتزجت فيه أصوات السابقين و اللاحقين : أنا
الكون البعيد الذي يرسل اليمام إلى الأعشاش و أنا الضعف المهين الذي تتلذذه
الغربان و أنا روح جياشة تعشق السباق

أنا النور و الظلام أنا التي أنهيت العالم بدموع عابرة و برقصة غجرية مهاجرة أنا و
أنت مختلفان و أنا و أنت منصهران كصميم الواقع و الخيال
أنا الإنتكاسة و أنا الشاهد الوحيد على الفناء..جسدي آدمي و عقلي بستان من أزكى
الألوان

ثم إرتجفت الروح و إنسلخت من جسد كون و دخلت إلى فم يارا الذي إتسع إتساعا
غريبا و قبل أن تمتصها حشرت يدها في صدرها و أخرجت حجرة رمادية و قالت: أنت
تحب النهايات المشؤومة صحيح

ثم دعست رأسه بيدها و إمتصته ثم وقفت يارا و جمدت الزمن لكن الغريب أن
الوحش لم يتأثر نظرت يارا بحدة خانقة نحوه و قالت: هذا لن يحل سريعا ثم
إختفت فجأة فإستغرب غابرييل و جوارا اللذان ظل يراقبان سقوط الشياطين نحو
الجرف العميق و الوحش جالس بهدوء مخيف فاغرا فمه الذي تظهر منه مشاهد
لكوارث أخرى قادمة

يارا التي حلت على أرض المورون تبحث عن ذلك المورون الذي إلتقت به قبل هروبها
من هذا العالم لكن المكان مهجور ألا من لسع البرد..الأرض باردة برودا غريبا و
الحجارة ملطخة بلون زمردى كأنه دم لكنه مختلط بسواد بشع

أدركت فعلا أن المورون قد خاضوا معركة دامية مع أشياء خطيرة أودت بجل سكانهم
لم ترى أحدا في الجوار فنادت بأعلى صوتها نداء يشبه صافرة عودة كما التي أطلقتها
عند حلولها إلى هذا العالم ثم قالت: أيها المورون إظهروا أنا يارا هيا

أغمضت يارا عينها لعلها تستشعر طاقة ما لكن هناك شئ يتذبذب لكنه بالكاد يظهر... طاقة منهكة و فتحت عينها لترى حارسا من المورون واقف أمامها بطوله الرقيق و جسده مغطى بالندوب و ووشومه زادت على غير العادة و عيناه إحداهما غير موجود لكنها لمست قدمه النحيلة في مشهد حزين و إنحنى المورون نحو يارا و قال بصوت مهموم لكنه غريب: نحن ميتون أيتها المختارة لقد ماتت عزتنا و كرامتنا بعد رحيلك لذلك لا ترحلي و تتركي أرضك جائعة أرجوك

كان ينظر إليها بإنكسار

و عصفت في رأس يارا ذكريات حياتها الثانية ثم أبعدت سرب الذكريات و قالت بصوت عال: الشياطين سوف يستعمرون شلال السيرون يجب أن نردعهم يجب أن تتركوا هذه العزلة أرجوكم يجب أن نذهب إلى الشلال و نحميه

ثنى المورون ركبته ووضعه رأسه على الأرض و أطلق زفيرا مدويا إنتفضت من خلاله الأرض الجائرة و إنتشرت كذلك صرخات الآخرين من المورون لكن تحت الأرض رفع المورون عينه نحو يارا: لقد أكلت الوحوش نصفنا و دمرت أعشاشنا و السبيل الوحيد لتكاثر نسلنا لقد أخذوا كل الفقاعات المائة و ابتلعوها و أخذوا سيدتنا الوحيدة لقد إنتهينا منذ أن رحلت و نزلت دمعة لونها كلون الليمون الحامض على الأرض الباردة فتصدعت و أخرجت وردة سوداء

مسحت يارا عيون المورون التي إنكسرت مكانتهم بسببها و بكت لبكائه و أرسلت من خلال الحجر الرمادي وميضاً أسود أخرجت به كل المورون الذين إصطفوا بأجسادهم البيضاء و عيونهم الحزينة أمامها كجيش يتيم و قالت وهي تبكي: أنا آسفة آسفة آسفة و ربما إعتذاري لن يعيد حياتكم و لا هذا العالم و لا حتى أي شئ لقد عشت معكم و أعرف أنكم طيبون لكن أرجوكم ساعدوني..منذ أن هربت من مصيري و الكوارث تلاحقني لذلك لا تتركوني وحدي هذا العالم سيذهب و كل ذكرياتي

فأنتم أهلي و دمي و لحمي و عظمي لذلك لذلك لذلك أرجوكم إذهبوا معي الجميع
سيحارب لأجل التوازن و أنا هي التوازن لكن بدونكم لن أغدوا أي شئ

تقدم الحارس بثقل و حمل يارا بين ذراعيه و قال بنبرة تعيسة و حكيمة: سوف
نساعدك أيتها المختارة لذلك لا تحزني لقد عشنا طويلا مع أسلافك من البشر
القدامى لذلك نحن نفهم ما تمرين به

و نظر إلى الجميع بعينين لامعتين و قال: لتتفرقوا نحو الرون و إحملوا الصقيع
معكم هيا

فرحت يارا لإبتسامة المورون الذي أنزلها و تفرق جمع المورون ليتخذ كل واحد طريقا
إلى الحدود

ويارا التي لحقت بهم بكل عزم

و في الجانب الآخر كون إستيقظ و عظامه تؤلمه لكن ذلك لم يمنعه من إستشعار
الصدمات التي تسري تحته فنظر إلى جانبه ليرى ابنه و غابريال أمام الحاجز و قد
تصدع لهجوم الشياطين

لم يكن بإستطاعتهم المضي دون أن يستيقظ و لأن قواهما قد خارت بالفعل لم
يتمكنوا من حمله كل هذه المسافة فمكث يراقبان الشياطين و قد بنت بينها و بين
الجرف جسرا بأجسادها و تمكنت من الوصول إلى الحاجز الذي بدأ يعزز صدمات
متتالية لمنع التجاوز

و كان أخو يارا قد جمع كل أرواح الصحراء معه و بصورة مدهشة كانت أم يارا بينهم
تتقدمهم و لكن عندما علمت بإستيقاظ كون قالت بصوت خافت وهي أمام الحاجز:
كون يارا متجهة مع المورون إلى شلال السيرون إنهمضوا إلى هناك نحن سنتكفل
بإيقافهم حتى تصلوا

و دبت اليقظة في أعصاب كون و نهض و أمر ابنه و غابريال باللاحاق به لكن فجأة
رأى كون شخصا مألوفاً تفادى الصفوف الشيطانية بكل برود يمشي بكل آنفة و
عندما دقق النظر قال بنبرة ساخرة: أخي الملعون

?

أمسك كون بيد غابريال بقوة، وعيناه تتقدان بالغضب، كأن نارا داخلهما تكاد
تشتعل. قال بحدة: "إسبقي أنت، وجوارا سوف ألحق بكما".
رد غابريال بصوت متوتر وملئ بالقلق: "هذا خطير يا كون، كما تعرف الحاجز سوف
يتداعى عما قريب".

صفع كون غابريال على خده بضربة قوية ارتجت معها ملامحه، وقال بغضب يشبه
انفجار البركان: "هل أنا من النوع الذي يرضى بالموت؟ نهاية! هيا، إركبا الطائر
وانصرفا، ولا تنسى معالجة جروح جوارا، يجب أن تتبعا أثر يارا وتساعداها!"

انصرف جوارا وغابريال على ظهر العنقاء التي بسطت جناحيها العريضين كشراع
متموج يلمع تحت ضوء الشمس الحار، تاركين خلفهما غبار الصحراء الملتف
كالغيوم.

نظر كون بسخط نحو أخيه الذي تحاشى كل الشياطين، وتقدم بخطوات ثقيلة ومليئة بالقذارة، وقال مستهجنًا: "بئسًا لهذا الأرعن الأخرق".

مد ويل يده عبر الحاجز بسهولة، وكأن الجدار لم يكن سوى هواء، ثم أمسك بشعر كون وأسقطه على ركبتيه. كان الاحتكاك الذي أصدرته أسنان ويل قويًا ومكثفًا، كأنه بركان على وشك الانفجار. قال ويل بصوتٍ مزيج بين التهديد والتحدي: "أخي الشجاع... لقد حذرتك سابقًا من عدم التدخل في ما لا يعنيك، أين هو ابني أيها الجبان؟"

قاوم كون قبضته المتشبثة بشعره، ووقف مصوبًا نظراته الحزينة المملوءة بالنكران، قائلاً: "لا أعلم، وإن كنت أعرف لأخذت روحه، كما سأفعل الآن بك، أيها الخائن..."

استل كون خنجره، مصوبًا إياه نحو حنجرة أخيه، الذي تجمدت تعابيره وتحولت إلى تعابير بومة صامتة. كان كون يرى بوضوح هالة أخيه القذرة، السوداء والشرسة كالليل المظلم، لكن لم يهتم كون بقوة أخيه، فهو يعلم أنها مستوحاة من الشيطان ذاته.

رفع كون قدمه، وركل ويل في بطنه مباشرة، لكن سرعان ما تحول وجهه إلى لون الدخان الضبابي، وذرف من عيونه سائل يشبه الياقوت.

ضحك ويل ضحكة شديدة، أشعت الشر في عينيه، وقال: "أنا سأحكم العالم يا أخي، سأكون سيدكم، شئتم أم أبيتم".

ثم في سرعة خاطفة، رفع ويل يده، ومن خلالها انبثق انفجار اخترق السماء المتعكرة، متمازجًا بألوان شيطانية قاتلة. هرع كون بكل قوته إلى الأمام، وهو يئن لنفسه: "بئسا... لقد أطلق تلك القوة الكامنة بسببي، ستدمر الصحراء على هذا النحو".

فجأة، ظهر شخص أمامه. شهق كون: "ماذا تفعلين هنا؟"

كانت تاتا، رافقتها مجموعة من قوم زورا، تجسدوا كأبطال قادمون لمواجهة الخطر الداهم على الصحراء.

لكن كون صرخ عليهم، موجهاً أوامره بسرعة: "اتجهوا نحو حدود الرون، أخي سوف يستدعي الوحوش العاقرة وسيدمر الحاجز، هيا!"

أطلقت تاتا عصاها الطويلة وتقدمت بخطوات عرجاء لكنها واثقة نحو كون، وقالت: "سأبقى لأتمكن من نقلكم إلى الحدود".

تغيرت تعابير كون، لكنه أدرك أن هذا السبيل الوحيد للنجاة.

تشابكت أيدي شعب الزورا جميعاً، وشفقت تاتا بأيديها، ووجهت كلامها نحو ويل:
"من خان حليبه وأمه وعرضه وفخره اندثرت مكانته، وقلت حكمته... أيها الشرير
الصغير الذي يبحث عن القوة، أقول لك لن تحصل عليها".

ظهر وشم على جبهتها، وأطلقت نداءً يشبه زقزقة العصافير في صباح منعش، وفجأة
اختفى الجمع من وراءها، تاركين قطرات المياه تتساقط على رؤوس الشياطين، التي
بدأ سوادها ينبت زهوراً سوداء.

قالت تاتا بصوت حازم: "كل ألم يخلف سواداً، وكل عظمة تخلف دماراً، وكل طمع
يخلف فراغاً. ويل، أنت محكوم عليك بالفناء، ستموت جراء طمعك وغبائك".

انحنى تاتا برشاقة، تناولت عصاها التي تحولت إلى تنين مهيب، واندفع نحو وميض
ويل في السماء، محيطاً به بدوامة نارية، وقالت: "لأنك بجلت القوة على الأرض،
ستموت جائراً، منعزلاً عن أرضك، حتى التراب سينفر منك".

لكن ويل لم يستسلم، صوته يعوي بالغضب: "كنت ميتاً في بحوركم، لماذا أهتم بما
سيحصل عاجلاً أو آجلاً؟ سوف يغيث النور عليكم يا أيها الشعب الذي نسي قوته
وانصرف إلى العيش بمهانة".

همهمت تاتا بكلمات مشتتة لكنها محملة بالقوة، ثم اهتز التنين فجأة وامتص كل القوة الداكنة من السماء، وأطلقها على ويل دفعة واحدة، الذي صدها بسهولة ثم قذفها نحو تاتا على شكل كرة مستعرة، لكنها أوقفها بعصاها الوطيدة.

إرتجت الرمال بشدة، واندفعت زمجرات من تحت الأرض، مع انبثاق رؤوس الوحوش العاقرة، فتخللت تعاير تاتا صدمة عميقة، وقالت: "أيها النكرة، هل فتحت بابًا من أبواب الجحيم؟"

سمعت فوراً قوياً، واشتبكت أنياب الوحوش بالهبوب الأزرق، وركضت بجنون نحو تاتا، لكنها فتحت عينيها، وتحدثت بصوت هش رقيق: "لو تزاحم النور على الظلام، لن يوقف ذلك التوازن، ولو كانت غايتكم محو الظلام لإشعال الخوف في عظام الضعفاء، فهذا لن يحصل".

نهضت عاصفة رعديّة قوية، أطاحت بالوحوش وأبعدتها خلفاً، ونظرت تاتا بعينين صارمتين إلى ألعاب ويل المتساقط مثل الحنظل المر، وقالت: "سوف أمنعكم قدر استطاعتي، لكن أرجوك يا يارا، يجب أن تجدي نبعك وتصرفيه بقوة".

على الجانب الآخر، وصلت يارا والمورون إلى الحدود، تجمعوا في صف واحد، محاصرين الحدود بأجسادهم الضخمة كجدار صلب، ثم تقدم الحارس، وضرب صدره ضربة قوية، واستلم من يارا الحجر الرمادي وابتلعه دفعة واحدة.

تفاجأت يارا، لكن همسات الرن بدأت تصدح نحو السماء، وارتجت الأرض الجافة تحت أقدامهم الضخمة.

برز من خلف الأوراق الزرقاء رن ضخم شاهق، عيناه تطبعان البؤس في النفس المتألمة. تقدمت يارا بكل حزم، لكن الحارس منعها، وقال لها: "نحن ضيوف نادرون، لذلك نود الترحيب بكم بلباقة".

رفع المورون يده الطويلة، قطف ثمرة بيضاء من الشجرة الكثيفة، وصب عصيرها على رأسه بهرود، في حين مسح الرن على رأس الحارس بعناية، تاركًا على العصير لونًا فضيًا خلابًا.

تهند المورون، وألقت إلى المورون الآخرين، وقال: "لتتبعوا خطواتي، فربما نتوه".

ثم وجه الرن إصبعه نحو يارا، وقال لها: "أنت سوف ترافقيني".

لم تفهم يارا، وبدأت علامات الغرابة على وجهها، ثم ركزت بصرها على المورون، ولكن داهمها الرن بكلمات مسترسلة: "هم سوف يحمون الحدود، وأنت سوف ترافقيني إلى الشلال".

نظر المورون إليها، وقال: "سوف يريك شيئًا على الأغلب... ولا تقلقي، نحن سوف نحميك حتى آخر رمق".



حمل الرون يارا على ذراعه، متجاوزًا بها أنهارًا وأودية، مياهها تتلألأ كالذهب الخالص تحت أشعة الشمس، وتراها المصبوغ بلون فاحم يسر القلوب ويبعث شعورًا بالدهشة والهيبة. أسرت يارا في نفسها هذه الدهشة، شعرت بخفقان قلبيها مع كل خطوة، وكأن كل نهر وكل تلة تمر بها تهمس لها بأسرار الأرض.

استمرت خطوات الرون تتصاعد وتتصاعد عاليًا، والهواء يلفح وجه يارا الأبيض البارد، يلامس بشرتها كما لو كان نسيماً من عالم آخر، ينعش كل خلية في جسدها، يجعل شعرها يرفرف مع الريح ويجعل قلبيها ينبض بسرعة. شعرت بانتعاش غريب، مزيج من الخوف والفرح، حتى نزلت على الأرض بسرعة خاطفة، تتوقف للحظة تتأمل المكان، لكنها لم تفهم ما حدث، ثم انفجرت ضحكة بالغة، صافية ومرحة، عندما رأت كون وغابريال وجوارا مستلقين على فراش يشبه جلد ثور، فوقهم أوراق بنفسجية كبيرة تظللهم، والأضواء تتسلل بين الأغصان، ليخلقوا مشهداً شبيهاً بواحة مترامية الأطراف، تتخللها نفحات من عبق الزهور والأرض الرطبة.

صرخت يارا بأعلى صوته، صوتها قوي ومملوء بالفرح، حتى فزع كون الذي استدار بسرعة، وقال بدهشة: "يارا لقد وصلت بالفعل!"

ألقى برأسه المجروح على جلد الثور، وأغمض عينيه لحظة، بينما همست يارا بصوت نعيان وهادئ: "لقد سبقناك، وبالكاد استطعنا رفع إصبع واحد... سامحيني يا يارا، إن الخطر على وشك الإفلات من الحاجز".

نظرت إليه يارا بحنان، واحتضنته برفق، ثم سللت نظراتها إلى جوارا المتخن بالجروح، تلمست أثر الألم على وجهه وعلى جسده، ثم التفتت إلى غابريال، الذي ظل يمسد جناح طائرته بمحبة واهتمام، وقالت بصوتها الممزوج بالفضول والقلق: "ماذا حصل لكم، لماذا حالتكم مزرية إلى هذا الحد؟"

تمهد غابريال بعمق، وعيناه تتأملان الأرض وكأنهما تبحثان عن لحظة السلام، وهو يناشد أحد الزوارا قائلاً: "امم... لقد افترقنا عن كون، لكن ما إن توارينا في السماء حتى ذعرت العنقاء وهاجت، فلم أستطع كبح جماحها. لكن جوارا خاطر بحياته، ووجهه مندفع نحو الحدود، لكن في آخر لحظة ظلت العنقاء تطير. لكن سقوطنا كان فظيئاً، وقد تأثر جوارا كثيراً".

ثم أضاف بابتسامة متعبة، لكن مليئة بالراحة الجزئية: "الأمر الجيد أن الرون استقبلونا بحفاوة، لكنهم ألحوا بالسؤال عنك، وقالوا أنك يجب عليك تسلق ذلك الجبل المغطى بالنقوش، إنه هناك ستريه إن تسلقت هذه الشجرة".

كل هذه الكلمات رافقها شعور بالرهبة والدهشة، يملأ المكان وكأن كل تفاصيل
الواحة - من الأرض المصبوغة، أوراق الأشجار، ضوء الشمس المتسلل، وحتى الهواء
الذي يلفح وجوههم - تضيف طبقة من السحر والرهبة على المشهد، وتزيد إحساس
يارا بالاندماج مع الأرض والسماء معًا، وكأنها جزء من قصة أكبر من أي شيء عرفت
من قبل.



?

بعد أن انتشلتها الأشجار الباسقة، وألقت بأذرعها حول جسدها النحيل وكأنها
تقدمها قربانًا لذلك الشلال المترف بالمآسي، حيث كل من يدخل إليه لا يخرج أبدًا،
بدا المشهد كأنه يخبر له القلوب، وتترشفه الألسن المتعلقة ببراءة المجرات. وفي تلك
اللحظة، اقتربت يارا من الجبل المسكون بالنقوش الغريبة، ونزعت حذاءها الذي
أهداه إياها غابريال، ثم نظرت إلى الباب الكبير بعمق ولمسته بأناملها الرقيقة،

وقالت، والدموع تنهر دون توقف: "لم تبارح حلمي ولا عقلي، ولا هواجسي، ولا هلمي، ولا عندما هربت... لقد هربت إلى أعماقك، تلك المياه التي غسلت أمنيائي، أنت كنت سببها."

وتقدمت بعض الخطوات القصيرة، إلا أنه من داخل الجبل صدرت روائح كريهة... تشبه رائحة دم مختلط بمادة ما. لكن تلك الرائحة لم تكن تصدر من الجبل، بل من خلفها، حيث اندفعت عدة روائح نحو أنفها، غير أن شيئاً ما جذبها إلى داخل الجبل. كلما اقتربت من الظلام، أحست أطرافها ترتجف من الخوف والاشتياق، لكن تلك الرائحة قد خدرت أنفها أكثر فأكثر.

فتهادى صوت باهت من وراء صخور كريستالية لماعة، وقد إنساب على تلك النعومة الجميلة أشلاء لحوم بشرية، فقالت يارا: "هذا ليس الشلال... أين أنا؟" لكن الرائحة بدأت في التزايد، فالتفتت يارا بغتة لتسمع صدى ذلك الصوت يهس بإستفزاز مشين، وقال: "ستبكين مثل الجميع، وستنقبين عن الحجر الأسود في أسفل الجحيم، وسوف تغرقين في ملذات الجميع... أظننت أن الشلال يرحم من يفديه بإرادته... إنه يستهلك كل جزء فيك حتى ينفر منك العالم، وتموتين ميتة مهينة خلف تلك الصخور."

لم تحتمل يارا تلك الرائحة القوية المتجهة نحوها، كأنها تقوضها بأبشع الطرق، ولكن في الوقت ذاته كانت الرائحة تأتي من مكان بعيد قد رأيته أمامها. ذلك المخلوق قد

صنع من الطين أنية ووضع فيها كل الأشياء، وقدمها إلى يارا، وقال لها: "أنت ستشاهدين نتيجة هروبك فحسب... الشلال سوف يصب جام غضبه عليك..."

لم تتحمل يارا وزر هذه الكلمات، وصرخت وهي تملأ المكان الفارغ: "من أنت؟ أخبرني!" فقال، وصوته يتمايل مثل الأفعى: "أنا أبشع وحوشك. ألا تظنين أن هذا الطمع الشديد للقوة قد أفقد كل من يبحث عنها أصالته؟ حسناً، لتنظري إلى هنا..."

ثم فتح يديه لترى يارا مشهد الشياطين وهي تضرب الأرض بجنونها، إنها تقترب من المورون بسرعة خيالية، وذلك الوحش متسمر مثل تمثال منحوت من الثلج، ينتظر بصبر سقوط المورون لكي يغمر المكان بشره، لكن في اللحظة التالية هفتت يارا بسرعة، وقالت: "أهذا أخ كون؟ لماذا هو هكذا؟"

نظر إليها الوحش للحظة، ثم تغيرت نبرة صوته: "لقد تشوه النور فأصبح عذاباً، والظلام الذي كنا نبتغيه ونتلهف إليه قد ذبل وذاب بين الأمواج... والآن، ماذا يا يارا؟ ألم تدركي أنك أنت الشريرة الوحيدة في هذا المكان؟"

ثم أضاء المكان بنور ساطع قد أحرق عينا يارا، لكنها فتحت فمها لتهم بالحديث، إلا أنها صمتت وشاهدت سرّباً من اليمام يطير فوق تمثال تحفه الأصداف من كل جانب، وعيناه ترسلان حزناً دفيناً، وقلبه يومض بشكل مرعب.

لكن الرائحة الكريهة ازدادت شيئاً فشيئاً، حتى شعرت يارا بالدوار بسببها، وقبل أن تسقط أرضاً قال لها الوحش: "هذا من أديم أفعالك، وهذه الرائحة هي رائحة البشر الذين يتخذون من الهوان سبباً للهروب مثلك أيها المختارة."

ثم استيقظت يارا، وكلمات ذلك الوحش تنبض داخلها، وكان يشبه شخصاً تعرفه، لكنها لم تهتم، لأن الماء بدأ يسحبها إلى الأسفل شيئاً فشيئاً، يسحب جسدها الذي اختفت منه التعاويذ. لكن فجأة شعرت يارا بأن المياه تصدر دوامات غريبة، ولم تستطع رفع جسدها إلى الأعلى، فغرقت، وطعم السواد الذي شعرت به في دمها كان مخيفاً.

وصلت يارا إلى قاع المياه، لكنها لم تكن مياهاً عادية، بل تشبه كثيراً مجرات متباعدة وممزقة، تكتسي لوناً رمادياً في الوسط، وتحت قدميها لون أبيض خلاب، وبجانبه لون أسود داكن، لكن ما راعى انتباهها كانت يديها التي تحجرت للحظة، ثم تحطم الحجر لتظهر حراشف من زئبق انعكست عليها صورة وجهها، ثم تقدمت خطوات قليلة.

لكن قلبها بدأ في التسارع بجنون، وشعرها الأحمر بدأ في الذوبان مع أنفاسها الساخنة، ليتحول إلى لون فضي جميل، وعيونها اتخذت لوناً أزرق سماوياً. ثم عرجت بجانبها سحابة تحمل وحشاً، لكنه بملامح رجولية، وجسده متوسط الحجم، لكن أنيابه العاجية على وشك لمس جبهته المنقوشة بوشوم ذهبية، وشعره الفاحم ينسدل بنعومة على أكتافه الكبيرة، وعيناه الرماديتان تبعثان الطمأنينة خادعة. وعلى يمين يارا، اتكأت فتاة ناصعة البياض مثل اللؤلؤ المتناثر على السماء، على

سحاب مزوق برسوم لأكوان ونجوم وسيوف نادرة، وكان شعرها مثل حليب مصفى
تخلله ألوان مخملية جميلة، وعيناها تكتنزان لوناً فضياً مثل ذلك الوحش الذي
بجانمها.

دأبت الفتاة يد يارا بلطف، لكن الوحش ظل يحدق بعينه اللاذعتين، ثم قال
بصوت خشن: "هل استقبلك ذلك الوحش المريع؟ لقد قلت له أن لا يخيفك، ياله
من شقي..."

فقالت يارا: "ماذا، وحش؟"

قالت الفتاة: "لا تقل مثل هذا الكلام عنه أيها المشاكس." ثم التفتت ليارا لتكمل
حديثها، وقالت: "مم... زيون هو حارس الشلال، أحياناً يرعب من يأتي إلى الشلال
فقط لإثارة الضجة لا غير."

فقاطعها الآخر، وهو يسعل عن قصد لإسكاتهما، ثم أطلق نظراته الغريبة نحو يارا: "لا
ضير من قليل من الرعب لأجل إخضاع هذه الفتاة المتمردة."

نهزته الفتاة بلطف، وقالت ليارا: "لا تنصتي إليه، إنه غاضب منك لأنك هربت سابقاً،
لقد كلف نفسه عناء تخليصك من العقاب وإرجاعك، لذلك هو يتحدث بمثل هذه
الطريقة، لكن لا تخافي، الأمر على خير ما يرام... لقد انتظرناك طويلاً، ملكة الكون."

ثم أحنّت رأسها تجليلاً، ليأرا، ولم تفهم يارا شيئاً وقد التهم السكوت لسانها، ثم قالت وهي تنّ بسبب ثقل الزئبق على يديها، فأشارت عليهما محاولة فهم ما يحصل: "عذراً، لكن يدي... لماذا هي بهذا الوضع؟"

قال الوحش بنبرة ساخرة: "تستحقين ذلك."

فلكمته الفتاة بعناية على كتفه، ثم لمست يدي يارا فتبخر الزئبق، وتطاير في الفضاء كأنه فقاعات من الماء. نظرت يارا إلى قدميها المستفحلتين في ماء تملأه ورود حمراء قانية، ثم أمعنت قليلاً النظر لتجد شخصاً تحتها واقفاً بشموخ مثل الأبطال.

كانت الأرضية تشبه المرايا النقية من الشوائب، لذلك كان من السهل على يارا أن ترى ذلك الجسم الخامل في مكانه، وهناك على جانبه ثلاث ورود سوداء.

فقاطع الوحش ذهولها بسؤال: "هل أنت مستعدة للنزول أم لا؟"

تفاجئت الفتاة لجرأة السؤال، وقرصته بعنف على يديه، فتألم بشدة، وقال: "لا تفعلني هذا، فأنت تهينيني أمامها."

فترامت أعين يارا على عيني الوحش، وقالت: "من أنت؟"

فقال: "أنا الظلام. أيتها الغبية ماذا ألا ترين وقاري و جمالي أم عقلك منشغل بكيفية الهرب"

وردت الفتاة من بعده: "أنا النور... وأنت سيدتنا الجميلة." ثم ضربت الفتاة رأس الوحش بقوة، حتى كاد أن يسقط، وقالت: "آسفة لوقاحة كارول، إنه مغتاظ فحسب."

فقالت يارا بعفوية: "من ماذا؟"

قال: "لقد كنت أختفي دون سبب واضح كل أسبوع، والآن..."

اختفى كارول فجأة عن الأنظار، لكنه رجع وقال، والحنق يتطاير من عينيه: "لا أستطيع التصديق أن هؤلاء الحثالة يريدون طمس وجودي."

ضحكت الفتاة ضحكة حزينة، وقالت: "أنا إسمي... وآسفة حقًا على كلامه الجارح مرة أخرى... حسنًا، سأخبرك بأمر... هذا المكان هو نقطة الصفر، وهو مصدر كل شيء في هذا العالم... وأنا أمثل هبة النور التي صمدت منذ بزوغ هذا العالم، لكن هناك من عانوا بسببي، لذلك تواصلت مع البشر، أسلافك، لكن قلة منهم وافقوا على وهب قلوبهم الصافية لجعل كارول يأتي إلى هذا العالم، فهو يمثل هبة الظلام، وأيضًا الراعي الوحيد للنجوم والأرواح، وصحراء النجوم كانت دائمًا تحت عنايته.

لكن عندما دخل ويل إلى هذا المكان في المرة الأولى، استخدم سحر الشيطان حتى يدمر أحد البشر، لكن نحن لا نستطيع ردع من يستعملون السحر، وقفنا نشاهد بآلم. هذا المكان كان معزلاً بحراس آخرين، لذلك كان ويل أحد الحراس الذين يتداولون مرارًا وتكرارًا، والرون هم من يختارون كل عام حارسًا. وكلما يأتي ويل إلى هنا، يدمر شيئًا ويذهب، لذلك عندما ولدت أنت، كان حلمه تحقيق هدفه من خلالك، وهو الاستحواذ على النور والظلام لخلق عالم يخصه فقط.

إن السحر شيء محرم، ولا نستطيع التدخل عندما تحدث أضرار بسببه،

... و عند هروبك من هنا وجد سبيله إلينا، لكن الحارس منعه كما لم يمنعه الحراس الآخرون، فالحراس دائمًا ما يستلطفون من يأتي إلى هنا، وخاصة الرون الذين يقومون قلوب أحبائهم لتنمو الطاقة الكفيلة بإبقاء كارول. لكن هذا الحارس منعه بكل ما استطاع، ومع ذلك إثر الهجوم تسربت إحدى طلقاته نحو جسد البشري، فخدشه، وكان ذلك الخدش سببًا في تهاوي كارول واختفائه وزعزعة التوازن. لذلك حدث ما حدث، وعندما سمعنا بعقابك، استخدم كارول كل طاقته لكي يصل إلى الحكام الكونيين، لكن جرمك كان فادحًا، لذلك لم يستطع منع إرسالك إلى الرماديين. والآن أنت معنا لثمنني ويل من تدمير آخر قطرة أمل، وربما تكونين أنت الأمل يا يارا.

يارا، التي شرحت كلمات الفتاة صدرها وأثلجته، شعرت أخيرًا بأنها بدأت تفهم سبب تلقيها بـ"التوازن"، ولماذا العالم يدور حولها. ثم سألت الفتاة بدهشة وارتباك: "إذن، أنا لا أتوهم صحيح.. قوتي لم تدمركم؟"

أجاب الوحش بنبرة ساخطة: "لقد دمرتني أنا، ألم يكفِ هذا؟"

صرخت الفتاة في وجه كارول، وقالت ليارا: "هو غاضب منك لهذا السبب، لأنك فضلت أسبابك الشخصية على وظيفتك الأساسية في الحياة."

شعرت يارا بفداحة ما يشعر به ذلك الوحش، فاقتربت منه محاولة الاعتذار، لكنه أمسك يدها بقوة وسحبها إلى الحسابة الجالس عليها، وقال بصوت صارم: "أنت غبية يا يارا، وأظن أنني عرفت السبب، لكن أريد أن أريك شيئًا قبل هذا."

وبينما كانت يارا تلتقط أنفاسها، لاحظت أن المكان حولها أصبح أكثر إشراقًا، مع لمعات خافتة تتسلل بين الظلال، وكأن كل شيء يتحرك بحذر في انتظار ما سيحدث بعد لحظات. وقد بدأ قلبها ينبض بسرعة، شعورها بالرهبة والفضول متشابكين معًا، فيما كانت أصوات المياه تتدفق من بعيد، ممزوجة بصدى غير مألوف، وكأنها تحذرها من المستقبل الذي ينتظرها.



الجزء الثاني

من هناك...

أنا، يارا، استيقظي... المكان سيهدم، يارا!

. من المنادي؟

. أنا الكون ذاته... لتسمعي هتافي أيتها الأبية. لقد اخترتك لتحملني وصيتي للبشر،

وللجماد، وللأرواح... بل لكل من تدب فيه الحياة.

كشفت يارا عن عينيها ببطء، كأن أبوابًا من الصدا قد أُطبقت على مصراعيها، فتلاّأت حدقتهاها برذاذ ذهبي انتشر فوق قرنيتهما، كأنها تحمل في عينيها بقايا نجوم ذائبة. حركت شفتيها بصعوبة، وكأنها تسترد أنفاسها الأخيرة قبل أن تلفظ كلامها، وقالت بصوت واهن:

.أنا أشعر بالهوان أيها الكون... أشعر بأن قيامتي ستزول، وسأدفن حيّة بين تلك
النجوم المتزاحمة. لماذا اخترتني؟ لماذا عذبتني من بين الكثيرين الذين يفوقوني حياة؟
أنا معدومة من كل حياة... أنا فقط أسير لأن العالم أمرني أن أسير، وإن كان ذلك
يعني مماتي فلن يهتم أحد. حتى هروبي خلف مجازر محقت انتعاشي البسيط،
وهدمت مشاعري، وكل ما أردت خوضه تبدّد وابتعد، كأنه محكوم على هذا الجسد
المضني أن يكون البلاء ذاته...

ثم بكت يارا بحرقة، وانحدرت دموعها الساخنة لتذوب فوق سطح المياه الراكدة التي
تحيط بها، فتموجت الأمواج كأنها تشاركها أنينها.

كانت قد فقدت وعيها، عندما اهتز الفضاء بصوت ارتجاج مدوّ قادم من خارج
الشلال. وفجأة تحطمت الأرضية البلورية تحت جسدها، فسقطت بعنف وارتطمت
بالوردة السوداء.

ذلك الاصطدام فجّر الذرات العالقة في حيز الزمن، فانطلقت من يارا نداءات غير
واعية، هزّت الفضاء حتى وصل صداها إلى المورون والوحوش.

حينها تجمّد ويل في مكانه، ثم تكفهر ملامحه بلون الغضب وقال:

.بئسًا... ما مدى شدة بأس هذه الفتاة؟

ثم أمر الوحش العملاق أن يقفز عاليًا متمسكًا بأغصان الأشجار، لكن المورون
حالوا دون تقدمه، وأبطؤوا اندفاعه بكل ما أوتوا من قوة. وفي الجانب الآخر، كان
شعب الزورا مع كون قد تسلحوا بكل ما أتيح لهم، واستعدوا للقتال. أما الرون
فوقف شامخًا أمام الجبل، ملتفًا حوله كنسيج متين، والحارس بجانبه.

كارول، وقد أراد الاطمئنان على يارا، تراجع بخطوات ثقيلة، إذ إن الموجات التي
تنبعث منها تنخر في لحمه الأسود كالسّم. عندها قالت ملكة لوسيا بصوت يرتجف
إدراكًا منها أن يارا في موقف لا يُحسد عليه:

. أرجوك... قاومي! قاومي يا عزيزتي... قاومي!

بصدى تلك الصرخة شقّ صوت الملكة الأرجاء. كانت يارا ما تزال تتجادل مع الكون
بفتور، متناسية أنها تطوف حول نافورة تتدفق منها روائح عبقة، حتى توقفت فجأة
وقالت وهي تستنشق بعمق:

. النرجس... إنه النرجس!

لكن الصوت ذاته أعادها من هذيانها، وسحبها إلى نفق يتشابك فيه البرق والرعد،
مولدًا موجات تسحق كل من حولها. ومن تشققات ذلك النفق، خرجت مخالِب
طويلة، تتبعها صرخات راجية تمزق السمع.

وفجأة أفاقت يارا على شاطئ يطل على بحر أحمر، امتد بلا نهاية كدم مسفوح،
فتمتعت بصوت جوهري مخيف:

.المياه... إنها تشبهني... بشعة، مقبلة، تستحق الفناء مثلي.

ثم علا صوت من قاع الأرجاء، عميق كأصداء الكهوف:
.يارا... يارا مرآتي الضائعة وسيفي القاطع... لتسمعي كلامي، اسمعيني!

فقامت يارا فجأة، والغضب يتفجر في عروقها:

.لقد ماتت أمي... ولم أرها حتى في حيواتي الثلاث! لقد أريتني موتها مرارًا وتكرارًا... دون
شفقة، دون أن ترأف بقلبي الذي بدأ يجمع شتاته من خلال أوامر الجميع! "يارا
أنقذينا... يارا أنتِ وأنتِ"... كلهم يزيّنون صورتي ويفخمون اسمي ومقامي... كأني أحتاج
هذا التصفيق!

لقد تركت أبي يموت! لماذا؟! لقد حرمتني من إنسانيّتي لأخضع لقوانينك، أيها التافه
المتغطرس. حرمتني من الحب، حرمتني من الفرح... لقد طليت عتبة بابي بلون العزاء!
أنا لا أستحق هذه الإهانة... أنا أستحق الحب! لماذا تفضلون قوتي على ذاتي؟ هل
فكرت يومًا، أيها الكون، أنني أريد أن أعيش مقيدة بك؟ لماذا وضعتني في جسد قوي؟
لماذا وضعتني في عالم ينسى الأخ وجه أخيه فيقتله، ويخلق قانونًا جائرًا يتلذذ به؟!
أين أنا في هذا كله؟! وبعد أن أنقذهم... هل ستنفذ أمنيّاتي؟ بالطبع لا، أيها الأناني!

سقطت يارا جالسة على الأرض، تبكي بلا هوادة، غير قادرة على إيقاف صراخها ولا لوعتها. ومن بين تلك الصرخات، خرج صوت الكون، هذه المرة ناعماً، حزيناً:

.أسف...أسف...أسف حقاً... أنا بدونك لا شيء... لا شيء! لذلك لا تهربي، حتى لو وضعتك تحت حكم قاس، فذلك كان من أجل الاستمرار... سامحيني يا يارا... أرجوك، أنقذي ما بقي من عالمك، حتى لا تذوبي في قالب الجنون... أرجوك!

حينها، نزل من العدم شخص صغير، وتهالك على حضن يارا... إنه طفل، لكن ملامحه كانت غريبة، لا تنتمي لبراءة الطفولة. وقبل أن تنطق، قال الطفل بلغة غريبة:

.أنا عقلك وذاتك وكيانك وهويتك. إن هربت... ستسقط آخر ورقة على عرش الشياطين. وإن سقطت عاطفتك... سأختفي. لا تضحي بذاتك لأجل ذاتك... بل ضحي للاستمرار بأن تعيشي على أمل جديد. انظري إلى يدي... إنها مليئة بالخدوش، وكلها نتيجة قراراتك. لذلك أرجوك يا يارا... أرجوك!

انهارت يارا باكية، تحتضن الطفل بقوة، ثم أفلتته وأمسكت بوجهه المرتعش:

.ماذا الآن؟

ابتسم الطفل ابتسامة منيرة، وقال:

. هذه هي فتاتي الجميلة... أولاً، يجب أن تدفعي طاقتك إلى مرحلة التوازن.

. كيف أفعل؟

. يجب أن تصفّي ذهنك. لا تفكري في شيء قد يفسد وصول طاقتك إلى أقصاها... ثم دمّري الجسد، فهو مستهلك بالفعل، وقلبه بالكاد يحتوي على شيء. دمّريه واقطفي الورود السوداء واسحقها فحسب... والباقي، أنت ستتكفلين به.

همّت يارا أن تسأله، لكن جسدها سقط فجأة في النفق المظلم ذاته. أفاقت وهي تئن من صدادع رأسها، وحملت بالجسد المحنط بجانبها. لم تستطع الوقوف، لكنها صفّت ذهنها للحظة، وأغمضت عينيها. فإذا بالتمثال يتبخر وينتشر في المكان كغبار متلاشي.

كارول، وقد تأثر بشدة من هذا التدمير، تعالت صرخاته حتى خرج دخان من فمه، فيما همست يارا لنفسها، وهي تحاول الصمود:
. صفّي ذهنك... يجب تصفية الذهن...

نهضت بين الورود السوداء، أغمضت عينيها، وللهولة لاح لها مشهد لوحة بيضاء
نقية. اهتزت اللوحة فجأة، ثم تحطمت، ليظهر خلفها سواد قاتم. وفي لمح البصر،
اندفع وهج أزرق من جسد يارا، تشكّل على هيئة طائر النديم.

أطلق الطائر من منقاره كرة نارية، التقطتها يارا في يدها. ثم سحقت بها كل الورود
السوداء، وغيّرت الخطة... فبدل أن تنثرها على رأسها، أكلتها. عندها تبدّلت عيناها إلى
لون مرعب، وطفّت عاليًا، متجاوزة لوسيا وكارول الذي أغمي عليه. اخترقت الشلال
صاعدة، ورفعت يديها نحو السماء.

ومن هناك، توضحت لها الرؤية... لكن رؤية مختلفة: كانت القلوب تتبرعم أمامها،
ينبعث منها إمّا ظلام دامس أو نور ساطع. عندها شعرت بنظرات ويل تحديق بها من
الحدود حتى السماء. أطلقت من يديها صاعقة مدوية مزقت الهواء الهادئ، وسقطت
على الوحش الذي كان يحاول تجاوز المورون، لكنه لم يُنهزم.

ويل تصدّى لها، وقفز عاليًا في السماء مستعينًا بطائر الكارون المحلق، متجهًا نحو
يارا. ومن الأسفل، شعر كون والجميع بزخم طاقتها، فرفعوا رؤوسهم عاليًا،
يتساءلون بدهشة... إنها طاقة يارا، لكنها مسكونة بالصفاء!

أطلق ويل دفعات من شعلات سوداء، لكنها سقطت بلا أثر أمام حاجز حمايتها.
ابتسمت يارا بازدراء وقالت بكل كبرياء:

. أنت ممل...

ثم أغلقت كفها، فشعر ويل بالاختناق، يده على عنقه، محاولاً لمس الحاجز لينقل إليه سحره. لكن يارا كانت أسرع، فأطلقت سهمين نحو عينيه، فاحترقتا. صرخ ويل صرخة عظيمة سمعها أخوه كون، لكن يارا لم تسمح له بلحظة أخيرة؛ قبضت على جسده وعصرته بوحشية، حتى تناثر كفتات خبز.

سقطت الأشياء مباشرة على رأس كون، الذي صفع غابريال بغضب هادر، وهو يوجه كلامه ليارا:

. أيتها الماكرة... ألم تجدي مكاناً آخر لتنثري أشلائه؟!

?

في مشهد ضبابي خيم على الجميع، توجهت يارا نحو الحدود بهدوء قاتل، وكأنّ هذا الهدوء يسحب الخوف ذاته إلى الساحة. عندها، نظرت بقرف نحو الموجودين

جميعهم، ثم وجهت قبضتها نحو الأرض... إلى مكان مسطح وصلب. ومع ذلك لم تأبه
لا بالدماء التي سالت ولا بالانفجار الذي تلاها، بل جرف الجميع إلى الأسفل وكأن
الأرض ابتلعهم.

في تلك اللحظة، أحسّت لوسيا بأثر الموجات التي دفعها يارا، فأمسكت بذراع كارول
وقالت بتلعثم: "أظن أن يارا قد بلغت ذروة المجد... سيحطمها ذلك عاجلاً أم آجلاً."
غير أن كارول كان يتميز من الألم الضاغط على روحه.

وفجأة، رفعت يارا رأسها، لتبدأ المياه بالفوران من باطن الأرض، فوجد الجميع
أنفسهم ينزلقون إلى مكان فارغ... أسود قاتم وموحش. كانت يارا تنظر إليهم بكل برود،
وقالت بنبرة متوحشة: "سترون من هي يارا."

عندها، شنت الأرواح هبوا مدويا نحوها، لكن يارا صدهم بصرخة عالية. ومع ذلك،
لم تكثرث الأرواح بيارا نفسها، بل التفتت نحو الذين سقطوا في الهاوية التي انبعثت
منها ألسنة النار. عندها صرخت يارا، وعيناها تستعران بألوان بشعة: "سوف أقتلكم
جميعاً!"

ثم، تقدمت روح أمها وقالت برجاء: "ابنتي، استيقظي! هذه ليست أنت... لا تجعلي
الشر يتلبسك." غير أن يارا قبضت على الروح، وعصتها حتى أحست الروح بوخزة
دامية، ثم قذفها إلى الأسفل بقسوة.

لم تتحمل لوسيا رؤية يارا في هذه الحالة، فأخذت من كارول أحد أحجاره السوداء ورمته عاليا. عندها انبثق من الحجر وحش نوراني عملاق بجناحين حجبنا السماء كلها، وركز بصره نحو يارا التي كانت ما تزال تدفع الأرواح إلى الأسفل. ثم، استل رمحه الطويل وصوبه نحو الأرض التي بدأت تصدر أصواتا غريبة. وفي لمح البصر، خرج الجميع من قاع الأرض طائفين.

ومع ذلك، كانت يارا، التي تملكها الغضب، قد ارتمت على الوحش. إذ أمسك برأسها بإحكام وأخرج من فمه دخانا فاحما دخل ببطء إلى فمها. لكن يارا لم تستسلم، فلكمته محاولة إخراج الدخان الذي تحول تدريجيا إلى أفاعٍ صفراء ملتوية. وفي ومضة، اختفت الأفاعي، فتشتت انتباه يارا، فشعرت بقوة غريبة تجذبها. عندها علمت أنها تحت وقع هלוسة، فارتعشت أطرافها فجأة، ثم مدت يدها وطعنت بطنها بصرامة، حتى نزل الدم إلى باطن الأرض وسال مباشرة على عيني جوارا.

ومع ذلك، لم تكتفِ يارا بذلك، بل أرادت أن تبتلع الأرواح وتمتصهم. إلا أنّ الوحش أوقف حركتها، وبمجرد أن هدأت قليلا، خرج صوت مزعج من داخلها: "سوف أبني عالما أيها الأوغاد، هنا شئتم أم أبيتم."

صرخت لوسيا من باطن الشلال، وصوتها ترك صدى في كل مكان: "يارا! لا تتركي لعنته تسري في عروقتك... حرري روحك يا يارا!"

غير أن يارا ظلت هائجة، وقد ماها تتخبطان تحت قبضة الوحش الذي نال منها
لكمات قاسية. وفي جانب آخر، كانت يارا محجوزة في مكان يعمه الفوضى، حيث
تراكمت الجثث المتعفنة وهي معلقة بالمقلوب على منصة إعدام. عندها، صرخت من
هول ما رأت: "أين أنا؟ ليساعدني أحدهم! آه، آه، كون... جوارا... لوسيا... كارول...
الجميع!"

لكن صوتها ظل سجين جسدها، الذي أطلق موجات عشوائية وصلت قوتها إلى
الوحوش الرابضة على الحدود. كانت الوحوش هادئة بشكل مفرغ، وكأنها تترقب شيئا
ما.

صرخت يارا مجددا، وصراخها مزق كل الأذان وأحرق الأرواح التي فرت لحماية
نفسها. وفي تلك اللحظة، لم تجد لوسيا حلا سوى أن تطلق من سحابتها كمانا عاجيا.
شدت على أوتاره حتى اهتزت مياه الشلال، وارتفعت نحو السماء صانعة قبة حريرية.
ثم، وبصوت جلي، ألقت تعويذة غريبة رددتها عشر مرات، لتقول أخيرا: "ويل... سوف
تدفع ثمن تلاعبك بكل شيء أيها البغيض."

كانت هذه الكلمات كافية لإطلاق الأصوات من جسد يارا التي اختلطت وتشابكت،
حتى ظهر صوت ويل قائلا: "إن لم أحكم جسدي، فسأستعمركم بروحي أيها الأوغاد.
لن يعيش أحد بسلام ما دمت حيا... هذا وعد مني حتى ينجلي الكون ويحل محله
العدم."

عندها، وضعت يارا يدها على جرحها وغرست أظافرها فيه حتى تلونت من الألم. ثم صرخت صرخة مؤلمة وكأنها تصارع كيانا جبارا، تتالت صرخاتها، والوحش ما زال ممسكا بها بقوة. وأخيرا، أطلقت تهيدة وقالت بصوتها العادي: "أرجوكم... ساعدوني... كون، السيف! أرجوك، ارمه نحوي!"

في تلك اللحظة، كان كون يطفو في فراغ باطن الأرض، والجميع حوله مرعوب من منظر الألسنة الملتهبة أسفلهم. سمع صوت يارا تأمره، فألقى السيف. غير أن الفراغ جذبته مرة بعد مرة، حتى أتت روح وحجزت السيف داخلها، ثم صعدت بصعوبة وقذفته نحو يارا.

أمسكته يارا، ولطخت بدمها معدنه الفضي، وقالت وهي تنظر إلى الأسفل: "لوسيا... التراب! أحرقه!"

ترددت لوسيا للحظة محاولة فهم قصدها، لكنها سرعان ما رأت أسفلها ترابا أحمرًا مثل الدم، والدود يتناثر حوله. فأسرعت وكونت شعلة من نار، ودفعتها نحو التراب، الذي أصبح يشبه الطين اللزج.

بدأت يارا تلهث بصعوبة، وصوتها يتأرجح بين صوتها وصوت ويل، حتى سمع الجميع صوت تحطم مفاجئ... لقد كان كارول، الذي بدأ يحطم زجاج الأرضية بعد أن استيقظ إثر شعوره باحتراق التراب. هشم الزجاج، وبدأت عيناه تنزفان دما

بنفسجيا ملأ المكان، ثم تحول إلى ورود سوداء. وقال بصوت ضعيف موجهها كلامه
ليارا: "لقد جهزت القبر يا يارا... أكملني الباقي."

عندها، نظرت يارا إلى الوحش بألم، ثم أخذت السيف المغطى بدمها، وغرزته في قلبها
بطريقة وحشية...



تدقّ السيف كريشة مسنونة في قلب يارا، فارتخت عيناها بارتياح غريب امتزج
ببهجة مفعمة بالجنون، ثم تمتمت بصوت متقطع يقطر قسوة:
«ستموت يا ويل... ستموت أنت وأفكارك الغبيّة. سأطحن كل عظمة من عظامك،
وسأشويك بدموع من نُسِفت أرواحهم».

وأشارت بيد مرتعشة إلى الوحش الذي كان يحملها كي يُفلتها، غير أنّه تردّد للحظة
وهو يحدّق في القبة الحيرية التي أطلقها لوسيا؛ إذ بدأت تهتزّ بشدّة بعدما صعدت
فوقها الوحوش محاولة تمزيق الحاجز. يارا أصرت بإصرارٍ قاطع، فأطاعها الوحش
أخيراً وأفلتها. وفي اللحظة نفسها التي هوت فيها يارا نحو الهاوية، انبجست مياه

الشلال فجأة لتكشف عن كارول ولوسيا، وقد ارتجفت الأخيرة مذعورة لمشهد صديقتهما وهي تسقط.

كارول، الذي غلّفه القلق، طلب من لوسيا أن تعاونه على تثبيت الطاقة لتعزيز مفعول الورود السوداء. تلك الورود لم تكن مجرد زينة، بل تجسيد لأرواح ألف إنسان قديم مسلحين برماح شاهقة، استدعوا لإرغام ويل على الخروج من جسد يارا. لكنّ هذا كان في الآن نفسه إنذاراً بموتها المحتوم، فالسيف كان قد شقّ قلبها، غير أنّها فعلت ذلك عمداً لأن ويل يتوق إلى جسدها.

لوسيا، التي لم تحتمل المشهد، رفعت كمانها بين يديها المرتجفتين، وبدأت تسحب أوتاره الثقيلة. وفي لحظة، انطلقت من القبة الحربية بتلات ياسمين متألئة لتتجه نحو يارا وتوقف سقوطها. ومع ذلك، بقيت يارا مستيقظة، بفضل طاقة ويل الذي كان يحاول إخضاعها وضم قوتها إلى جسده، لكن محاولاته كانت تهاوى مراراً. عندها صرخت يارا بأعلى صوته، ممددة بين مياه متجمدة في الهواء وسماء تموج بالوحوش الزاحفة:

«لوسيا... أفلتيني، أرجوك!»

فأجابتها لوسيا والدموع تلمع كحبات نور على وجنتيها:

«مستحيل... لا يمكنك الموت يا يارا!»

غير أنّ كارول، وقد غلّف صوته رجاء عميق، حدّق في لوسيا قائلاً:

«أرجوك... إن لم تتركها الآن سيدمّر كل شيء. أرجوك يا لوسيا!»

صرخت يارا مجدداً، وغرزت السيف أعمق في صدرها والدم يتفجّر منه:

«سأموت ليحيا هذا العالم... أليس هذا ما تريدونه؟ إذن يا لوسيا... أفليتيني!»

لكن لوسيا، بعناد يائس، ردّت:

«أنا... أنا آسفة، حقاً آسفة... لا تموتي يا يارا... لن تموتي!»

وفجأة، اجتاحت الأرواح الفضاء، فاندفع بعضها نحو قمة القبة ليمنع الوحوش من

اقتحامها، بينما اتجه البعض الآخر ليحيط بجسد يارا كقفص من نور. عندها

صدحت الأصوات في انسجام واحد يخاطب لوسيا:

«لن تموت... لذلك أرجوك يا ملكتنا، أفلتينا!»

التفت كارول نحو لوسيا مغتاضاً وصاح:

«لا تكوني أنانية... أفلتينا!»

انفجرت لوسيا بالبكاء، وأرخت قبضتها عن الأوتار. تساقطت بتلات الياسمين فوق

وجه يارا الملطخ بالدماء، فيما استقبلتها الورود السوداء التي احتضنتها بصمت

مهيّب. غير أنّ ذلك الهدوء تحوّل لعذاب لاذع لويل؛ إذ انطلقت آلاف الرماح الروحية لتخرقه، فتعالى نحيبه من داخل جسد يارا المتهالك. حاول الفرار، لكن الورود السوداء التفتّ حوله كحقل كثيف متمواج. والسيف المغروس في قلبها قيّد روحه، فلم يجد مهرباً.

وفي آخر لحظة، دوّت صرخة مدوّية من فم ويل:

«ساعدوني!»



?

في تلك اللحظة التي غلّفها السكون الموحش، كان دم يارا ينزف ببطء ليغمر كل شيء،
كأن الأرض نفسها تشرب من جرحها. صار الشلال، الذي كان يومًا عذبًا صافياً، نهراً
من الدم القاني، يتدفق على الصخور العاتية ويصبغها بحمرة غامقة تشبه الغروب
الأخير. والوحوش التي كانت تعوي وتمدد في السماء تلاشت فجأة، كأنها لم تكن
سوى كابوس ثقيل أُفرغ من صدر الليل. لم يتبقّ سوى جسد المورون الأنثى، الذي
ظل معلقاً بين الأرواح ككنز أثقلته المأساة.

حين تلاشت القبة الحيرية، انبعثت الورود السوداء في انفجار من البياض، تحوّلت
كل بتلة منها إلى زهرة ناصعة تنثر ضوءاً بارداً فوق جسد يارا الملقى. بدا المشهد كأنه
مأتم سماوي، تتدلى فيه النجوم قرب الأرض، تواسي الأرضة الملطخة بالدم.

اقتربت لوسيا بخطوات مترنحة، قدماها كأنهما تغوصان في طين أثقل من جبل. مدت
يدها المرتجفة نحو السيف المغروس في صدر يارا، وأمسكت قبضته الباردة. كان
ثقيلاً، وكأن كل آلام يارا قد تكدست في ذلك الحديد. جذبت السيف ببطء، وكلما
انسحب انسكبت دماء جديدة، تبلل أصابعها وتلون وجنتيها بصفرة الموت. عيناها
تساقط منهما الدموع بغزارة، تلمع فوق وجنة يارا الباردة، فتزيد ملامحها سكوناً
وجلالاً. بدت كأميرة نائمة في قبر من الورود، أو كضحية مذبوحة بحنوّ القدر نفسه.

في هذه اللحظة، دوى صراخ كون وجوارا وغبريال، ومعهم أصوات الزوارا الآخرين،
يعلو من أسفل الجبل. كانوا يرددون اسمها كابتهال جماعي، أصواتهم متكسّرة بين

الرجاء والصدمة. صداها ارتدّ من بين الصخور العالية، فصار كأنه نحيب الجبل نفسه.

أما كون ، فقد بقي متجمداً، عيناه اللتان طالما بعثتا القوة أضحتا نافذتين للحزن. دموعه انهمرت بصمت، تنحدر عبر وجهه الشاحب مثل شلال صغير يقاوم الانهيار. لم ينطق بكلمة، وكأن صمته كان أشد وقعاً من العويل.

اقترب كارول من لوسيا، عيناه تلمعان بتعب قديم، وصوته مشروخ بالندم، وقال وهو يضع يده على كتفها المرتجف:

«ربما... هذا هو الأفضل يا لوسي... نعم، هذا أفضل.»

لكن الليل لم يرحم، فقد أرخى ستاره الكثيف على السماء، حتى اختفى آخر شعاع من الضوء. شعر كارول بطاقة تتجدد داخله، طاقة بدت كأنها تنبع من الفراغ، من الأرواح التي اجتمعت حوله كدوائر من نور. راحت تحيط به وتكسوه بأردية من وهج سماوي، ثم زينتته بسرج مرصع بالنجوم، كفارس كوني انبعث من صميم المأساة.

غير أن لوسيا، وقد التوت ملامحها بين الألم والسخرية، أطلقت ضحكة مأساوية هزت السكون، وقالت بصوت متحشرج:

«موت يارا... قد أنقذك صحيح؟! لكن... لماذا?!»

عندها ارتجّ صوت عميق من باطن الأرض المفروشة بالورود البيضاء، صوت لم يكن بشرياً ولا روحياً، بل شيئاً بينهما، وقال:

«التوازن... أحياناً يحتاج فرصة ليستعيد فعاليتها. لا أحد يُخلق كاملاً... كارول كان ينقصه الشجاعة ليُبرز قوته، وربما أنتم جميعاً ألهمتموه حتى يحقق غايته. وكذلك يارا... التي تُركت وحيدة أمام قوة لم تختبرها، وهوية لم تختبرها، وأصل لم تختبره.»

ثم استرسل الصوت، وقد انخفض إيقاعه كأنه رجاء أخير:

«لذلك... قبلوا جبينها احتراماً لتعاستها... أرجوكم.»

وما إن سكت الصوت حتى تلاشى كغبار مضيء في الهواء، تاركاً خلفه رهبة صامتة. وفجأة، ظهر الطفل نفسه الذي احتضنته يارا يوماً. اقترب بخطوات وديعة، واستلقى بجانبها كأنه يبحث عن حضنها من جديد. رفع وجهه الطفولي نحو لوسيا وكارول، وقال بصوت رقيق مفعم بالحكمة:

«هل تعلمون... أن يارا، تلك التي اجتمعت فيها كل الخصال الجميلة، أساءت لنفسها في النهاية؟ كانت دائماً تنظر إلى السواد الذي يغطي السماء وتقول: ربما هذا السواد هو ما يجعلنا نصبح أنقياء... مثل النور. أنا... أنا أمثل عقلها الذي رفضت أن تعتمد عليه، أنا الذي دفعتم لتصبح هكذا. أنا كل شيء بالنسبة لها. أنا الطفل الذي يمثل الحرمان المطلق، والشعور بالحب الحامي الذي أحرق يديها. أنا من جعلها تتعلق بالناس، وربما... هذه لعنة من يصبح بشرياً طوعاً.»

ثم التفت نحوها، وقبل جبينها بخفة، ووضع يده الصغيرة على الأرض المبللة بدمائها.
رفعها إلى فمها الذابل، مسح به، ثم ذابت ملامحه في جسدها حتى اختفى فيه
كوميض يُمحي في فجر غامض.

وهنا انحدرت مياه الشلال برفق إلى مجراها الطبيعي، كأن الطبيعة تنفست
الصعداء. انفتح باب الجبل بهدوء، فدخل الجميع مدهولين، يبحثون عنها. لكن يارا
لم تكن هناك. عندها تقدّم الحارس، وصوته أشبه بصير الأبدية، وقال:
«يارا ماتت... هيا، اخرجوا.»

صعق كون، وتجمدت الكلمات على شفثيه:

«ماتت؟! كيف?!»

أما غبريال، فلم يصدق، فاقترب من الحارس بعينين دامعتين وصاح:

«أنت تكذب!»

لكن الحارس بسط كفه، فظهر جسد يارا، مسجىً بلا حراك، وجهها شاحب كالقمر،
وشعرها منثور كجدائل حريرية بين ورود بيضاء. رفع الحارس صوته مرة أخرى
بصرامة أسرة:

«هيا... اخرجوا. سيعود كل واحد منكم إلى موطنه. لقد حلّ الليل بالفعل... اخرجوا.»

جوارا، الذي بدأ ينسحب عائداً بخطوات متردّدة، أحس فجأة بلسعة ألم حارق تشقّ عينه اليسرى، العين التي انسكبت عليها دماء يارا الدافئة. الدماء لم تكن مجرد قطرات، بل كانت تغلي داخله كحمم متفجّرة تبحث عن مخرج، فصرخ بصوت مبحوح وسقط يتلوّى على الأرض، جسده يرتعش كقصبة في مهبّ ريح عاصفة، وصوته يخترق الصمت الثقيل وهو يصرخ بأعلى ما يملك:

«يارا... يارا... يارا!!»

ومع ذلك، وعلى حين غرّة، انطفأت صرخاته فجأة، وخيّم عليه سكون خانق، ثم فقد وعيه كشمعة انطفأت في ريح. ارتبك الجميع، عيونهم تبحث عن تفسير عاجز، بينما كان جوارا قد انغمس في مشهد داخلي رهيب، رؤية اجتاحت وعيه الممزق بلا استئذان.

فجأة، وجد نفسه واقفاً وسط فضاء أبيض صافٍ، بياض يلسع البصر بحدّته، لا يقطعه إلا ورود حمراء مبعثرة كالدماء المراق على ثوب ناصع. وفي قلب هذا البياض

الموحش، انتصبت مرآة ضخمة، ذات إطار أسود قاتم كليل بلا قمر، تُشعّ برهبة لم يعرف لها مثيلاً.

اقترب بخطوات مثقلة، وكلما اقترب، ازداد قلبه خفقاناً كطبول حرب. وحين دقّ النظر، إذ به يرى طفلة صغيرة ملتصقة بزجاج المرأة. كانت يارا... ولكن في هيئة طفلة، محاصرة بدموع غزيرة سالت كالأنهار، حتى حُيِّلَ إليه أن الفضاء كلّهُ يقطر حزناً من بكائها. وما إن رآته حتى هرعت تحاول معانقته، غير أنّ سلسلة فولاذية متينة برزت فجأة من العدم، فالتفت حولها كأفعى ضخمة، وشدّتها بقسوة، لتصدّها عن الوصول إليه.

حينها، دوى صراخها في أذنيه كخناجر حادة تمزّق الوعي، حتى إن طبليته كادت تنفجران بالألم. ارتبك أنفاسه، وصدره امتلأ بخوف متشابك كشبكة عنكبوت خانقة تضيق عليه أكثر فأكثر مع تصاعد أنينها.

ثم، وقبل أن يتمالك نفسه، تجمّدت قدماه كالجليد، إذ ظهر أمامه مشهد أشدّ رعباً. كان جسد ضخّم لامرأة، وجهها اقترب حتى غطّى الأفق، وعيناها اتسعتا بشكل مخيف، كماهوية لا قرار لها. زفرت بقوة، فداهمت أنفاسها الساخنة وجهه، رائحة حامضة خانقة جعلته يختنق، وقالت بصوت عميق يزلزل كيانه:

«بُني... اعثر عليّ.»

ارتجف جوارا، تلعثم صوته وهو يتراجع كمن يسقط في هاوية:

«مستحيل... أنتِ؟! أنتِ... مستحيل... مستحيل!»

ابتسمت المرأة ابتسامة دامية، ارتعش لها الهواء، وقالت ببطء ثقيل كجرس نحاسي:

«ليس مستحيلاً... أنا والدتك. ابحث عني...»

لكن، ويلمح البصر، تبخّرت هالتها فجأة، وتلاشت كدخان أسود يتلاعب به الريح. وما

إن اختفت حتى أحس جوارا بصفحات متتالية تنهال على وجهه. فتح عينيه

المرتجفتين، فإذا بيارا أمامه، تصفعه بلا هوادة، ودموعها المختلطة بالدماء تتناثر

على وجنتيه.

في تلك اللحظة، كان ينزف بشدة، الدم يتفجّر من عينه كنافورة حمراء، ومع ذلك لم يُبالِ، فقد كان جسده كله ينبض بشعور أعظم: طنين مرعب يتردّد في أذنيه مع كل ضربة قلب. بالكاد استطاع أن يتذكر ملامح المرأة العملاقة، لكن وقعها لم يزل ينهش عقله كناب غائر.

وفي الخارج، كان كون يهزّ ابنه بجنون، عيناه جاحظتان من الذعر، صوته يتكسّر وهو يصرخ:

«غابريال! تعال... ساعدني!»

إذ كان يرى الدماء تنهمر بغزارة من عين جوارا اليسرى، بينما يده المبتورة تنزف بلا توقف. وحين لمس عينه، ارتعش جسده كله، فقد رآها تنفتح وتتسع بشكل غير طبيعي، كأنها بوابة مظلمة تُطلّ على عالم آخر.

?

أما في داخله، فقد كان جوارا يصارع صور يارا المتحوّلة. في كل لحظة كانت تتبدّل: مرّةً في هيئة جدّه، وأخرى في هيئة عمّه، ثمّ وجوه مألوفة من شعب الزوارا، قبل أن تنقلب إلى ملامح غريبة من الرون والمورون. ومع كل تحوّل، كان الخوف يعصر قلبه أكثر، كقبضة جليدية تزداد شدّة. لكن ما شدّ انتباهه هو الهمس العميق المتسرّب من أعماق المرأة السوداء.

اقترب أكثر، وإذا به يرى يارا محاصرة داخل المرأة، تحاول الصراخ، لكن يدًا قاسية غطّت فمها بقوة. أصيب بدوار شديد، شعر أن معدته ستقلب من هول ما يرى. رفع بصره نحو الكيان الذي أمامه، فارتعد إذ اتخذ شكلاً أشدّ بشاعة: عيناه مشعتان بهلع يفتك بالقلب، وفجأة مدّ إصبعه الكريه إلى عين جوارا، واقتلعها بلا رحمة، ثم رفعها إلى فمه وأكلها بوحشية، الدم يتقطر من شفتيه وهو يقول بصوت مبحوح بالغلّ:

«التضحيات... لا بد منها لاستمرار الوهم. انظر إلى بطلتك يارا... الجميع يظنون أنها بطلة، وأنها أنقذت الشلال... لكنها جبانة!»

[?]

وما إن ارتفع صوته حتى دوى كهدير عاصف، وفي لحظة خاطفة تكسّرت المرأة
كزجاج هشّ، لتكشف عن يارا وهي تتألم من سكين يُغرس في عيناها مرارًا بلا رحمة.
الدماء انهمرت منها كالسيل الجارف، حتى بدا نزيها أفضع من جرح جوارا نفسه.

وفي الجهة الأخرى، أحسّت لوسيا باضطراب رهيب في حركة الأرواح. ارتعشت أناملها
وهي تحذّر كارول، الذي اندفع بدوره نحو جسد يارا. وما إن اقترب حتى رأى
التعويذات نفسها التي ظهرت أول مرة وقد غطّت جسدها، فيما بدأ صوت الكون
يتصاعد من باطن الأرض، جهوريًا وعميقًا، يهدر:
«أخرجوا... يارا من هذا العالم! هيا! هيا! سوف تهلكون!»

لكن فجأة، انقطع الصوت كأنه اختنق، ليظهر على معصمي يارا بثور سوداء، كأنها
آثار أصفاد قديمة. عندها، أطلقت الأرواح صرخة حادة شقت السماء، واهتزّت
الأرض، فيما احترقت الزهور البيضاء بلهيب أزرق غريب يتصاعد من العدم.

رفعت لوسيا كمانها المرتعش، تهزّه بعنف، فتفجّرت منه طاقة هادرة تحاول صدّ
القوى الدخيلة عن التسلل إلى الشلال. ومع ذلك، تردّد صدى تمزّق عجيب، كأن
شيئًا هائلًا يريد الخروج من تحت جسد يارا.

وفي خضمّ كل هذا، كان جوارا يئنّ ويتلوّى بين الحقيقة والوهم. لم يفهم ما يجري،
لكنّه جمع ما تبقى من قوته، وركل الكيان بقوة هائلة حتى تلاشى أثره. وفي لحظة

عابرة، ظهرت يارا أمامه مقيدة من معصمها كسجينة معاقبة، وبطنها يتفجّر منه سيل من الدماء التي انسابت حتى بلّلت قدميه.

ركض بجنون نحوها، كل خطوة منه مثقلة بأصوات الرصاص المدوّي في رأسه، لكنه لم يتوقّف، بل اندفع حتى بلغها. هناك، توهج جبين يارا فجأة، ورُسمت على عين جوارا المصابة تعويذة مشابهة لتلك التي نقشّت على جسدها.

رفعت رأسها بصعوبة، أنفاسها متقطّعة، وصوتها يقطر ألماً وهي تلهث: «روحي... تحترق بسبب ويل! أرجوك... ساعدني! لقد نقل إليّ جزءاً من سحره المحرّم، ولهذا... سيتأثر العالم كلّهُ. أرجوك... هذا لا يُحتمل. أنت تستطيع يا جوارا... دمائي الملوّثة بطاقة ويل قد سقطت على عينك... أنت ستُعاقب معي. أرجوك... افعل شيئاً... أرجوك!»

وتواصل صراخها مع الطعنات الغامضة التي كانت تمزّق جسدها بلا رحمة، فيما رأس جوارا يغلي من الداخل، كبركان يوشك أن ينفجر، بسبب الكيان الذي تغلغل في كيانه. بدأ يفقد وعيه تدريجياً، ودون أن يدرك، أخذ يلطم الهواء بجنون، كمن يقاتل وحشاً خفياً يترصّ بروحه.

كان جوارا يتأرجح في الفراغ، يلوح بقبضتيه يمنة ويسرة كمن يهاجم أشباحاً خفية لا يراها أحد غيره. كل حركة منه كانت متشنجة، مرتبكة، مليئة برعب داخلي يعصف بروحه. ظل يضرب الهواء بلا توقف، حتى خارت أنفاسه فجأة وتجمد جسده إثر صرخة حادة اخترقت السكون. كانت صرخة يارا، قوية ومزلزلة، دوّت في أذنه كقنبلة مزقت الفضاء الأبيض إلى شظايا، كأن المرأة العظمى التي تعكس هذا العالم قد تحطمت، وتناثرت قطعها الحادة تمزّق كل ما تعترضه. إحدى تلك الشظايا اخترقت صدره، فارتجف بقوة، شعر بألم لاذع يخترق أوردته حتى كاد قلبه يتوقف عن النبض. انتفض جسده كطائر أصابته رصاصة، ثم انفتحت عيناه مدعوراً، ليجد نفسه بين ذراعي والده، يلهث كمن يختنق تحت ماء عميق، وأنفاسه تتهاوى مثل شمعة أوشكت أن تذوب.

[?]

كان كون يضغط بكلتا يديه على صدر ابنه في يأس، وجهه مبلى بالعرق، وعيناه تفضحان ذعراً لم يعرفه من قبل. ارتجفت شفاته وهو يصرخ من أعماقه، صوتاً حطم الصمت واستدعى تاتا. ولم تمض ثوان حتى ظهرت الأخيرة، كبرق يشق الفراغ بضوء مفاجئ. ارتسمت علامات الدهشة على وجوه الزوارا الذين اعتقدوا أنها قضت منذ زمن، غير أنها رفعت يدها بحزم، تسكّن ارتباكهم وتشير إليهم بالصمت. كان صوتها متقطعاً، منهكاً، أشبه بأنفاس آخر الليل حين قالت:

«كِدْتُ أُقْتَلُ... لكن دخول يارا إلى الشلال أوقف ويل في اللحظة الأخيرة. لقد تجاوزني بسرعة لم أعهد لها قط.»

غير أن كلماتها مرت على كون كالريح العاصفة، لا يستوعبها ولا يريد أن يستوعبها. أمسك يدها بقوة، نبرة صوته متوسلة، مشبعة بالانكسار:
«تاتا... ابني! أرجوك، أنقذيه!»

على الأرض، كان جوارا يتلوى كالمحموم، جسده يرتعش ووجهه يتورم ببطء مرعب. عينه بدأت تنكمش خلف طبقة سميكة من جلد متغضن، ينبض فيها وميض موجع كقطعنا لا تتوقف. انحنت تاتا بخطوات محسوبة واقتربت من عينه، لكن فور أن لامستها، صدمتها طاقة جارفة دفعتها للخلف كأنها ارتطمت بصاعقة. رفعت بصرها بدهشة فرأت التعاويذ تغطي كامل جسده، من قدميه إلى ذراعيه، نقشاً أسود يحاصر كيانه. اتسعت عيناها وأدركت الحقيقة، فتمتمت بصوت مبحوح:
«إنه العقاب... دمائه تلوثت بدماء السحرة. وهذا العالم لا يرحم... كل من يتسرب السحر إلى جسده، ولو بالصدفة، ينال القصاص نفسه.»

شهق كون، وغص قلبه بغصبة مريرة، وضع كفه المرتجف على يد ابنه الدامية وهو يصرخ بحرقة:

«لكن ويل... كان ساحراً! كيف نجا إذن؟! وما ذنب ابني؟!»

تهدت تاتا ببطء، عيناها تلمعان بخليط من الأسى واليقين، ثم أجابت:
«ويل لم ينبج صدفة... لقد قدّم تضحيات جسيمة ليهرب من العقاب. استبدل دمه
بدماء غيره، وأخفى أثره عن الحكام الكونيين.»

ارتفع صوت كون مذهولاً، مبحوحاً بالغضب:
«كيف فعل ذلك؟!»

ترددت تاتا، وكأن الكلمات تثقل لسانها، ثم التفتت نحو غابريال الصامت، نظرة
حزينة تفضح سرّاً دفيناً. قالت بصوت خافت، كمن يكشف لعنة قديمة:
«غابريال... لم يولد من أمكم. أمه تملك دماء نقية... من عالم آخر. ويل لجأ إلى هذا
الطريق، لينجب أبناءً خارج هذا العالم، فيتوارى عن أعين الحكام.»

تجمد كون، حدّق في ابنه مذهولاً، وعيناها ترتعشان وهما تتهجان:
«إذن إصراره على مقابلة غابريال...»

أومأت تاتا ببطء:
«نعم... كان مصيره مرسومًا منذ لحظة ولادته. الموت، ليستر قوة ويل ولكن قبل أن
يجد هذا الحل، كان القتل شغفه الوحيد... قتل والده، وقتل زوجته، كي يمتص

دماءهم ويصهرها بدمه. الوحوش العاقرة لم تكن سوى نتاج طاقته مع طاقة يارا...
وحوش يمكن تشكيلها ودمجها، حسب حاجته.»

ارتجف قلب كون، صدره يشتعل بحرقه، كأن السكين تعمق طعنًا داخله. ضغط
على يد ابنه أكثر، وصوته متكسر:
«إذن... دماء ويل... سرت في ابني.»

أومأت تاتا، وملامحها مثقلة بالأسى:
«نعم... حين امتزجت طاقة يارا بدمه، كان أثر ويل واضحًا. بعض قطراته تساقطت
على جوارا، وربما أصاب يارا أيضًا.»

صرخ كون، مذهولًا:
«يارا ماتت! كيف تتأثر؟!»

لكن تاتا ابتسمت، ابتسامة رقيقة فيها بصيص أمل:
«يارا ليست مثلنا... طاقتها عvisة على الفناء. حتى إن مات جسدها، تبقى روحها
متحررة من الموت.»

مدّت يدها تمسح شعر جوارا المتعرق، ثم همست بحزم:

«سأُسكن أُمّه مؤقتًا... لكن علينا مغادرة هذا المكان حاليًا. وغابريال... يجب أن يرافقني.»

انتفض غابريال، دهشة تملأ صوته:

«أنا؟! إلى أين؟!»

ابتسمت تاتا ابتسامة تحمل غموضًا:

«أنت ترياق هذه اللعنات، يا صاحب الدم الجوري.»

ارتبك كون، ارتعشت حدقتاه وهو يهمس:

«تاتا... ماذا تعنين؟!»

اقتربت من غابريال وربتت على رأسه بخفة:

«دمك نادر... مختلف. أمه من عالم لم يفسده الشر، عالم زودنا لديه قوة نقية لا نملكها.»

شهق غابريال مذهولًا:

«كيف؟!»

ابتسمت، نظرتها دافئة على الرغم من قسوة الموقف:

«شعرك البلاتيني، عيناك الباهتة، كلها إشارات. لقد زرت ذلك العالم يومًا، ولم أظن أن الملكة نفسها سترغم على التزاوج مع ذلك النتن... لتُنَجِّبك. دماء أمك انتصرت فيك... وهذا أعظم ما في الأمر.»

ازدادت ملامح كون اضطرابًا، صوته جاد، ملهوف:

«تاتا... ماذا نفعل الآن؟!»

اقتربت تاتا من جوارا، حضنته بحنان، ثم رفعت بصرها نحو يده المبتورة وسألت بقلق:

«ماذا حدث له؟»

تدخل غابريال على الفور:

«كنت معه... هاجمنا قطيع من الوحوش العاقرة. كنا محاصرين، ولم نجد مهربًا. جوارا ضحى بيده لينقذني. سمومها أحرقت ذراعه، فقطعها بنفسه قبل أن ينتشر السم.»

أطرقت تاتا رأسها، تهيدة حزينة خرجت منها:

«فتى شجاع... جوارا قلبه نقي.»

لكن كلامها قُطع بصوت مدوٍ فجأة. الشلال انفجر بصوت كالرعد، واندفعت منه الأرواح بالمتات، هاربة كقطع زجاج تكسرت من انفجار داخلي. في خضم الفوضى، شق صراخ يارا الأجواء. كان صراخها حادًا، معدنيًا، يخترق الأذن كالخنجر. غطت تاتا أذنيها بسرعة وهي تصرخ بالآخرين:

«أغلقوا أذانكم!»

على الجانب الآخر، كان كارول يصد الأرواح، يدفعها بعيدًا عن الشلال. لكن يارا كانت تتمتم بكلمات غير مفهومة، تعاويز خرجت من أعماقها، فانفجر من صدرها ثعبان أسود عملاق. انقض عليه كارول بجرأة، مزقه، لكن لوسيا صرخت مرتجفة:

«تذكر كلام الكون! يجب أن ننفذه فورًا... السحر سيدمر المكان!»

?

زمجر كارول، عض على شفتيه:

«ويل... أيها الخائن الماكر!»

ثم اندفع نحو يارا، رفعها بين ذراعيه، وأخرج حجرًا من جيبه، تحوّل في لحظة إلى وحش عملاق. أمره أن يحملها بعيدًا.

حين رآته تاتا، صرخت بصوت حازم:

«هيا! اتبعوه! يجب أن نخرج قبل أن ينفجر كل شيء!»

مدّت يدها للجميع، أمرتهم بلمسها، ثم صفقت بكفّهما، فإذا بهن ينتقلون في لحظة إلى حافة العالم. هناك، استلقت يارا بجسدٍ مغطى بالكدمات والتعاويذ السوداء، بينما تحتها ظهرت عين مظلمة، شبيهة بتلك التي ابتلعها سابقًا. عين أخرى ارتسمت تحت جوارا.

صرخت تاتا:

«غابريال! اقرب!»

اقترب مذعورًا، لكن تاتا خدشته في إصبعه، فانهمر دمه بغزارة، تشكّل على الأرض جذور دموية أحاطت بهما، رسمت دائرة متوهجة. شعر بدوار، ساقاه ترتجفان.

نظرت تاتا إلى كون بحزم:

«يجب أن نصنع جسرًا جديدًا... الرابط القديم انهدم.»

ضربت الأرض بعصاها، فانشقت إلى اثني عشر واديًا امتلأت مياهها، ومن أعماقها
خرجت أذرع ذهبية عملاقة، رفعت بوابة نورانية. صاحت تاتا وهي تحمل يارا:
«تقدموا! تسلقوا الأذرع، الباب لن يبقى مفتوحًا طويلاً!»

لكن كون تجمد مكانه، فقد باغته فيضان أسود يتدفق نحوه. ارتجف وهو يرفع
قدميه، وحين لمس الأذرع، اختفى في الضوء.

أما تاتا، فتمتت بتعويدة، صرخت:

«غابريال! تسلق! اذهب!»

انطلق رغم دواره، بينما تاتا تابعت تعويذتها، تصرخ:

«أيتها الأرض... سامحينا، وارجعي بالنار كل من دنس شرفك!»

في لحظة خاطفة، تبخرت، واختفت الأذرع الذهبية، وعاد المكان إلى سكونه... كما لو
أن شيئًا لم يحدث قط.

إغرورقت عينا يارا عند ملاستها لتلك المياه الفضية؛ مياه غريبة كأنها مرآة أبدية
تعكس ما هو مدفون في أعماق الروح. رأت فيها وجه أمها الراحل، ثم وجوهاً أخرى
لأشخاص مرّوا بحياتها وتركوا فيها جراحاً لا تندمل: رون، أزيل، والكثيرون ممّن
هلكوا أو أصابتهم لعنة مرافقتها في هذا الدرب الموحش.

كانت تمسح خديها بارتباك، والدموع الساخنة تتساقط وتتعانق مع التربة بحرارة،
قبل أن يتراءى لها طيف فتاة جميلة ذات شعر بلاتيني متلألئ وعيون باهتة، تدور من
حولها بخفة. انحنت تلك الفتاة لتترك على جبين يارا قبلة عابرة، ثم تبددت كضباب
كثيف يذوب في الهواء.

شعرت يارا أنها تريد التخلّص من ذلك العبء الثقيل الذي يسحق كاهلها، وربما
تخلّصت منه في بعض المحطات، لكن الألم ظل راسخاً لا يزول. اليأس كان يتغلغل
فيها ببطء سام، وإحساسها بأنها بلا هوية تحمي كرامتها جعل عجزها يتضاعف.
الجميع يتلذذون بجسدها، يطمعون في قوتها، يلهثون وراء كل استعراض تقوم به،
بينما هي تعلم أنها لم تستعمل بعد سوى جزء ضئيل من طاقتها. ومع ذلك، تلك القوة
أفقدتها طعم البهجة. توسّلت، وركعت، وعوقبت، وتشوهت براءتها المعهودة، لكنّها
ظلّت مطمئناً لكل.

فتحت عينيها المثقلتين بالدموع، لتجد نظرات "تاتا" الهادئة ترمقها. يارا كانت تعرف أن تلك المرأة العجوز تحمل نصف أسرارها، ليس في هذا العالم فقط بل في العوالم التي تُساق إليها كرهاً. كانت

?

تعلم أن "ويل" يريد جسدها ليفلت من العقاب، ومع ذلك صمتت تاتا وكتمت الحقيقة، ثم قادتها نحو مصير لم تختره. صرخت يارا حينها، وللحظة خرجت كلماتها كبركان مكتوم:

.يكفي! أحقاً لم يعد لي حتى حرية الموت بهدوء؟

بدت يارا على وشك الانهيار، دموعها تحاصرها لكنها قاومت البكاء. نهضت، فرأت "جوارا" مستلقياً أمامها والجميع يحدّقون فيها بدهشة عمياء، كأنهم يقفون أمام إلهة سماوية. وضعت يارا كفيها على وجهها محاولة إخفاء بأسها، لكن الدموع تسلّلت من بين أصابعها المنهكة، لتسقط قطرة بعد أخرى على البحيرة المغمورة أسفلها. أدركت، وللمرة الألف، أن مصيرها محتوم: هروب، فهلاك، فعقاب. وما جعلها تنفجر بالبكاء أن كل من تحبّ سيلقى الهلاك إذا ما واصلوا مرافقتها في خطواتها الملعونة.

وفجأة، اقتربت منها امرأة فاتنة الملامح، شعرها البلاتيني المتموج انعكس بريقه على
سطح المياه الفضية. أزاحت يدي يارا عن وجهها، وقبّلت عينيها المنتفختين قائلةً
بصوت ملائكي خافت:

.إهدئي يا صغيرتي... أنا أفهمك.

كانت تلك الكلمات كشرارة أشعلت فيضاناً من المشاعر المكبوتة. اندفعت يارا
محطمة كل قيودها الوهمية، وغرقت في البكاء بصوت شجيّ ملأ المكان. احتضنتها
الملكة بحنان، بينما تنظر تارة إلى غابريال وتارة إلى جوارا. ثم أومأت إلى تاتا بأمر
حاسم:

.أحضري الجميع إلى قصر البياض... سوف نسوي الأمر هناك.

تعلّقت يارا بفستان الملكة، غير مبالية بخطواتها الرصينة ولا بهزاتها الهادئة. رفعت
رأسها فجأة، فانبهرت بمشهد قصرٍ عملاق، فخم، يزينه وهج بلوري؛ ورود كريستالية
لامعة تحيطه من كل جانب، والماء يسري في أرجائه بانسياب أخاذ. أكثر ما أذهل يارا
أنّها كانت تخطو فوق بلاط زجاجي هش، وتحتها أمواج عميقة تعج بأسراب الحيتان
العملاقة، وكأنّها تمشي في قاع البحر.

صرخ غابريال بانهمار، صدى صوته ارتدّ حتى أعلى القبة المطرزة بخيوط فيروزية.
وعلى عكس عالمهم البائس، انفرجت تعايير الجميع وانطلقت فرحتهم كنسيم بارد
يثلج القلوب. أمّا جوارا، فرغم انهياره، بدأت آثار التعاويذ تختفي تدريجياً. وتبدّلت
هيئة الفتاة التي رافقتهم، لتغدو في مظهر نبيل يليق بالعصور الملكية.

انفتح باب القصر على مصراعيه، وأفلتت الملكة جسد يارا لتلامس قدمها برودة الأرض الزجاجية. امتزجت المياه الفضية مع الزجاج في مشهد أسر القلوب والأنفاس. التفتت الملكة نحو تاتا وأمرتها:

.الجرحى سيُنقلون إلى غرفة التطهير... تابعي الأمر، وليفقك كون. أمّا يارا وغابريال، فسيأتون معي.

لم تُعر يارا اهتماماً للأوامر، فقد غمرتها روعة المكان. همست بخفة، وكأنّها تخاطب نفسها:

.جميل...

ابتسمت الملكة ابتسامة غامضة ثم أمسكت بيدها لتجاري خطواتها. دخلت القاعة الكبرى: نوافذ عالية من الزجاج الأحمر القاني، منقوشة عليها صور نساء فائنات بإبداع فني، وخزانة منحوت عليها جناح أصفر مهيب يلتف حول الجدار، وطاولة دائرية ضخمة تتوسط المكان.

أجلست الملكة غابريال، بينما بدت يارا كرضيع يتعثّر في خطواته، فاحتضنتها الملكة بحنان، ومسحت على شعرها الأبيض قائلة:

.روحك لم تتعافَ بعد... اجلسي، لا تعبثي بالأشياء.

ابتسمت يارا بسخرية طفيفة وهمست:

.ربما كانت محاولتي للموت يائسة هذه المرّة... سأحاول من جديد في المرة القادمة.

جلس غابريال محدّقاً في الملكة "أنيت"، فتنهّدت بعمق وقالت بجديّة:

.أعلم أنّكم لجأتم إلى هنا للضرورة، لكن ذلك لن يمرّ دون عواقب وخيمة. وأعلم يا يارا أنّك تتجنّبين استخدام طاقتك، بل تحاولين تخريب توازنك عمداً.

تأمّلت يارا وجه الملكة طويلاً قبل أن تقول:

.صحيح... حينما استخدمت طاقتي للحظة واحدة فقط، عثر ويل على منفذٍ للدخول. ولمنع الضرر، ختمت طاقتي حتى يفرغ هو سحره في جسدي. لم أكن أعلم أن جوارا سيتأذى بذلك...

ضربت الملكة الطاولة بعنف، وقالت بعصبية:

.غباؤك هو ما أوصلك لهذا! ألم تعلّمي أن ويل استغلّك لينقل سحره المحرّم إليك؟ ألم تعلّمي أن روحك قد تضررت، وأن جوارا سيدفع الثمن معك؟

خفضت يارا بصرها هاربةً من نظراتها، وقالت ببرود مستسلم:

.لا أريد أن أكون بطلة أو منقذة... إن كان العقاب قدرني فسأتحمله. ولا تقلقي، سأُخرج جوارا من هذا الأمر.

عندها صفعتها أنيت بقوة، صدى الصفعة ارتجّ في القاعة، وصاحت بغضب:
.بئساً لك يا غبية! قوّتك تكفي لتغيير مجرى العوالم كلها، وأنتِ تضيّعينها بأنانيتك.
لولا هروبك الأهوج لما استطاع ويل سرقة طاقتي ودمجها معه لإنجاب غابريال! أنتِ
من مزّق الروابط بين العوالم، وأنتِ من سمحتِ له بالنفاز إلى هنا... السحر المحرّم
أقوى من السحر النجمي، ولم أستطع صده بسببك!

تبدلت ملامح غابريال فجأة، بينما توجّمت يارا، ونهضت من مكانها وقالت بحدّة:
.وماذا تريدون مني إذن؟ ألا تستطيعون إنقاذ أنفسكم من دوني؟ لقد دفعتُ ثمن
إنقاذ ذلك العالم مئات المرات، سحر ويل الذي اخترق جسدي يمزّقني ويقودني
للجنون! لا تحكموا عليّ قبل أن تعيشوا ما عشته أنا من عذاب!

فقالت لها آنيت، وصوتها يرتعش من الغيظ الذي كان مدفوناً منذ سنين خلت، كأنه
بركان قديم بدأ يتفجر:

«إخرسي فحسب.. أنت فتاة خرقاء وغبية وغير ناضجة... على الأقل احترمي الناس
الذين كابدوا عناء غبائك. وماذا بعد موتك؟ هل تظنين أن موت المختارين سيكون
سهلاً كما تتصورين؟

سوف تكملين مهمتك، شئت أم أبيت، لأنك ولدت لأجل هذا أيها الغبية، ولأجل هذا كله نحن رفعناك رغم بؤسنا، ورغم علمنا بأننا ضعفاء.

هل تعلمين كم تعذبت من أجل الحفاظ على مملكتي لتسع قرون من الحروب الضارية، فقط بسحر لا ينفع لشيء؟ هل تعلمين أيتها الجاحدة كم تحملت فراق إبني؟ كنت ألعن الكون كله لأنه اختار فتاة ضحت بقوتها من أجل مشاعر بشرية ذابلة... هل تظنين أن تقمص دور بشري سوف يخلصك من شعورك؟ أجيبني.. ألم تتعلمي شيئاً من عالم الرماديين؟ ألم يلقنوك فن النسيان المميت؟ يجب أن تنسي ماهيتك القبيحة لتسيرى فوق الجمر.. ألم يحن وقت إظهار عظمتك؟ ألم يحن الوقت أيتها المتباهية بالضعف؟ وهل أفادك الضعف شيئاً؟ وكذلك الدموع، هل دفعت لك ثمن طموحك المستحيل هذا أو مجاملاتهم الهاوية؟ هل غيرت وضعك؟ الجميع يعرف جهلك وغبائك، لكن لأنهم متأكدون أنك أكبر من هذا، لقد وثقوا فيك أكثر من أنفسهم. هل ختم قوة ذلك الشيطان في جسدك سوف يعينك على الموت؟ لن تموتي، بل سنموت نحن لإنقاذك، يا منقذتنا.»

?

ثم سقطت آنيث مغشاً عليها، وارتطمت الأرض بجسدها كما لو أن الزمان نفسه توقف عن الدوران للحظة، والصمت الخانق غلف الغرفة.

وقفت يارا، ووجهها يكسوه الظلام الداخلي من وقع الحقيقة التي حاولت جاهداً أن تخفيها عن نفسها، كأن شبحها الداخلي ظهر فجأة ليواجهها. لكنها ابتسمت ببطء،

وعيونها تلمع بمزيج من الحزن والاستسلام، وهي تنظر إلى آنيث الممددة بين ذراعي غابريال الصامت، الذي بدى كتمثال مرسوم بدقة في ساحة خاوية من المعنى. قالت يارا، وصوتها يهتز بين الحزم والارتباك:

«قد خذلته القوة... أنا أسفة، أنا لا أعرف ماذا أفعل أو أين أذهب أو كيف سينتهي هذا... كنت أعتقد أن ابتعادي سيعيد السلام، لكنني أخطأت، وأن انجذابي الأعشى لهذه المشاعر سيعتقني من هذه الوحدة، لكنني أخطأت مرة أخرى... أو أن ذلك العقاب سوف يجبرني على أن أكون قنوعة، لكن هذا لم يحصل. لقد خسرت وتحطمت، وانتزعت كرامتي وهويتي... وكل شيء».

أنا لست بشرية. لست من الرون، ولست من الزورا أو المورون أو الرماديين أو عالم البشر. أنا من عالم تتماهى فيه المتناقضات، الذي يظهر مرة واحدة ثم يندثر... أنا أعرف من أين بدأ كل هذا. لقد سمح لي الكون أن أكون في منتصف كل شيء، لكن هذا مؤلم... أن لا تجد سربًا تأوي إليه، أو حضنًا يصفعك لتنهض من جديد.

آنيث، أنت محقة تمامًا، أنا لست ناضجة ولن أنضج، وسأبقى الفتاة العابسة التي تتذبذب مثل لهب لم يعرف مصدر ثباته.»

فجأة، سُمع صوت جر أقدام ثقيلة يقترب من الباب، واندفعت دفة الباب بعنف، كأنها تقاوم كل الهواء حولها، ليظهر جوارا واقفًا بصعوبة، وعيونه تحمل مزيجًا من القلق والإصرار، بينما كانت صدى كلمات يارا يتردد في أرجاء القصر، يلف كل زاوية وكل حجر. جذب يديها وعانقها بكل دفء، لكن ما شد انتباه يارا كان ذراعه المبتورة التي تجددت أمام عينيها، كمعجزة صغيرة تهز روحها.

ثم ظهرت تاتا وكون، وكأنهما قطع من الأحلام تتراقص في الواقع، وقالت تاتا بصوتٍ
مفعم بالقوة والهدوء:

«أنت يا يارا مزيج من السقم اللعين والشفاء الذي يعافي المريض.»

آنيت، التي بدأت تصحو تدريجيًا، طارت فجأة بين يدي غابريال، وقالت:

«أنا سأذهب، ويا يارا، لا تغضبي مني، فجرحي أقسى من كل ما تحملينه، وأنا آسفة
على كل ما قلته، لكن من الجيد أنك سمعت الحقيقة.»

ثم تبخرت، كأنها لم تكن موجودة من الأساس، وارتسمت الدهشة على وجه غابريال،
وهو يحملق إلى جوارا الذي يجرف يارا بين أحضانها بحركة حانية وملؤها الحماية،
وهمس بصوت مبجوح:

«اتركونا، أريد أن أحدثها قليلاً.»

نهض غابريال من الأرض، وعيناه غارقتان في بحر من المشاعر، لا تتزحزح، وأغلق
الباب خلفه، مغلقًا العالم كله عدا لحظة هذه العناق، بينما ظل جوارا متمسكًا بيارا
وقال بصوت هادئ ومليء بالحنان:

«قبل أن نخرج من ذلك العالم، رأيتك في حلمي تسبحين في فضاء أبيض ناصع. كنت
تطعين مرارًا وتكرارًا، وكان الألم يتداخل مع صوتك الحزين... أنا أفهم شدة هلعك يا
يارا، فليس من السهل أن يمتلك شخص بمثل رقتك هذه القوة الصارمة، وكنت
أعرف أنك غير مؤهلة لمثل هذا التوازن منذ البداية. ولو أعيد إحيائك مئات المرات،

لن تفلحي لأنك غير جاهزة. ومنذ أن تأملت عيونك الزرقاء ونحن صغار، كنت أنظر إلى عذابك في هذا العالم وكل العوالم. لذلك، لا تنتظري من أحد أن يمدك بالحنان الذي حرم منه. هناك القليل الذين يمتلكون القدرة على السخاء بهذه المشاعر التي تحملينها، وإن بدوت أنانية لأنك تريدينها مهما كان الثمن.

طعم السعادة لا يذاق بسهولة، لكن أنت رائعة بخيبتك وعيوبك، وبكل ما تحملينه من صفات... كنت أحبك لأنك تشبهين شخصًا كنت أعرفه، لكن الزمن محق ذكراه مني، فغرسه فيك. لا تفقدي الأمل في العثور على هذه المشاعر، فهي باهظة، فأجسادنا عرضة للفناء والزوال، لكن ما نكنه في قلوبنا لا يمحي، حتى لو اقتلعنا من رحم الخير نفسه. حتى لو كنت شريرة، فأنت جيدة في نظري ونظر الجميع. الملكة كانت تقول ذلك تحت تأثير تجاربها في الحياة، وكلامها معقول، لأنك لست قادرة على تغيير مكانك في هذا العالم، وعلى هذا النحو تستمرين في تغييره حسب ما تريدين، وأنت تعلمين جيدًا أنك قادرة على تغييره.»

?

قالت يارا، وهي ترفع رأسها من حضنه، وتراجع قليلاً لتتنفس بعمق، وعيناها تحملان حزنًا مختلطًا بالعزم:

«أعلم هذا يا جوارا، وأعتز بكم جميعًا، لكن بما أنني ختمت قوتي، فلن أستطيع التخلص من قوة ويل... تعرف، أستطيع امتصاص قوة الآخرين وإخراجها في أشكال عدة، لكن قوة ويل محرمة. لذلك، لا أستطيع إدماجها مع العالم.»

قاطع جوارا كلامها وهو يضع جسده على الكرسي، عيناه تتوهجان بالفضول والقلق:
«كيف لختم قوتك أن يفيد؟ أخبريني.»

قالت يارا وهي تحقق فيه بعينين مثقلتين بالوعي:
«امتصت طاقة الشيطان، التي هي منبتها العالم نفسه، لكن طاقة ويل مصطنعة
وليست من العالم، لذلك عالمنا يحظر كل طاقة تظهر خارج أصل الطاقات الأخرى،
مثل طاقتي. وعندما امتصتها، طمست طاقتي، لكن ذلك أدى إلى كارثة.»

قال جوارا، متممًا بدهشة: «كيف؟»

قالت يارا، وصوتها يمزج القلق بالتصميم:
«الأمر أن طاقة ويل يمكن أن تخرج من جسدي في أي وقت، لأنني لست صاحبها،
وقدرتي على كبحها مسألة وقت. وإن خرجت أو ظهرت طاقتي قبل خروجها، سوف
تحدث كارثة. لذلك كانت الملكة غاضبة.»

قال جوارا، وعيناه تتسعان: «كيف ولماذا فعلت ذلك؟»

قالت يارا، بنبرة حادة وحزينة: «ذلك بفعل السحر... السحر يدنس كل روح نقية، ومع
ضعف الروح يمكن أن يحولها السحر إلى وحش، لكن المفرح أنك قوي.»

قال جوارا: «ما العمل إذن؟»

قالت يارا: «غابريال هو أملنا في دحض هذا السحر. ويل كان لديه قدرة على إخضاع السحر، لأن جسده مؤهل لذلك، ولأن غابريال ابنه، أظن أن لديه القدرة، وأيضًا قدرته التي امتلكها من الملكة.»

قال جوارا: «التطهير تعنين؟»

قالت يارا: «نعم، التطهير يفصل الطاقة الضارة عن النافعة، وأظن أن هذا ما حدث لك.»

قال جوارا: «كيف تعلمين كل هذا؟»

قالت يارا بسخرية، وابتسامة مريرة ترسم على وجهها: «الكون يمدني بالقليل من المعلومات الاستباقية أحيانًا.»

قال جوارا، وهو يضع يده على قلبه: «المشكلة أن غابريال صعب المراس، ولن يصدق كلامك أبدًا.»

قالت يارا لنفسها، وهي تتوسد الأرض المبللة بفتور، والندى يتسلل إلى ثنايا شعرها المتناثر على كتفها: عالم جميل لكنه يتيم الآمال.. طموح هذا العالم يقتصر على تثبيت أسس النقاء... لقد مر على هذا العالم أيام سوداء مثل ليالٍ تعيسة، حيث خيم الظلام على الأفق وأخفت الغيوم شمس الحقيقة.

قاطعها جوارا، وقد سمع همساتها الخفيفة تتلاشى بين صمت الغرفة والريح العابرة من نافذتها المفتوحة، فأشعرهما اللقاء النادر بإرتياح عجيب في صدر جوارا، الذي لم يحدث يارا بمثل هذا العمق من قبل.. كان الحب يفترس أوتار قلبه المنطفئ، فتتردد خفقات قلبه في الصمت، كما لو أن النجوم المنطفئة في السماء تحاكي حاله.. أو مثل هذه السماء الملبدة بأضواء زرقاء تنبعث من كواكب متناثرة كالخرز، تبعث في النفوس رهبة وغرابة.

كلاهما يشعران بالغربة، وكأن العالم كله ألقى بثقله عليهما، شوهت المعارك الحامية قدرتهما على الهدوء؛ كان جوارا يتقلب مثل المسعور في فراشه بسبب خوفه من أن يلتهم وهو مغمض العينين، فيما تتناثر في ذهنه صور المعارك القديمة والأنين المدفون بين الصخور. أغمض عيناه بهدوء طويل، وكأنما يحاول أن يجد ملاذه في صمت الليل، وقال ليارا الجالسة على حافة النافذة المطعمة بزجاج شفاف: «لماذا تسردين قصص الجميع دون تعب؟»

قالت يارا، وهي تنظر إليه بطفولية، وابتسامة خفيفة ترسم على شفثها: «هل ستخرس وتستمع أم ماذا؟»

قال، وهو يضحك بخفة تخلصها إحساس بالمودة: «أكملني.»

قالت يارا بعد أن نهضت من النافذة واقتربت بخطى رشيقة نحو جوارا، الذي انعكس بريق عينيه الزرقاوين بسبب القمر المطل من السماء، كأنه يسبر غور أعماق الكون: «ذلك القمر ظهر منذ 5 قرون، عندما احتدمت معركة بين الزوديا والنيروم... عالمان ينفران من بعضهما بسبب أن القمر يرسل طاقته باستمرار كل سنة إليهما، ولأن القمر في العالمين مهم جداً.. والجيد أن القمر كان ترقاه الأزرق يروي التربة المدججة بالسحر.. ويحمي كل من يلمس التراب.»

وقال جوارا، وهو يقطب حاجبيه بتساؤل متلهف: «هل يحتوي التراب سحراً؟»

قالت يارا: «نعم، تراب عالم النيروم سحره ينتشر في الأجساد كالطاعون.. كان السحر خطيراً جداً.»

قاطع جوارا يارا، وهو يتأمل وجهها المنشرح مع الأحداث التي ترونها، وقال: «أنت حقاً لن تكبري.. لا تفعل ذلك بأنفك، وأخبريني، هل كل هذا من الكون حقاً؟»

قالت يارا، وقد انتابها غضب لسخرية جوارا، فقرصته وقالت: «لا تقاطعني لأكمل.»

كان عالم الزوديا ترابه خطيراً بسبب السحر، وعالم النيروم السحر متأصل في شجرة فارهة الطول، لكن مع انتشار الإصابات بسبب التراب في عالم الزوديا، استخدم شعب الأركانيس قدرتهم الفريدة على تفادي السحر لإنقاذ بقية شعوب الزوديا، مثل شعب يلعب بالطوفانيون أو الآريون.. يستطيعون تحويل الجماد أو الفضاء المقفر إلى بحيرة من المياه التي تبتلع كل شيء تقريباً في المكان، وتحوّله إلى مستعمرة مائية تطفو.. لكن نقطة ضعفهم أنهم غير مدربين لحماية أنفسهم من السحر.

هذه المياه هي خليط جذاب من السحر النجمي وقوة القمر الأزرق، وأيضاً تخيل أنهم يمتطون أحصنة في تلك البحيرات المعمرة بالبنائات الصدفية.. مشهدها يأسر النفوس، ويترك أثراً من الرهبة والجمال معاً.

السحر النجمي عند الآريون ليس مجرد طاقة تُستدعى من السماء، بل هو سرهم الأعظم الذي يطلقون عليه المد الكوني؛ ينبع هذا السحر من شعاع نقي يولد في موضع بعيد يسمى عين الخلق، حيث تتقاطع مجرتان في عناق أبدي، وعندما يختلط هذا الشعاع بطاقة القمر الأزرق يتحول إلى مياه حية قادرة على إذابة التراب وصياغته من جديد بحراً عميقاً يموج بالكائنات العجيبة، كأنها بعثت من ذاكرة الكون ذاته.

لا تقتصر وظيفته على الإغراق والتحويل، بل يعد أيضاً لغة كونية؛ فمن انعكاس مياهه يقرأ الآيون خرائط النجوم والطاقت المسترسلة من القمر الأزرق، ويحفظون في أعماق تلك المياه امتداد الإشعاعات الكونية، فهي بمثابة بريد كوني نجمي متموج.

لكن استدعاء السحر النجمي ليس هيناً، فإذا لم ينفتح المد الكوني إلا بطقس اصطفاف عند اكتمال القمر الأزرق، حيث تتلاقى دوائر النجوم على الأرض مع أول قطرة فيض سماوات، فإنه يبقى مجرد حلم بعيد المنال.

ابتلع جواراً أنفاسه من أثر الدهشة، وقال، والفضول يخنق عقله الصغير:
«والأركانيس كيف استطاعوا حماية هذا الشعب العظيم من السحر؟ ما سرهم؟»

قالت يارا، وقد عدلت جلستها، وتواصل فمها في سرد ما تبقى من سر هذا العالم العجيب:

الأركانيس، فرع الزوديا المولود من رحم التربة، يعيشون في أراضٍ لا تشبه أي أرض أخرى. يمشون على أقدام طويلة تنتهي بأصابع غليظة تشبه جذور شجرة عتيقة، تغرس نفسها في الأرض مع كل خطوة. من تلك الجذور تنبعث شحنات كهرومغناطيسية تتصاعد إلى السماء في ومضات برق خاطفة، ثم ترتد في شكل انفجار يهز التربة ويكشف عن معادنها المخبأة. ومع مرور الزمن، تحولت أراضهم إلى سهول من تربة معدنية زرقاء، صلبة كال فولاذ بفضل طاقة القمر الأزرق التي اخترقتها، ومشبعة بطاقة متراكمة تحفظ فيها الصدمات كأنها خزائن حيّة للكهرباء.

هكذا صارت بيئتهم مرآة لقوتهم: أرض متقدمة، تنبض بشرر دائم، تحرس نقاء الزوديا من سحر الخراب وتحوّله إلى معدن أزرق خالد.

?

وقطع هذا التلاحم المهيّب سؤال جوارا: «ما هو هذا السحر الذي قد يهلك شعبًا بأكمله؟»

فقالت يارا، وهي تفرك خدها بإمعان:



سحر الخراب هو اللعنة التي تسكن التربة منذ فجر الأزمنة، قوة مظلمة تتغذى على أنقى ما في الكائنات. جوهره طاقة خفية تتسرّب من باطن الأرض كالودود الخفي، تبحث عن جوهر النقاء في أجساد الزوديا لتمتصه ببطء. وما أن يعلق أثره بروحهم، حتى يبدأ في نخرها كما ينخر السوس الخشب، فيذبل الجسد وتخفت الهالة النقية حتى ينهار صاحبه في موت صامت. قوته قاتلة لأنه لا يرى بالعين ولا يُصدّ بالسلّاح، بل يسري في التراب نفسه؛ كل أرض موبوءة به تتحول إلى فخّ قاتل للزوديا، يسرق نقاءهم قطرة بعد قطرة حتى يفنوا. هو سحر لا يواجهه سوى الأركانيس، إذ أن صدماتهم الكهرومغناطيسية تمزّق خيوطه وتحول مساره، فتجعل الأرض من مصدر فناء إلى حصن واقٍ.

صمتت يارا قليلاً، ثم نهضت قليلاً ونفضت ركبتيها، وقالت لجوارا: «أظن أن أسرار هذه العوالم أصابتني بالنعاس، سوف أذهب للنوم.»

قال جوارا، وهو ينتفض من التذمر: «أكملي أرجوك.»

قالت يارا، وهي تتثاءب: «من السيء أن تتعجل في معرفة كل شيء.»

قال جوارا: «لكن كيف عرفت مكنون هذا العالم، وأنت وضعت قدمك فيه اليوم؟»

نظرت إليه نظرة أقشعر لها جسده، ثم قالت: «المعرفة التامة لا تهتم، مادمت لا أستطيع تغيير الواقع الملموس.»

قال جوارا، وهو يتفحصها ملياً: «هيا أخبريني.»

اقتربت منه وقرصت بلطف أنفه: «أنا الكون، والكون أنا، ليس من العسير على فتاة مثلي أن تستخدم عقلها المبهر في معرفة ما يحتويه من عجائب.»

قال جوارا، في لحظة إدراك: «هل يعقل أنك عشت هنا؟»

قالت يارا، محاولة إخماد جنون أسئلته بجواب حاسم وجدي: «أنا لم أظأ هذا العالم إلا اليوم، لكن ربما لم أرد معرفة كيفية استخدام طاقتي، لكن ذلك لم يمنعني من الاطلاع على أسرار الكون و عوالمه.. والآن نم قبل أن ألكمك أيها الوغد.»

ضحك جوارا وهو يشاهد يارا وهي تلقي بجسدها بكل غضب على السرير، ثم قال بشيء من الحزن: «أظن أن الكون دائماً يجرك إلى الخلاص بعد أن توقعي نفسك في شرك المشاعر.»

أغمضت يارا عينيها وهي تستمع لكلمات جوارا وقالت: «أظن ذلك.»

استيقظ جوارا من فراشه لتخلد عيناه إلى مشهد السماء الخلاب التي زينت بأباريق كونية تتدل من حلقات دائرية فقال في نفسه: سماء هذا العالم تشبه سماء عالم البشر كثيرا و كل العوالم تترايط و تتجانس في صفات تبدوا غريبة و الغريب أن يارا قد أفسدت متعة سرد حقيقة عالم زوديا ثم شعر جوارا بإضطراب في الأرضية الزجاجية و كأنها ضربات إطلاق النار ثم إقترب من النافذة ليرى شخصا عملاقا يرتدي وشاحا برتقاليا و سترة منقطة بلون كستنائي بديع و رأسه صغير جدا على عكس كتفيه العريضين كأنه كيس ملاكمة لكن بوجه هامستر و لكن دون أن يعي جوارا تصادمت عيون الكائن بعيونه فلم يتحرك جوارا بل تمادى في إكتشاف تفاصيل هذا الكائن الغريب الذي يملك عيوننا تشبه الطوقان و قال جوارا بلهجة تنم عن الصدق تتماهى معها تعابير المندehشة: هذا رائع...

تجاهل الكائن جوارا و أكمل طريقه إلى داخل القصر الزجاجي بخطوات رصينة وهيبة فاخرة كأنه من زمن الملوك الأثرياء لكنه توقف لينظر إلى جوارا المائل امامه بأنفاسه المتقطعة بسبب ركضه من الغرفة إلى ممر القصر

نظر إليه الكائن بنظرة إستعلاء ثم تحاشاه و إنصرف لكن جوارا قال له معترضاً سبيله و يديه مفتوحين على مصراعيها: أنت هو نعم أنت تشبه

الأركانيس الذي أخبرني عنه يارا صحيح

نظر الكائن إليه بإمتعاض غريب و كأنه يتلمظ تعابيره الساخطة ليخرجها في شكل كلمات لاذعة لكنه تراجع و إنحنى بهدوء نحو جوارا و قال به بصوت عاصف مزلز: لا ت...ط...مع ..أنت مجرد حثالة

لكن قبل أن يستوعب جوارا إنتبه إلى أبيه و عيونه تتوهج بغضب مشوه و قبل أن يتفوه جوارا بكلمة واحدة إرتد سيف كون نحو الكائن الذي تنهد تنهيدة طويلة كأنه يعلن إنساحبه من هذا اللقاء الغامض و لكن كون أحس بالخطر تنبعث من هالة هذا المخلوق و خاصة قدميه الصارختين بقوة نامية كأنها من مزيج السماء نفسها فوثب نحوه لكن قبل أن يصل إليه داهمت الملكة آنيت بصوتها فإحتل الهدوء مكان النظرات الخطيرة ثم حملق الكائن في يارا التي تمشي بتثاقل وراء الملكة ثم إنحنى و قال: سيدتي المختارة أتمنى أنك حظيت بنوم جميل

لم يفهم الجميع ما يقصده الكائن إلا عندما قالت الملكة: أيها الضيف الموقر نحن آسفون على هذه الإستضافة الفظة سوف اتأكد من أن يتم الإعتذار إليك بشكل مناسب و إلتفتت إلى يارا التي بالكاد فتحت عينيها ثم توسعت ضحكتها و تعالت في أرجاء القصر بسبب وجه كون المصدوم هو و جوارا تقدمت يارا بخطوات ناعسة

ووضعت يدها على كتف كون و قالت: لقد أغضبت ملكة هذا العالم ليس من الجيد
إستخدام غريزتك الفائقة هنا هيا إذهب و أنت يا جوارا مازلت لم تتعافى
إنصرف دون تدمير

إنصرف الآخرا و ظل الأركنيس يحوم حول يارا بتوازن و قال : سيدتي المختارة
إسمحي لي أن أقول أن حضورك المباغت إلى عالمنا كان صدمة حرفيا لأن هذا
الحضور قد نجم عنه خلل بسيط

في حقل الضياع

إلتفتت يارا إلى الملكة: نعم بوابة حقل الضياع قد وهنت بسبب دخولكم السريع إلى
عالمنا و أيضا لأن أجسادكم حينها كان زاخرة بالسحر المحرم قد إنحرفت بذلك كل
موازين هذا العالم سوف يرافقك السيد أورافين ديركويل إلى قبر الزولفيان
صعقت يارا فور سماعها لهذا المكان و قالت للسيد أورافين : لكن هل حقا إندثر هذا
الشعب أيها السيد

اوما أورافين برأسه للملكة إجلالا و تعظيما ثم حمل يارا بين ذراعيه المطرزة بورود
صوفيه جميلة و قال لها : سيدتي أخفضي رأسك

أخفضت يارا رأسها ثم أطبق أورافين يده على اليد التي تحمل يارا ثم شعرت يارا
بصدمة متتالية تنهمر على الأرض المائية و التي تركت أصوات تشبه زئير الموتى ثم
أحست بجسدها يختفي رويدا رويدا وسط ظلام دامس و سمعت يارا صوت يتكسر
من تحت أقدام اورافين الذي بدأ و كأنه يتمشى على جثث متفحمة ثم صمت
الضجيج لتفتح يارا عينها امام منزل معدني بلون ازرق غارق في السواد. تحتها أرض
مكسوة بطبقة لزجة من مادة حمراء تشبه صخورا منصهرة و من بينها طبقة حديدية
ملساء

فتح أورافين يده أمام منزله فهمت يارا بسؤاله لكنها تراجعته و قالت: ما هذا المكان
قلب اورافين نظره عبر الأفق المتصدع بألوان غائمة ثم قال: أمطار كربونية سوف
تتساقط قريباً من الخطر التجول في هذا الوقت لندخل إلى المنزل لكن قبل ان
يتخطى أورافين عتبة الباب سمع صوت خطوات شخص ما فنادى بصوت حنون :
إفتحي أرجوك

فظهرت من الداخل فتاة شامخة الطول لكن ليس بطول أورافين و كانت ترتدي قبعة
زهريّة مع ثوب محاك من مادة النحاس الخالص و مزيج من اللؤلؤ النادر كانت قد
أحاط بعنقها الرقيق و شعرها الأخضر الداكن و أطرافه الملطخة بلون أسود مائع
قد أحبط يارا قليلاً لأن هذه المرأة ذوقها لا يختلف عن ذوق أورافين الغريب ثم مدت
المرأة يدها و حملت يارا و رمت على رأسها فستاناً مصنوعاً من خيوط الشمع و
السكر الحجري.. إستغربت يارا من هذا الثوب فسألت عن ماهيته فاجابتها المرأة و هي
تدفع أورافين إلى الداخل و لما أطبقت الباب إنشقت شفّتها بكلمات عذبة رقيقة
إرتديه لكي يمنع رائحة الأمطار من التسرب إلى جسد

فقاطع أورافين المرأة و قال: لا تعتمدى على مكانتك أيتها المختارة فهذا العالم أشد
فتكا من عالمك الوردي ثم نهزته المرأة و رمقت يارا بهدوء: لا تستمعي إليه سوف
أحضر لكما شاي اوراق العنبر اللذيذ

تلاشى ظل المرأة إلى داخل الغرفة ثم إنتهت يارا إلى أصوات تنقر سطح المنزل فقال
أورافين: سوف أخبرك بشئ هذه الليلة بعد إنقضاء الأمطار سوف يحدث هجوم ما
قالت يارا بإهتمام: كيف و لماذا و متى

قال أورافين و هو يلاعب أكمامه الصوفية: في عالم الزوديا، ليست الأمطار الكربونية مجرد ظاهرة عابرة، بل هي ندبة في قلب السماء تولد كلما تصادمت الانفجارات الكهرومغناطيسية للأركنيس مع تدفق السحر الخام. هذه الصدمات، حين تتسرب إلى أعلى الطبقات الجوية، تتخثر مع غبار النجوم وتتحول إلى سائل كربوني أسود يقطر من السماء كسيوف مذابة.

عندما تمس هذه القطرات أجساد الأركنيس، لا تترك جروحًا عادية... بل تذيب الخلايا الحية قطرة قطرة، حتى ينهار الجسد كما يذوب المعدن في أتون النار. ولهذا السبب ابتكر الأركنيس بيوتهم العجيبة: قصدير صلب يحمي الداخل، مدعم بدعائم من ألماس نادر يُثبَّت بقوالب من زئبق مذاب. حين يبرد الزئبق ويتجمد على السطح، يكون طبقة لامعة كالمرايا، تعكس لونا خاطفاً أشبه ببرق جامد، مانعةً أي تسرب للأمطار القاتلة.

ويُقال إن هذا الوميض الخاطف يجعل سماء مدن الأركنيس عند هطول الأمطار تبدو كأنها عالم من المرايا المضيئة، لكن خلف هذا الجمال يختبئ الرعب... إذ لا يجرؤ أحد من الأركنيس على الخروج، لأن مجرد قطرة قد تعني نهاية محتومة.

و لكن في الآونة الأخيرة تلقينا هجوما من وحوش زحفت إلى هذا المكان تسمى الوحوش العاقرة إنها من عالمكم...تمكن ذلك الساحر من إقحامها إلى هذا العالم و كل فترة تظهر بعد هدوء العاصفة و تدمر الأرض المانعة للسحر لذلك أظن أنها هنا الآن

نظرت يارا من النافذة الطويلة لكنها لم تلمح شيئاً لكن فجأة نهض أورافين و نادى على زوجته : لوريثا المطرقة

هرعت لوريثا نحوه مناولة إياه المطرقة كان مسننة من الواجهة الأمامية و تصدر من قبضتها شرارات كثيرة

نظر أورافين إلى يارا: لا تخرجي حتى أنادي عليك...

قالت يارا: لكن إنتظر

أغلق أورافين الباب بقوة و خرج غير مبال بهتاف يارا

لم تطق يارا الجلوس فوق الكرسي المعدني؛ كانت أصابعها تتشبث بركبتها بخوف مريع، فيما عيناها لا تفارقان النافذة وكأنها ساحةٌ لمصير مجهول. ثم التفتت إلى لوريثا، وصوتها يكاد ينكسر:

«إن الأمطار مازالت تهطل... ما العمل؟ هل سيكون السيد أورافين بخير؟»

أدركت لوريثا، من ارتجاف ملامحها، أن يارا توشك على الجنون من فرط التحديق في الخارج. فانحنت نحوها، أغمضت عينيها محاولة بث الطمأنينة، وقالت بهدوء مصطنع:

«لا تقلقي سيدتي... استرخي. أورافين سوف يتولى كل شيء.»

غير أن تلك الكلمات المقفرة لم تستطع أن تنفذ إلى قلب يارا، بل زادت بها ضيقاً. فاندفعت صوب الباب بخطوات متسارعة، لكن لوريثا اعترضت طريقها وحذرتها:

«المطر سوف يؤذيك!»

وما إن حاولت يارا ابتلاع أنفاسها المرتجفة، حتى دوى في الخارج صوت تمزق قوي، فاضطربت حركتها وامتنع لونها. تقدمت بضع خطوات مرتعشة نحو الباب، وإذ بها تسمع ارتطامًا صاخبًا جعل الأرض تحتها ترتعش. دفعت الباب بكل قوتها، وما إن انفتح حتى تسمرت مكانها؛ لقد رأت دماء أورافين تسيل وتختلط بسواد الأمطار الكربونية التي شوهدت ذراعيه الطويلتين. وأمام جسده المترنح وقف وحش عاقر، مختلف قليلاً عن المعتاد، فتمتعت بصوت خانق:

«... أبيض!»

لكن الوحش لم يمهلها لحظةً للاستيعاب؛ انقض على أورافين الذي يكابد لإبعاد المطر عن جسده المتعب. وفي الخلف، ارتسمت على وجه لوريثا ابتسامة فارغة، وهي تهمس بصوت بارد موجّهة بصرها نحو ملامح يارا المنكسرة:

«من السهل رؤية الألم، لكن من الصعب محو أثره من العالم. ألم تختاري أنتِ التضحية بالآلام الآخرين لأجل تحرير نفسك من المصير؟... فماذا ستفعلين الآن؟»

صرخ أورافين صرخة هائلة اهتزت لها الأرضية الملطخة بصدمات كهرومغناطيسية، فأثارت عواصف رعديّة اجتاحت السماء من حول البيت القصديري. كانت يارا تحدّق في أنينه الموضع، فيما زمجر الوحش الغريب وبدأ ينبش بمخالبه الحادة في التربة، كأنه يبحث عن مخرج للخراب.

وبينما أوشك جسده على الانهيار، نهض أورافين بعياء. كان المطر ينحدر عن وجهه كما لو يغسله من الحياة، لكنه مد يده المثقلة نحو المطرقة التي سقطت بعيدًا. وما إن قبض عليها حتى هوى بها على الأرض، فانتفشت التربة وأرعد الفضاء من حوله بصوت احتكاك قاتم، ارتج له صدر السماء. عندها توهجت ساقاه، وانبثقت منهما جذور كهربائية امتدت كأفاعٍ نارية، فصعقت الوحش وأطاحت أرضًا.

غير أن ذلك لم يكن كافيًا. فالوحش، بعناد لا يُكسر، استعاد وعيه بسرعة وانقض على أورافين، مغرسًا مخالبه الفضية في كتفه. ومع الطعنة، انطلقت ومضات نابضة، مثل عروق سوداء مسمومة، تفشت في جسده حتى غزت كل أطرافه.

وفي تلك اللحظة الحرجة، ظلت يارا عالقة بين الصراع الدامي. غير أن الخوف تحوّل في صدرها إلى دفقة مريعة؛ كأن جرعة أدرينالين فائقة اخترقت دماءها، فتطاير من عينيها بريق شراري محتقن. همست بصوت خافت، يتهدج كأنه حديث إلى نفسها: «بئسًا... بئسًا... بئسًا... هذا مريع... كيف سأتصرف الآن؟ ما العمل؟! أشعر أن سحر ويل سيفسد كل شيء، وطاقتي مختومة... فكري... فكري!»

وإذ رمقتها عيناها بالصدفة، لمحت في المطبخ خنجرًا ضخماً، فاندفعت نحوه وأمسكته. ثم، كمن تتحدى حتفها، دفعت بجسدها نحو الوحش المتشبث بمخالبه في جسد أورافين. قفزت عاليًا، وكان فستانها الأبيض يتطاير مذابًا في بقايا الشمع

والسكر الحجري البراق، فيما انسكب شعرها الأبيض، المبلل برائحة الكربونات، على كتفيها.

وبقوة قدميها العاريتين نسفت الأرض تحتها نسفًا، قبل أن تطلق صرخة مرعبة من حنجرتها، وهي تهوي بالخنجر نحو عنق الوحش. لكن الأخير تفتن لهجومها وتراجع بسرعة، فهوت يارا أرضًا قبل أن تصل إلى هدفها.

ومع ذلك، لم تستسلم. نهضت فجأة، وجهها مبلل بالعرق والمطر، وسددت ركلة جانبية أصابت عين الوحش اليمنى، تلتها لكمة قاسية ارتج لها فكّه. ومع أن المطر الكربوني كان يتساقط بثقل قاتل على جسدها، إلا أن الذي أحرقها حقًا كان نظرات الوحش المقيتة. فترامت نحوه بخطوات مختلفة، تتعمد تشتيت حركتها حتى لا يفر منها، ثم اندفعت كعاصفة هوجاء ولوّحت بخنجرها مجددًا نحو عنقه. هذه المرة أصابته، لكن الضربة كانت ضعيفة، ومع ذلك بقي الخنجر يتأرجح فوق عنقه، فيما الوحش يتخبط كالمجنون محاولًا إبعادها... لكن يارا لم تتراجع.

?

وفي تلك الأثناء، أزاح أوراфин المطر عن وجهه، وندت عنه ضحكة عميقة كأنها سخريّة من الهاوية. قال لها بصوت يقطر مرارة:

«اللعب مع الهرة أمر رائع... لكن يا يارا، ماذا تفعلين؟!»

لم تلتفت يارا إلى كلماته، بل واصلت تسديد اللكمات بعنف، حتى اتضح لها أن هذا الوحش لم يكن إلا هِرًّا من فصيلة النيس، مشتقًّا أساسًا من شعب الأركنيس.

مدَّ أورافين يديه قليلًا، ثم التفت إلى زوجته وأمرها بأخذ المطرقة، وهو يقول ببرود ساخر:

«ظننت أنها ستنجح في إمتاعنا... لكنها فتاة صغيرة مشاكسة.»

وفجأة، توقف المطر، وتلاشت الألوان الغائمة من السماء، لتتكشف سماء أهدأ. اقترب أورافين بخطوات متناغمة، رغم جروحه النازفة، وانتشل يارا من فستانها الأبيض، رافعًا إياها إلى فوق، قبل أن يؤشر بعينه إلى الوحش بالتراجع.

جلس الوحش عندئذٍ، وتبدلت ملامحه الوحشية إلى هيئة وديعة ناعمة، تماهى لونه الثلجي مع بريق الأرض الزرقاء، ثم انغمس في لعق قدمه ببرود كأنه لم يقاتل منذ لحظات.

نظر أورافين إلى يارا وقال بنبرة صارمة:

«لديك غريزة مثالية للقتل، لكنك لم تتقني استخدام توازنك بعد... حتى بابتلاعك لسحر ذلك المجنون.»

فقالت يارا وقد ارتجفت كلماتها:

«لكن... ألم تكن على وشك الموت؟ كنت أريد مساعدتك، سيد أورافين...»

قطع دهشتها صوت السيدة لوريثا من داخل المنزل، وهي تضحك ضحكة راقية،
قائلة:

«سيدتي... بهذا المعدل لن تستطيعي تجاوز مقبرة الزولفيان. أو ربما سوف تجرفك
أرضهم قبل أن تفكري بشيء!»

فجأة شحب لون يارا، فيما سحب أورافين الخنجر من يدها وهدق في عينيها
الشاردين، ثم قال بحزم:

«هل كنت ستفرغين طاقتك مع طاقة ذلك المجنون هنا؟! لوهلة شعرت بفيض من
الطاقة يتسرب منك، لكنك لم تدركي ذلك حتى... بل وواصلتِ تنسيق هجومك
ببراعة. غير أن ذلك أدى إلى استنزاف طاقتك سريعًا. انظري إلى وجهك المنهار...
سيدتي، ألم تتعلمي كيف تحافظين على طاقتك من الإهدار العشوائي؟»

أجابت يارا بكلمات تائية، كأنها تخرج من لا وعيها:

«إهدار...؟ عن ماذا تتحدث أيها السيد؟»

لَوَّح أورافين بالخنجر مرتين في الهواء، حتى بدا معدنه يلمع بلون دموي داكن
وساطع، ثم قال لها:

«أنتِ أفرغتِ غضبك المتورم هنا... وهذا اللون الحامي ليس غضبًا عاديًا. حتى في نوباتك، لا تستطيعين كبح جماح طاقتك من التسرب. يارا... اسمعيني جيدًا: أعلم أنك قوية، لكن من المخزي أن تتصرفي على هذا النحو الدرامي. لو لم تتوقفي، ربما فجّرتِ المعدن الموصول بالأرض وأطلقتِ سحر الخراب. لذلك أنصحك أن تتخلي عن مشاعرك، وتفكري بعقلانية.»

ثم تركها أورافين، ودخل المنزل بخطوات حازمة. وإثر ذلك اقتربت لوريثا من يارا وقالت بنبرة أكثر رفقًا:

«سوف تستمرين في التدريب على فصل مشاعرك عن طاقتك، حتى تستطيعي اجتياز مقبرة الزولفيان. وهناك، ربما نجد حلًا لسحر ذلك الشرير.

استمعي جيدًا... شعب الزولفيان لم يُخلق ليعيش على سطح عالم الزوديا فقط، بل نشأ من صهارة ثلاث عوالم: الرماديون، عالمك، والزوديا. ومن هذا المزج الفريد وُلدت قوته وسحره الغامض.

من الرماديين استلهم الزولفيان أجسادًا قوية وعضلات مرنة، صُممت لتحمل الضغط الهائل تحت الأرض، وللزحف في الأنفاق المشبعة بالسحر الأسود دون أن تمسهم السموم أو التشوهات.

ومن عالمك، اكتسبوا التحكم بعناصر الطبيعة: يستطيعون استدعاء الرياح، تحريك المياه، أو توجيه الزلازل الصغيرة بدقة، ما يجعلهم أسياد الأرض والهواء تحت أقدامهم.

أما من عالم الزوديا، فقد ورثوا سرّ خلق الجاذبية؛ قوة تحفظ ثبات السماء والأرض حتى في أحلك الفوضى، خصوصًا مع تقلبات شعب الأيون والأركنيس الذين يغيرون التركيبة الفيزيائية للعالم باستمرار.

إنهم الضمانة الخفية للتوازن: فبدونهم، يصبح سقوط السماء ممكنًا، والأرض مهددة بانفجارات كهرومغناطيسية، خاصة حين تتفاعل قوة القمر الأزرق مع السحر النجمي، فتكوّن طبقة رخوة من الفضاء، أشبه بقشرة واهنة تكاد تنهار.

الزولفيان قلّمًا يظهرون على السطح؛ فهم مناضلون نائمون، يسكنون الأعماق، يخططون بصمت، ولا يخرجون إلا حين تهدد الكوارث توازن الأكوان. حينها فقط يظهرون بسرعة رهيبة ودون ضجيج ليعيدوا الاستقرار.

يُحكى أن أعين الزولفيان تشبه النجوم المحترقة في باطن الأرض، قادرة على رؤية التيارات السحرية الخفية، وكشف أي خلل قبل أن يتحول إلى كارثة. حركتهم سلسلة كالماء، وقوة أجسادهم تجعل الزحف في الأنفاق المشبعة بالسحر الأسود أبسط من التنفس، حتى أن الأرض نفسها تخضع لهم وتسمح لهم بالمرور بلا أثر.

باختصار... الزولفيان هم حراس التوازن الخفي لعالم الزوديا، أبناء الماضي المستعار من العوالم الثلاثة، الذين يحملون قوة الأرض والسماء والظل معًا.

وبما أنك أحضرت سحرًا محرّمًا وطاقة لا تستطيعين التحكم فيها، فأنتِ يجب أن تذهبي إليهم. وذلك المكان، لا يمكنك أن تتجولي فيه بحماقة؛ فأني خطر يشعرون به سيدمرونك بلا رحمة. ولهذا أورافين يقسو عليك... انتبهي يا عزيزتي وركزي.»

ثم رمت الخنجر أمام يارا، وأومأت للهر أن يتبعها، وقبل أن توصل الباب قالت: «سوف تتدربين الليل كله على معالجة تلك الطاقة الهوجاء... يجب أن تسحبها وتحولها إلى طاقة مستقرة. حظًا موفقًا... ولا تقلقي، سأحضر لك الحساء.»

انهارت يارا على الأرض، علامات الصدمة بادية على وجهها، ولم تنبس بكلمة. مدت يدها المرتعشة نحو الخنجر، وهمست بتلعثم، كأنها تخاطب نفسها أكثر مما تخاطب العالم:

«كيف... كيف... كيف سأفعل ذلك؟...»

دموع يارا تتساقط بغزارة بعد أن انشطرت السماء بلون الشفق، معلنة بداية لحظة اختبارها الكبرى. قالت لنفسها بصوت مرتجف:

«لكن أليس غابريال هو من يستطيع تخليصي من السحر... لماذا لم يحدثه أحد في هذا... لماذا دائماً أواجه المستحيل وحدي... لقد ختمت طاقتي مرة، والآن تسربت كفيضان هائج، ويدي الواهنة هذه لا تقوى على رفع شيء، وهذا المكان الغريب الذي علقت فيه... ماذا أفعل؟ أشعر أنني ضائعة.»

وفي الوقت ذاته، تعالت أصوات التصادمات الكهرومغناطيسية من تحتها، صرير مزعج وحاد اخترق صمت المكان، وكأن الأرض نفسها تنبض بالخطر. رفعت يارا يديها المرهقتين بالخدوش، تأملت لهما للحظة قصيرة، ثم همت مجدداً إلى تناول الخنجر. نهضت بكل عزم وإصرار، أغمضت عينيها بإحكام، وأوصدت قدميها في الأرض الرطبة، متناسية كل الألم، محاولة إخراج طاقتها بهدوء دون أن تُغرق مشاعرها في السحر المحرم. واصلت استدعاء قوتها مراراً وتكراراً، وكلما حاولت بإستماتة الوصول، ارتعش الخنجر في يديها وكأنه يرفض ما تحاول.

اتخذت يارا وضعية الوقوف وسط صمت مشبع برائحة المطر الكربوني ورذاذ الأرض الرطبة، وأغمضت عينيها ببطء، كأنها تغلق أبواب العالم الخارجي. الهواء من حولها

بدأ بالاهتزاز، واصطدام قطرات المطر على الأرض خلق موسيقى خفية تتردد في أوتار روحها.

بدأت تتنفس بعمق، ليس فقط بأحبالها الهوائية، بل بكل أعصابها وعضلاتها، كأن كل خلية في جسدها تبتلع الهواء. مع كل زفير، كانت تتخلى عن الطاقة الفوضوية، كل توتر، كل خوف، كل غضب جامح، وكل شيء يخرج من جسدها على شكل شرر رمادي يتلاشى في الهواء.

ثم ركزت على مركزها الداخلي، نقطة في القلب والصدر، تتلأأ كجوهر من بلور نقي. من هذه النقطة، بدأت بسحب الطاقة من كل أطراف جسدها: أطراف الأصابع، كعب القدمين، حتى شعيرات رأسها. الطاقة الفوضوية تحوّلت إلى شعاع أزرق فضي يسري في أوصالها، يملأ كل فجوة، يعيد ترتيب كل خلية وكل موجة من القوة التي كانت تهدر بلا وعي.

مع كل حركة صغيرة-رفع ذراع، ثني ركبة، ميل خفيف للجذع-تخرج خطوط ضوئية، وكأن الأرض تتفاعل معها، تتوهج جذور كهربائية ناعمة تحت قدميها. كل ذرة في جسدها أصبحت متزامنة مع الكون: الهواء، الأرض، المطر، وحتى الحجارة تحت قدميها تتناغم مع قلبها في انسجام غامض.

لكن، حتى بعد ذلك، أبت يارا المواصللة وجلست بتذمر على الأرض، تنظر إلى نافذة منزل أورافين الذي لمحها عن كذب فجأة. ارتبكت و التفتت إلى الخلف، وكان توترها واضحًا، ويديها المرهقتين جليلة الوضوح. تنهد أورافين طويلاً، ثم نهض من الطاولة، أخذ الصحن وقال:

«إذا سمعت شيئاً مريباً، أحضري المطرقة... لدي عمل طويل مع هذه الفتاة.»

ابتسمت لوريثا ابتسامة خفية وهي تسرح فرو الهر الكبير. فتح أورافين الباب ليجد يارا عادت إلى تدريبها، جسدها على وشك الانهيار، لكنه لم يبدي أي قلق. دنى منها بثبات، وضع الصحن على الأرض، ثم أخذ الخنجر منها، مرر إصبعه الطويل على حافته الحادة، ثم رمق يارا بعينين صارمتين، وقال:

«لن يساعدك أحد، سوف تنفذين كل شيء وحدك، فهمتِ؟»

قالت يارا بتعجب: «كيف؟»

قال وهو يفرك شعرها الفوضوي:

«ابن الملكة لن ينخرط في هذه المسألة، وقد سمعتك الملكة تتحدثين عن قدرة غابريال على التأقلم مع السحر، ووافقت مبدئياً، لكنني رفضت. نقل السحر المحرم إلى وريث ذلك المجنون مجازفة كبرى... إما أن يفقد عقله وينقلب على الملكة، أو يدمر عالمكم بسهولة. جسده وعاء ثمين، وفاعلية هذا السحر أشد من أي سحر... لذا سنتصرف بعيداً عن هذه الخطة الغبية. وأيضاً، أنتِ لا تركّزين على تجميع قوتك

عند خروجها، فقط تبذلين جهدك لإهدارها... وهذا الخنجر ضئيل جداً مقارنة بقوتك، فلا تتشبثي به. وأخيراً... لماذا تبكين مثل الأطفال، رغم أنك سيدتي؟ مجرد فتاة لا تعرف اتخاذ القرارات، لكن بما أنني معلم متمرس، سأسمح لك بمحاولة مقاتلتي.»

قالت يارا: «ولكن هل هذا مسموح؟»
ارتفع حماس أورافين فجأة: «قاتليني بقوتك! أريد اختبار طعم هذه القوة العظمى، هيا!»

قالت يارا باستغراب: «قوتي مختومة... كيف سأقاتلك؟»
قال أورافين بثقة عالية: «هيا... أعرف أنك تستطيعين. استخدمي الخنجر إذا أردت، رغم أنه مريع، لكنه سيفيدك هذه المرة.»

نبضات الليل المحيط بهما ازدادت، والساحة الفارغة تتوهج بخفقات الشحنات الكهرومغناطيسية المنتشرة كالشرر في الهواء. يارا تهوي بخنجرها بلا وعي، لكمات عشوائية، ضربات جانبية، ركلات متسارعة، لكنها في الداخل تحاول السيطرة على نفسها، تمنع السحر المحرم من الانفجار. كل حركة صراع بين رغبتها في الهجوم وحذرهما من قوة جسدها المحرمة.

أورافين، بابتسامة هادئة صارمة، يستخدم كل حركة مدروسة لإسقاطها أرضًا، ليس لإيذائها، بل ليجبرها على النهوض، كل مرة لتستجمع قوتها وتتعلم التحكم بها. كل سقوط على الأرض الصلبة يرسل صدمة كهربائية تتناغم مع جسدها، كل مرة تنهض، شرر الطاقة السوداء يلمع في عروقها، لكنها تتحكم فيه لتجنب إطلاق السحر المحرم.

مع كل لكمة تصوبها أورافين، وكل دفعة، تقوى يارا على الإحساس بوزنها الداخلي وأعماق قوتها. ببطء، تبدأ طاقتها الهادئة، المتزنة، بالتدفق في جسدها، دون أن تفقد السيطرة. شعرت فجأة بأن جسدها أصبح محورًا للطاقة، كل ذرة متوازنة مع الكون. تيار من الطاقة يلتف حولها، يحرك الهواء، كأن آلاف التنانين الطاقية تحلق فوقها، كل جناح جزء من توازنها الداخلي.

أورافين يراقبها بعينين صارمتين، كل محاولة لإسقاطها، كل ضربة، كل حركة تقوي من تركيزها، تحفز طاقة التوازن فيها. سقوطها لم يضعفها، بل جعلها أكثر وعيًا بجسدها، أكثر قدرة على توجيه طاقتها دون أن تفقد السيطرة. كل حركة أصبحت رقصة متقنة بين إرادة يارا، قوة أورافين، والسيطرة على الطاقة الهائلة.

بعد أن خرجت طاقة التوازن من جسدها، شعرت يارا كأن كل شحنة كهرومغناطيسية في الساحة تنجذب إليها بلا مقاومة. الهواء اهتز، الشرر الأسود أصبح شبكة متشابكة من الطاقة تدور حول قدميها ويديها، متشابكة مع خطوط التوازن الداخلي فيها. كل خطوة على الأرض تصنع وميضاً يتبع حركاتها، الأرض تهتز، والشحنات ترتفع إلى السماء لتلتف حولها.

جسدها بدأ يتوهج من الداخل، عروق الطاقة تتلألأ كخطوط برق أسطورية، تمتد من قلبها إلى أطراف أصابعها، مع كل لكمة، وكل حركة من خنجرها تتشكل دوامات من الطاقة المضيئة. كل موجة من طاقتها تجذب الشحنات من الأرض والفضاء، فتتجمع حولها كرة متوهجة نصف شفافة، تتراقص بداخلها شرارات سوداء ووميض أزرق فضي. كل ضربة من أورافين تصطدم بها، لكنها الآن تتفاعل مع هذه الطاقة، ترسلها إلى الأرض كصدمة كهرومغناطيسية قوية، دون أن تفقد توازنها.

شعرت يارا بأن جسدها أصبح معدناً موصلاً للطاقة، كل خلية فيه تنبض بالقوة، وكل حركة تتحول إلى موجة من التوازن والطاقة المتوهجة. السماء تتلألأ بخفقات متكررة من الشرر، الأرض تهتز مع كل خطوة، والشحنات التي كانت تتحرك بلا هدف أصبحت تتناغم معها، جزء من جسدها وروحها في آن واحد. كل هذه القوة، رغم ضخامتها، لم تهدد نفسها أو الساحة، بل جعلت كل حركة دقيقة ومتزنة، كل لكمة أو حركة تتحول إلى سحر متوازن، هادئ، مهيب، أسطوري.

في تلك اللحظة، لم تعد مجرد يارا تهوي بخنجرها، بل أصبحت محور قوة متكاملة، تحرك الساحة والفضاء حولها، كأنها مركز الكون في لحظة واحدة.

صفق أورافين بحرارة وقال: «لم أعتقد أنك ستحاكي قوتنا، أيتها المختارة... هذا مذهل حقًا.»

إذن، هل أستطيع مناداتك بالمعلم أورافين؟

ابتسم أورافين بهدوء، وعيناه تحملان لمعان الحكمة الكامنة في أعماق الزمن، ثم قال:

- هذا شرف لي أيتها المختارة السامية.

تهادت يارا بخفة نحو الصحن الموضوع على الأرضية، وجلست حذوته، وشرعت في الأكل ببطء، وعيناها تلمعان بمزيج من الامتنان والتفكير العميق، ثم طلبت من أورافين محذاتها، فوافق بابتسامة هادئة.

وهي تمضغ، قالت يارا، وطبقها ممتلئ بالطعام:

- هل تصدق حقيقة أنني مختارة، يا معلمي؟

أسدل أوراфин ثوبه الطويل نحو الأرض، وكأنه يخلق حاجزًا من الرهبة والوقار حول حضوره، وقال بصوت عميق، نابع من حكمة خالصة:

- سؤالك وجيه، لكن الجواب مدفون وراء سؤالك. ولأسئلك أنا: هل تفضلين أن تكوني مختارة، أم كائنًا مهمشًا في كون أسود؟

ردت يارا بصوت منخفض لكنه صادق:

- لا أريد أن أكون ما تريدونه مني أن أكون. أريد أن أعيش حرة، في كون لا يقيدني بواجبات مفروضة... فواجبي الأوحـد الذي أؤمن به هو التفرد بهويتي وحدي. من دون قوتي، أنا بلا هوية، بلا وطن، بلا قطيع. ولأني اخترت طريقًا مفروشًا بالإنسانية، فأنا الآن أدفع ثمن تلك الإنسانية. ببساطة، أريد أن أفتح في عالم لا ينهر بقوتي بقدر ما يعجبه ذاتي.

صمتت قليلًا، ثم أضافت بنبرة أكثر تأملًا:

- منذ أن شعرت بلسعات البرد القارص تخترق روحي، تهت في بحر من الجمود والنكران. لأسئلك أيها المعلم: هل أدائي يعكس حقيقتي؟ وهل مروري لأرض الزولفيان سيغير شيئًا حقًا؟ ولنفرض أن السحر دُمر وتخلصنا من شروره، هل فكرت في ما بعد النهاية البطولية؟

أومأت برأسها وهي تتحدث لنفسها أكثر مما تخاطبه:

- لقد فكرت... واكتشفت أن الزمن لا يرحم من يختار أن يصبح بطلاً. وربما عاهتي الوحيدة هي أنني لست كاملة، ولا أريد أن أكون كذلك. ولو كنت كاملة، فلن يغير ذلك قناعاتي شيئاً: سأرضى بأكل التراب المتسخ، ولن أقبل السماء الطاهرة. سأبقى إنسانة تهفو إلى الوجود المدنس، وسأعفو عن غروري الذي، لو اتبعته، لقادني إلى مصير يشبه مصير ويل التعيس.

رفع أورافين عينيه إلى السماء للحظة، ثم أسقط نظره على صحن يارا الذي أفرغته بالكامل، وقال بصوت هادئ، لكنه مليء بالوقار:

- أحترم رأيك، يا سيدتي، لكن سأجيب عن أسئلتك واحدًا تلو الآخر. الذهاب إلى مكان جديد لا يعني بالضرورة تنفيذ مهمة. أنت ذهبت طوعاً إلى عالم البشر، ولم تطالبي بشيء، ولم يجبرك أحد على إنقاذه. لكن تعطشك لمعانقة النادر ألهمك للاستمرار في هذا الطريق.

ثم تابع، وعيناه تتأملان جسدها وروحها:

- أرض الزولفيان ليست مجرد مكان تلهو فيه الكائنات دون وظيفة. لكل كائن مهمة تضيف رونقه في هذا الوجود. نحن جميعاً مترابطون بمهام تمثلنا. أنا مختلف عنك، لكن مساراتنا تستطيع أن تتقاطع في مناسبات مثل الآن. الجميع لا ينظر إليك كإلهة أو قديسة، بل يتوقع منك أن ترفعي إبهامك وتصنعي يومهم، لأن المهام لا تدار إلا برئيس ذكي، وأنت، يا يارا، هذا الرئيس.

ابتسمت يارا، وعيناها مشتتان في كل مكان، وقالت بصوت خافت:

- أظن أنك بلّغتي وجهة النظر هذه بكل جدارة مثل الجميع...

أطلقت شهيقًا طويلًا، كأنها تُفرغ غيظًا دفينًا، ثم قالت:

- أنت لن تفهمي الآن. أريد فقط النوم. لقد تعبتي، أيها المعلم.

رمقها أوراфин بمكر خفي، ثم مد يده الطويلة نحو صحنها، وقال بهدوء:

- سأسألك، وأجيبني بصدق: تجاربك بين الهرب والعقاب، كيف كانت؟ ألم تتعلمي شيئًا؟

شمّت يارا رائحة مأكلة من سؤاله، لكنها أجابته بصراحة:

- هروبي من العالم كان بعد مخاض وولادة دامت ثلاثمئة سنة، واحتضار في عالم الأشباح. صدقًا، تعلمت شيئًا واحدًا: أن الحزن، إذا امتزج مع التمرد والتضحية، يصبح مرا مثل الحنظل. وقد ألبستني هذه التجارب ثوبًا ثقيلًا، ولا أعرف كيف أتخلص منه، لذلك لا يسألني أحد عن معاناتي.

ابتسم أورافين، ثم حملها بين ذراعيه وبدأ يمشي بخطوات واثقة نحو المنزل، كأنه نقل معها كل الإجابات التي كانت معلقة في ذهنها، وأحاطها شعور بالأمان والسكينة، رغم أن روحها لا تزال مليئة بالتساؤلات والتمرد.

في حلم يارا بزغ فجأة طائر أسطوري يُدعى أوراياندر، جناحاه الممتدان كأنهما بساط سماوي من نجوم مذابة، ريشه يتلألأ بالأزرق الفضي والأحمر الغامق، وعند كل رفرفة تصدر أصداً تشبه همس الرياح بين جبال نارية، ممتدة حتى بين خطوط السماء. عينيه تشعان نوراً خافتاً، كأنهما مصدر معرفة قديمة لم تصل البشرية بعد، كل نظرة منه تخترق قلب الحلم، تكشف أسرار الكون وأعماق الأرواح.

الطائر حلق حول امرأة عملاقة، منتصبه على شلال من الجمر المتدفق من الصخور السوداء، قدمها العاريتان تلامسان الصخور الملتهبة، وجسدها يشع وهجاً هادئاً وحرارة محايدة، كأنها حارسة التوازن بين العالمين. جسدها الكبير يلتف حوله هالة

من ضباب ناري وشرارات فضية، وكل شعاع من جسدها يبدو وكأنه شريان طاقة يربط الأرض بالسماء.

فوقها، كسوف الشمس يغطي نصف السماء، شعاعه المحجوب يرسم هالة ذهبية وبرتقالية حول رأسها، والغيوم المحترقة تتلوّن بلون الدماء الذهبية، كأنها تاج ناري سماوي منحها قوة الإلهة القديمة. النجوم حولها تدور في مدارات صغيرة، وكأنها أقمار تحميها وتراقب حركتها.

?

مع كل رفرفة من جناحي أورايندر، تتطاير شرارات من الضوء، ترسم دوائر مضيئة في الهواء، وتتشابك مع تدفق شلال الجمر، فتتوهج الأرض والهواء، وكأن الأرض نفسها ترقص مع الطائر والمرأة العملاقة. الرياح تتحرك في دوامات عميقة، تحمل رمادًا لامعًا وأصداء أحلام بعيدة، وتتكسر في فضاء الحلم على شكل قطع من زجاج سماوي تعكس نبوءات قديمة.

الطائر يرسل أحيانًا نبضات ضوء صامتة إلى المرأة العملاقة، فتفتح عينيها برؤى كونية، وتشع من قلبها طاقة شمسية متوهجة تمتد نحو السماء، فتتفاعل مع الكسوف، ويظهر قوس ناري مزدوج يحيط بالشلال. الأمواج النارية تتراقص على الأرض، والشلال يتوهج بألوان الطيف، فتبدو المشهدية وكأنها احتفال كوني بحضورهم، بين الماضي والحاضر والمستقبل.

وحتى يارا، وهي تراقب، شعرت أن كل حركة، كل رفرفة، وكل شعاع من الضوء، هو رسالة من قوة أسطورية تحاول إيقاظ روحها، وكأن الحلم بأكمله بوابة إلى معرفة غائبة، إلى قدرها الخاص، إلى قوتها الداخلية التي لم تُكتشف بعد.



بعد ذلك الحلم المشبوه، استفاقت يارا متثاقلة بجسدها المكدود والمتعب، لكنها صكت على أسنانها بعزم، ونهضت ببطء. ارتدت ملابسها سريعاً، ثم خرجت إلى الخارج حيث كانت السماء تعوي بألوان صارخة تشبه الغدير الداكن، مليئة بالغموض والرغبة. نظرت إلى يديها الملطختين بجروح دفيئة لم تندمل بعد، ثم قالت لنفسها بحزم: "يجب أن أبرهن للعالم أن كلماتي سوف تصنع الكون، لا الكون يصنعني."

أغمضت يارا عينيها، وضربات قلبها بدأت تثور بجنون داخل صدرها، لتبدأ بعد ذلك في الركض في دائرة متسارعة، بينما شرارات الأرض تتفاعل معها بلون كهربائي ينبض

بالحياة. كانت تدفع جسدها إلى أقصى حدود طاقته، مكررة الحركات بإيقاع متصاعد.

تذكرت فجأة كلام أورافين عن الطاقة، وكيف أن قوتها لا تأتي عند إرادتها، بل تندفع عندما تختنق بالمشاعر، وكل هذه الأفكار كانت تحلق في ذهنها دون أن تفهم عمقها تمامًا. ثم تذكرت كلمات تاتا حين نعتها بالسقم والشفاء، فازدادت سرعة ركضها إلى أقصى حد، وبدأت تشعر بالخور، لكنها ضغطت على نفسها أكثر لتصبح دوامة من الحركات غير المرئية.

كانت الطاقة تصدى في جسدها ككائن حي يتنفس معها، حتى اشتبكت خطواتها فجأة باللهيب الأزرق، لم تدرك يارا مصدره، لكنه كان يتتبع حركاتها بلا كلل. خرج أورافين من المنزل متفاجئًا، مندهشًا من زخم الطاقة الذي تصنعه يارا عبر بضع خطوات فقط.

لم تدم لحظات الدهشة طويلًا، حتى شعر بركلة متجهة نحو وجهه، فتفادها لكنه لاحظ أثرها على يارا، ووجدها تلهث، وعيونها تندلع منها أعاصير القوة. لم تتمهل يارا، واندفعت بكل طاقتها نحو أورافين، وقالت: "سأدرب حتى تجف عروقي من الحياة... فلا تتراخى معي!"

إندهش أورافين من كلماتها، لكنها لم تترك له مجالًا للتفكير، وارتفعت من تحته لتوجه له ركلة على قدمه المغطاة بالجذور الكهربومغناطيسية. لكنه أبعدا بسرعة،

لكن أثر الركلة كان واضحًا بالفعل. ابتعد أوراфин للخلف مبتسمًا، وعيناه ترتسم عليها الحماسة: "أظنك مستعجلة للخروج من هذا المكان يا سيدتي."

أطلقت يارا عنان حركاتها السريعة، وإرتمت نحوه بركلات عشوائية لكنها مشبعة بطاقة خافتة، شعر بها أوراфин، فابتسم أكثر وقال: "أنت جيدة."

دون أن تشعر، أمسكت برأسه ولفت حوله كالثعبان، وما إن لمست جبينه حتى انتقلت ذكرياتها وكل ما تشعر به إلى أعماقه، فتجلت أمامه رؤياها السابقة، حيث رأى أم الثالث العظيم، والطائر كصولجان مملكة الغريم. تعجب أوراфин من دقة المشهد، لكن حركات يارا هزت رؤيته، وتداعى جزء من إدراكه لتلك الرؤيا.

لكن شيئًا واحدًا لفت نظره: يارا أمام أم الثالث بشكل مختلف عن المعتاد، كأن طاقتها الكونية صوّرتها ككائن مطلق القدرات، لا يهزم. مزقت يارا ذلك السبات بركلة مزدوجة من الأعلى إلى الأسفل، ثم لكمت أوراфин في بطنه، حتى شعرت خلاياه بالتمدد من قوة الضربة المشبعة بالطاقة.

لكنها لم تكتفِ بذلك، انتصبت فوق المنزل القصديري المطعم بالأماس، وأخرجت من يدها سيفًا طويلًا براقًا، النصل يتوهج بشعاع أزرق نابض.

قبل أن تشهر يارا سيفها نحو أوراфин، فتح الباب وخرجت لوريثا، تصيح في أوراфин: "الملكة في خطر محقق!"

نظرت يارا باستغراب إلى وجه لوريثا المذعور، وقالت: "ماذا حصل؟"

لكن لوريثا لم تكثرث لسؤالها، وظلت تلح على أورافين لمساعدتها، مؤكدةً أن الوحوش ستقضي على الجميع.

دخل أورافين إلى المنزل مصدومًا، ونظر عبر مرآة تشكلت من طاقة كهربائية إلى القصر في حالة دمار شامل، ووحوش دموية تغزوه، لكنه قاطع فزع لوريثا: "هؤلاء ليسوا وحوشًا عادية، إنهم من عالم النورمين... بئسًا، هل أتى الدفاع أم ماذا؟ يجب أن نستدعي أحدًا!"

قالت يارا بارتباك: "هل آتي معكم؟"

رد الإثنان بلهجة صارمة موحدة: "لا، هذا مستحيل."

قالت يارا: "لكن لماذا؟"

أدرك أورافين حجم الموقف، وتنهد: "أنت ستبقين هنا حتى يوم انبعاث القمر، وسيأخذك نيس إلى المكان المحدد، لذلك احرصي على التدريب الجيد، ولا تغفلي عن حراسة المنزل، فهمت؟"

ابتلعت يارا كلماتها، وقالت بشكل رسمي: "حسنًا، معلمي."

ظلت تنظر إلى لوريثا وأورافين، وهم يستعدون للرحيل بسرعة. بعد أن رحلوا، بقيت يارا تلوح بسيفها الموجه نحو الآن، ثم خرج نيس بهدوء، ينظر إليها كأنه يأمرها بالنهوض فورًا.

قالت يارا وهي تتأمل المكان من حولها، صرخت: "أكرهك أيها الكون!"، ثم ألقت برأسها على حجرها واستغرقت في التفكير العميق.

فجأة، سمعت صوت خطوات ثقيلة، رفعت رأسها لتجد وجهًا ممتقع اللون، لسانه يتدلى كلسان أفعى سامة. كان قريبًا جدًا، حتى صعب عليها استيعاب ما يحدث. لكن نيس، بكل تلقائية، قفز إلى سقف المنزل، محاولًا إبعاد المتطفل، لكن بإصبع واحد فقط أطاح به أرضًا وبدأ يتحكم في الألم.

كانت يارا متجمدة كجثة أمام عينيهِ اللادعتين، التي تبعث وميضًا قاتمًا وهالة كريهة. لكن ما جعلها تتراجع هو جسده المغطى بالوشوم والجروح المتحركة، كما لو أن كل جزء منه حي. أمسكت يارا بالسيف بقوة، مختلطة بالخوف والقلق.

بدأ الكائن يزحف بخطوات رصينة، تبعث رائحة الحقد التي لا تنضب، وكأنها شلال من الحقد الصافي. هرولت يارا بكل قوتها نحوه، لكنها قبل أن تدفع بسيفها، أمسك الكائن وجهها وحطمه بركبته الحديدية.

أحست يارا بجمجمتها تسحق تحت يديه، كأن الزمن يتلاعب بها عمدًا، وكل حركتها تُحبط بلا رحمة. كانت ركلاته قوية وعدوانية، حتى شعرت بالغثيان وتقيأت، وكانت الأرض المعدنية مغطاة بدمائها.

ثم أمسك الكائن شعر يارا، وشده بقوة، واقترب منها بصوت ينخر دماغها وقال:

"أنت هي المختارة... من الجيد أن خططنا نجحت، سوف تذهبين معي إلى قلعة الثالوث الأعظم... إنه يريد ملاقاتك المختارين."



أخرجت يارا زفيراً خانقاً من حنجرتها، وكأنها تحاول لفظ ثقلٍ يضغط صدرها، ثم قالت بصوت متقطع تغلفه الحيرة:

-. "هل... هل الهجوم كان خدعة؟ ومن أنت بحق السماء؟"

لكنها ما لبثت أن أحست أن حركتها قد شلّت فجأة، كأن الزمن جمد أطرافها، حينها انفجر الكائن في ضحكة مشؤومة ارتج لها المكان، وقال بنبرة ساخرة تقطر احتقاراً:

-. "من السهل خداع هذا العالم... أيتها المختارة. من سيصدق أن عالماً مثل ذاك

سيشنّ هجوماً عليكم بسبب طمعهم في ترياق فعّال لسحر الخراب؟... يا لكم من أغبياء."

ثم توقّف قليلاً، وكأنه يستمتع بوقع كلماته عليها، وأردف وهو يتبخر من حولها:
".لكن أخبريني... هل صدقت أنك فعلاً قمتِ باستخدام طاقة التوازن؟ هه! أنتِ
فحسب تتوهمين. تلك الطاقة التي تدّعين التحكم بها... مجرد هراء أمام طاقة
التوازن الحقيقية. وهل صدقت ذلك الأخطبوط حين قال إن الذهاب إلى الزولفيان
سيخلصك من السحر؟"

اقترب منها أكثر حتى شعرت بأنفاسه النتنة تلمح وجهها، وأضاف بنبرة جارحة:
".الجميع خدعوك! السحر بالفعل قد تم امتصاصه. من قال لك أن جسدك يحمل
ذلك السحر؟ إنه ليس سحر ذلك الجرذ... بل طاقتك أنت! أنت تختارين كفةً على
كفة، ثم تدّعين أنك سيدة التوازن... كم أنت غبية."

قبل أن تستوعب يارا وقع الكلمات، صفعها الكائن صفعة مدوية أفقدتها الوعي
للحظة، بينما تابع كلامه ببرود قاتل وهو يحدّق في شعرها الأبيض المنسدل:
".لا أعرف لماذا السيّد يُلحّ على حضورك... بنساً لهذا العمل الأخرق! لكنه يريدك
لسبب ما، لذلك لا يمكننا مناقشته. لكن... هذا الشعر مثير للاهتمام. من بين كل
الأشخاص يختار الكون هذه السمكة الصغيرة؟ ما المميز فيها غير طاقة لا تستطيع
التحكم بها؟... حقاً إنه غباء."

ومع آخر كلماته، توارى فجأة عن الأنظار مخلفاً وراءه دخاناً أحمر قاتماً، ثم دوى
انفجار هائل دمّر المنزل بأكمله، وأحال الأرضية إلى ركام متفحم.

حين استفاقت يارا من ذهولها، كانت تتحسس الأشياء من حولها بكل ما استطاعت، فقد وجدت نفسها معصوبة العينين بعناية فائقة. ازدادت حيرتها أكثر عندما التقط أنفها رائحة طعام مألوفة وسط الخراب. وفي تلك اللحظة اخترق الصمت صوت ذكوري خشن، يتهدى نحوها بثاقل، وكأن خطواته تحوم حولها:

. "أهذه... رائحة شواء؟"

فجأة، وبحركة حادة، أزيحت العصابة عن عينيها، لتكتشف أنها ليست في منزلها المدمر، بل في قصر ليس كالقصور. كان القصر يبدو مشيداً على حافة الفضاء نفسه، جدرانه تنفتح على عتمة لا نهائية. تجمد الدم في عروقها، وشعرت بالخوف العميق وهي تتمعن في عيني الرجل الذي يحوم حولها. كان يشبه رجلاً في مقتبل الثلاثينات، لكن عيناه مرصعتان بلون أبيض شفاف لا يؤبؤ فيهما، وشعره القرمزي تتفجر منه خصل سوداء داكنة. كان ينظر إليها بنهم مفترس، كأنه يريد التهام كل جزء فيها.

وبينما ظلت تحديق وجهه الموحش، تغير المكان فجأة إثر فرقعة أصدرها من إصبعيه السميكتين. في لحظة خاطفة انتقلت يارا إلى قصر آخر فخم، يعج بالأثاث العاجي ولوحات مشوهة لوجوه قبيحة، بينما كانت الملابس مبعثرة في كل مكان. لكن الشيء الوحيد الذي لم يتغير كان عيني ذلك الأهوج، مازالتا تلاحقانها بلا هوادة.

تغيّرت ملامحه سريعاً، احمرّ وجهه من الغضب حتى كاد ينفجر، في حين ارتسمت على محياه علامات كارثة قادمة. وقبل أن تستوعب الأمر، ضحكت يارا بسخرية عفوية، لكن ضحكتها لم تدم، إذ قاطعها الرجل بعصبية عارمة:

"فتاة... فتاة! بئساً! كنت أعتقد أنني سأقابل امرأة فاتنة... بئساً، ماذا سأفعل بها؟ أخبروني!"

رمقته يارا بنظرة ازدراء حادة، عقت على انفعاله بسخرية جارحة:

"أنت أيضاً لست رجلاً حتى تتحدث عن النساء أيها الغريب المنحرف... منحرف كبير! وماذا تريد من النساء أصلاً أيها المسكين؟"

اشتعل وجهه أكثر، وأسنانه تصطك كأنها على وشك الانفجار، فصرخ مهدداً:

"سوف أقتلك أيتها المختارة اللعينة... لكن ليس الآن! لأن الملكة، جلالته الإمبراطورة، أمرتني أن أسلمك لها حية. لكن... ليس الآن."

ظلّ مارلوك، كما بدا من كلماته، ينبش الأريكة بأظافره المسننة بعصبية، ثم نهض فجأة واتجه نحو السيف المتوهج الموضوع بجانب يارا، وهو يقول بغضب يتخلله جنون:

"هذا السيف! بحق الجحيم... كيف صنعته؟ أخبريني! حتى أنا، بعد قرون عدة، لم أستطع أن أصنع مثله. لكن كيف لمختارة ضعيفة... لا تفرّق بين القوة والدمار... أن تفعل هذا؟! سأجن!"

اتسعت حدقة يارا، لكن بدلاً من الخوف، ألقت بإبتسامة باهتة نحوه، وقالت ببرود ممزوج بالتهكم:

."لا أعرف من أنت... لكن هيجانك المستمر يعجبني، فأنت تشبه كلباً مسعوراً. وأيضاً... لا تجرؤ على لمس سيفي أيها المنحرف. ثم أخبرني، ما هذا المكان؟ ولماذا أحضرتُموني إلى هنا؟ أيها الغريب المشتعل... ليس غريباً أنك غريب أطوار!"

فغلى مارلوك من الغضب وقال:

."متعجرفة حمقاء!"

لكن يارا لم تبال، فردت بحدة:

."لا تصرخ في وجهي أيها النذل... لتفك وثاقي حالاً!"

ثم فجأة، فتح الباب على مصراعيه ليظهر نفس الشخص الذي هاجم يارا من قبل. وما إن وقعت عيناها عليه، حتى تبدد لون شعرها الأبيض ليتحوّل إلى أحمر داكن، ورفعت عينيها نحو السيف فأشارت إليه، فارتفع كأنه طائع لها، وانطلق بسرعة نحو وجه ماريوس، ذلك الدخيل الغامض. لكنه تفاداه ببرود، ثم وفي حركة واحدة احترقت الوثائق الذي يقيد يارا، فانطلقت دون تردد نحوه، موجّهة له لكمة أصابته في خده. لكنه أمسك بها بيد واحدة، وقرب وجهه من وجهها، وقال ببرود ينضح بالتحدي:

."لا تتعالي كثيراً أيتها المختارة المتبجحة، فسوف تلقين حتفك إن استمررت في إضاعة طاقتك هكذا... لقد لوثت الأرضية حقاً."

التفتت يارا بذهول لترى بقعاً سوداء عميقة تنتشر من الكرسي الذي كانت مقيدة فيه، وصولاً إلى موضعها الحالي.

هنا انفجر مارلوك ضاحكاً بسخرية:

."إنها كجسد بلا لجام! طاقتك تتسرب فوراً ما إن يملكك الغضب... فلا عجب أنك دمّرت عالمك الغبي... والعالم السابع أيضاً، أيتها المختارة!"

لكن ماريوس أنزلها بعنف على الأرض، وقال بصرامة:

."بعد أن غرست ذلك السيف في قلبك أصبحت ممزقة مثل قماش مهترئ! وأنت التي ظننت نفسك منقذتهم... انظري ماذا حصل لك. أظنك كنت منذ البداية تتحقّظين على طاقتك، والآن ختمتها بسبب وهمك أنك تحملين سحراً. أتعرفين معنى أن تحملي سحراً في عروقك؟ أنت لست أقوى من السحر، ولا حتى قوتك المتوازنة التي، لو تعلمت استخدامها مثلما قال لك المعلم، لكنت من أمهر المختارين. لكن... انظروا إلى وجهها الباكي. أنت تبكين؟ تبكين لأجل هذا الكلام؟ إنها الحقيقة... تلك التي واجهتك بها تلك العجوز المتنكرة. ألا ترين أن العالم يستغلك بينما أنت تتخبطين كسمكة مريضة في الوحل؟ كلما أردت الخروج يمنعك أحد... ولماذا؟ لأنك... غبية!"

تصاعدت أنفاس يارا كبركان، ودون وعي صفعت ماريوس بكل قوتها. تفحص مكان الصفحة، ثم رمقها ببرود وقال:

"لأقول لك... أنت جيدة، إن توقفتِ عن إثارة مشاعرك. كم هو ممل أن تكوني عاطفية."

لكن مارلوك قاطع بحدة:

"دعها الآن... واذهب لتدريب الجنود. يجب أن نستعد بعد أن تنتهي الحرب بين العالمين وينزل الطائر الأمرد إلى سرداب الكون، حيث الإمبراطورة... فهي الوحيدة التي ستروض غبائها. هيا."

نفخ ماريوس على وجه يارا باستحقار، ثم دفع الباب بعنف وهو يغادر. تحنطت يارا مكانها، وقد انسدل شعرها الأحمر على منكبيها، وهمست بصوت مرتجف وهي تنظر إليه:

"لم أستعد هيئتي منذ زمن..."

كانت تتمتم، متجاهلة خطوات مارلوك الذي اقترب منها بقوة وشدّ ساعدها. لكنها أبعدت يده فجأة، ووجهت له لكمة ساحقة في بطنه. لكنه لم يتأثر، وقبل أن يتفوه بكلمة، قالت يارا بعينين متمردتين تشتعلان:

"لا تجرؤ على إهانتني... هل فهمت أيها المنحرف؟ لا تبتهج لأنني ضعيفة... فأنا أعرف كيف ألكمك وقتما أشاء! أنت وذلك الوغد. وإن كان هذا آخر شيء سأفعله..."

ثم أفلتت يدها، وحملت سيفها، وجلست على الكرسي من جديد بعزم وهدوء.

قال لها مارلوك ساخراً:

"ألن تغادري؟ ألن تحاولي الهروب حتى؟"

فأجابته يارا بصوت ثابت يقطر تحدياً:

"لستُ جبانة لأهرب."



قال لها و هو يطالعها بسخرية حادة، والشرر يتطاير من عينيه كأنهما نصلان:

الهروب من هواياتك المفضلة أيتها الأميرة.

فما كان من يارا إلا أن نظرت إليه نظرة قاتلة، وكأنها على وشك أن تقتلع عينيه
الواثبتين على وجهه من مكانهما، وقالت بنبرة مشبعة بالغضب: إخرس أيها الأحمق.

حينها قال مارلوك وهو يلوّح بيده باستخفاف: آسف على اللقاء العنيف، لكن ذلك كان كافياً لنعرف أنك فتاة جامحة حقاً.

غير أن يارا نهضت من مكانها بكل اندفاع، وتوجهت نحوه في عاصفة من الغضب، ثم عضّت كتفه بعضّة شرسة كأنها وحش صغير يثار لماضيه. وبرغم فارق الطول الشاسع بينهما، إلا أنّ الألم قد تسلّل سريعاً في جسده الفظّ. تشبّثت بأسنانها الصغيرة كأنها تنتقم لكل ما فعل بها سابقاً.

تنفست الصعداء أخيراً وقالت بصوت متقطع بين حنق وراحة: هذا لأجل ما فعلتموه أيها الأوغاد الحثالة... وسوف أري ذلك الكومونندو كيف سيكون عقابه وخيماً، سترون.

ثم، ومن غير تردد، أمسكت بالكرسي الذي كانت مقيدة فيه، ورمته بكل قوة على الألواح الخشبية المشبعة بألوان توهي بالبؤس، وصرخت: سوف أدمر هذا المكان على رؤوسكم!

لكن فجأة، ومن بين الملابس المبعثرة على الأرض، تسللت روح غريبة لتنين صغير كان نائماً وسط كومة الفوضى. انطلق بخفة نحو يارا، وانقضّ عليها بأسنانه الطويلة، ثم حلق بها عالياً في الغرفة وهي معلقة رأساً على عقب.

تفطن مارلوك إلى المشهد سريعاً، فصرخ متألماً: أنزلها يا دوميروك! أنزلها فوراً!

غير أن التنين لم يلتفت إلى أمره، بل ظل يتوغل بها أعلى وأعلى. عندها، وبلا تردد، أطلق مارلوك من يده السليمة كرة نارية هائلة أطاحت بالتنين أرضاً. ثم مد يده نحوه فامتصه داخل كفّه كما لو أنه يبتلعه.

بعدها، هرع نحو يارا ليعينها على النهوض، فقد ارتطم رأسها بتمثال عاجي وبدأت تنزف. لكنها رفضت المساعدة بشراسة، وانتزعت سيفها ولوّحت به في وجهه وهي تتوعده: أنت ميت... فهمت؟ أنت في عداد... في عداد...

وقبل أن تكمل كلماتها الأخيرة، تصدعت الأرضية من تحتها، فانشقت عن فوهة سوداء رهيبة، شبيهة بتلك التي رأتها حين اشتمت رائحة الشواء. أسرع مارلوك إليها، وقبض على يدها بإحكام، وهو يقول بصوت متماسك رغم الألم: سوف ننتقل إلى العالم الأول... لذلك أغمضي عينيك حتى لا تصابي بالهذيان. الانتقال إلى هناك خطير قليلاً، لأننا على حافة الكون... الطاقة هنا تسجن كل من يمر بها، لكن ذلك ليس بالصعب علينا.

لم تفهم يارا شيئاً، غير أنها أغلقت عينيها، واتكأت بجسدها على جسده الذي ما زال يتأوه من قوة العضة. ابتسم بسخرية رغم الوجع وقال: عضّاتك مريعة أيتها الحمقاء... من حسن حظك أنني لا أضرب النساء.

وبينما السواد يبتلعهم من كل جانب، اتسعت الفوهة أكثر فأكثر، لتحتضنهما بكل قسوة. فجأة، خرج من ذلك الظلام فم عملاق ابتلعهما دفعة واحدة، لينقلهما إلى عالم مشروخ... إنه عالم "سالون"، المركون في زاوية معتمة من الكون.

كانت القصور مشيدة من طوب نيزكي فريد، وأشجاره مقلوبة رأساً على عقب، فيما الحمم تتجمع في صدع فاره عظيم. أطلق مارلوك صغيراً مدوياً، فظهر التنين ذاته الذي امتصه بيده قبل قليل. اندهشت يارا تماماً، لكن ما إن اقترب التنين حتى ارتخى جسدها فجأة، وشعرت أنها ستسقط. لولا أن مارلوك أمسكها، وهو يهمس لها بعدما امتطيا التنين: تمسكي... يجب أن نصل إلى القصر قبل أن تنهاري.

خلال الرحلة، ظلت يارا تتشبث بجسد مارلوك، تبحث عن بصيص من الدفء وسط لسعات البرد القارس الذي كان يطوقها. أما هو، فلم يندهش إطلاقاً، بل غمرها في حضنه، وأسدل وشاحه على رأسها الأحمر وهو يقول: تحملي أيتها المختارة... تحملي، سوف نصل.

هبط التنين على أرض مسطحة في هدوء عميق حتى لا يوقظ يارا من نومها. ثم حملها مارلوك بين ذراعيه بخفة، وتخطى بها المرج الأخضر الذي يزين القصر الأسود العملاق. كان المشهد متناقضاً حد العجب، وكأن تلك المساحة المضيئة لا تنتهي إلى السواد السحيق، بل هي قطعة مبتورة من عالم آخر أكثر حياة.

وما إن همّ مارلوك بصعود الدرج حتى اعترضه "ماريوس" مرتدياً زيه الرسمي، وقال وهو يرمق يارا النائمة بعينين يملؤهما القرف: هل تستطيع أن تفسر ما يحدث الآن؟ أليس من المتفق أن تحتجزها في الجهو العلوي للعالم؟ لم أنزلتها إلى هنا يا سيدي المختار؟

تجمّد وجه مارلوك من الغضب، وحدث في أخيه بصرامة، ثم قال: لا تختبر صبري.
أخبرت أن تحضرها سليمة، لكنك خالفت أمري. والآن، ماذا تريد؟

ردّ ماريوس بحدة: سيدي، إنها عار على المختارين جميعاً، وليس من العدل أن تتواجد
بينهم...

عندها أمر مارلوك أحد الخدم الواقفين أمام الباب بأن يرافق يارا إلى الداخل. ثم
شمر عن ساعديه وصفع ماريوس بقوة، وقال بصوت كالرعد: إخرس يا أخي! ليس
من العدل أن تصب جام غضبك لأنك لم تُختر لهذا المنصب بدلاً عني. هل وجدت
فيها فرصة لتنتقم؟ هاه؟! أخبرت أن وجودك بيننا سيزيد غيظك سوءاً، لكنك لم
تستمع لي وأصرّيت أن تكون قربي. غير أن تتعدى على سمعة أحد المختارين؟ هذا
جرم عقابه الموت. لذلك سوف تعتذر لها... مفهوم؟

ماريوس، وهو يضغط على أسنانه، قال: أنا لا أعترف بضعيفة مثلها لتكون مختارة.
لقد سببت المتاعب لنا جميعاً، وحتى حين عوقبت، كانت توبخك أنت والجميع في
مكانها. لم تستدعيها الإمبراطورة قط، والآن، هذه أول مرة تستدعيها... انظر إليها! ما
سرّها يا أخي؟ أتشوق لمعرفة السبب الذي يجعل الإمبراطورة تفضل تلك الضعيفة
على الجميع، وتمنحها حرية التهور. لو كنت مكانها واركتبت خطأ ممثلاً، لمتّ، لكنها
لم تمت! وها هي حاضرة بيننا... لذلك لا أرى سبباً لاحترامها.

غير أن مارلوك قاطعه وهو يهيمّ بالدخول: لا تنغمس في التفكير، فذلك خطير عليك
أيها الرقيب. اذهب إلى عملك، ودع عمل الكبار للكبار. هيا، يا أخي.

اقترب بعدها من يارا التي غطّت في نوم ثقيل، أفقدها كل قدرة على الشعور بما حولها. ظل يداعب خصلات شعرها بخفة وقال، كأنه يخاطب نفسه: من النادر وجود فتاة بين المختارين بهذا العناد. رغم أن آنيث كانت تشبهك، لكنها كانت أنضج منك... آه، أتمنى أن يحل كل شيء قريباً، فهذا الكون لن يحتمل مأساة أخرى.

فتحت يارا عينيها بتثاقل، لتجد مارلوك بجانبها، فقالت له بنبرة ساخرة: أيها المتعفن، صوتك مزعج حقاً.

فما كان منه إلا أن تغيرت نبرة صوته، وقال: أنت عديمة الجدوى حقاً... لا أعرف كيف تحملك ذلك العالم. ثم أردف، بصوت هادئ يخفي وراءه ضيقاً واضحاً: أحياناً أظن أن عدم مقدرتك على مقابلة الإمبراطورة كان سببه أنك الوحيدة التي أعيد إحياؤها أكثر من مرة... بينما نحن لم نُبعث إلا مرتين فقط بفضلها. يا لك من محظوظة! لهذا ربما أخذ عنك الجميع انطباعاً غامضاً.

قالت يارا باستفهام: من؟

أجابها: المختارون الباقون... سيأتون قريباً. لا تقلقي، لقد أصرت الإمبراطورة على رؤيتك. فقط أتمنى ألا تثيري ضجة أخرى.

ضحكت ساخرة وقالت: أنت غبي حقاً.

ابتسم بخبث، وهو يمرر أصابعه بين خصلات شعرها: لماذا يتغير لون شعرك؟ هل بسبب القوة؟

قالت: نعم... عندما أطلق العنان لقوتي تتغير هالتي. لكن في العادة أنا هكذا... ألا يعجبك شكلي، أمها القبيح؟

ردّ بابتسامة خفيفة: لترتاحي، أيتها المجنونة. غداً لديك عمل كثير.

قالت باستغراب وهي تتقلب في الفراش: ماذا؟ عمل؟



استيقظت يارا مجدّداً في عالم ينبض بالقوّة والغموض، كما نبض قلبها عند رؤيتها لوجه مارلوك وهو يرمقها بنظراتٍ صامتة، جامدة، كأنّه صنم كوني ألقي على عرش الأسرار. تراجعت خطواتها المرتبكة إلى الوراء حتى تداعت من هول الصدمة وسقطت من على السرير، لتنتبه بدهشة أنّ ملابسها قد تغيّرت أيضاً، وكأنّ هذا العالم لم يكتفٍ بانتزاع يقظتها بل أراد أن يفرض عليها هيئته.

أطرقت برهة، تستجمع أنفاسها، تمسح ظهرها من أثر السقطة المفاجئة، غير أنّ مارلوك تقدّم منها بخطوات ثابتة وصوتٍ ذكوريّ مهيب قائلاً:

.«اتبعيني إلى دهليز الأحلام... لكن قبل ذلك ارتدي شيئاً يليق بك وصدّفي شعرك المنكوش، فأنت تشبهين عجوزاً على وشك الموت».

بلا تردّد، ركلته يارا بقوة على قدمه، فارتسمت على محيّاها ابتسامة انتصار صغيرة، لكن سرعان ما اجتاح المكان الخدم من كل صوب، كأنّهم إعصار جارف، يحيطون بها بالفساتين والأقمشة البراقة، بينما غاب مارلوك عن أنظارها متّجهاً صوب مكتبه. غير أنّه لم يقطع سوى بضع خطوات حتى اعترضه ماريوس، الذي كان يقصد غرفة يارا. عندها قبض مارلوك على ذراعه بقوة، يقيّد حركته، وقال بلهجة حادّة تحمل تحذيراً خفياً:

.«إيّاك أن تخطو خطوة نحوها، فالمختارون سيجتمعون هذه الليلة، فاحتفظ بنواياك السيئة لنفسك».

تنفّس ماريوس بغيظ، وألقى نظرة طويلة نحو باب غرفة يارا، ثم قال باستهزاء: .«هل أصبحت تلك الصغيرة من أولوياتك يا أخي المقدام؟ لم أعرف أنك مطيع إلى هذه الدرجة... هل أخافك كونها المفضّلة، فتتحمل العقاب بدلاً منها؟».

ولم يكد مارلوك يفتح فمه للرد حتى اختفى ماريوس فجأة، متلاشياً من أمامه كطيفٍ ساخر، فشعر مارلوك بالإحباط ينهش صدره، وتمتم غاضباً: .«تبّاً لك...».

في تلك اللحظة، ظهرت يارا من خلف الباب، متقدّمة بخطواتها الواثقة، فبهر مارلوك بجمالها للحظة خاطفة، غير أنّه تدارك نفسه سريعاً، سعل بتصنّع ليغطي ارتباكّه، ثم قال بنبرة ساخرة:

«ألم تجدي غير هذا الفستان الأسود لترتديه؟».

ابتسمت يارا بخفّة وقالت:

«كنت محتارة بشأن الملابس، لذلك تركت زمام الأمر للفتيات الأخريات... وأظن أن هذا الفستان مريح. والآن، إلى أين سنذهب؟».

أفاق مارلوك من سهوته، ورفع يده مشيراً إلى الممر المظلم وهو يجيئها:

«من هنا... أريد أن أريك شيئاً قبل أن يأتي الجميع».

تردّدت يارا قليلاً وقالت:

«ولكن... أليس الوقت مبكراً؟».

ابتسم مارلوك ابتسامة غامضة، وأجابها بثقة:

«في هذا العالم، الساعات تمضي مثل الدقائق، فلا تخشي شيئاً... لكن انتبهي من خطواتك، فأنت تعرجين مثل البطة الصغيرة».

عقدت يارا حاجبها ببراءة، ثم ردّت بعفوية:

«هذه أول مرة أرتدي مثل هذه الأشياء... ظننت أنني لن أعيش هذه اللحظة أبدًا».

أطرق مارلوك رأسه قليلاً ثم قال بلهجة محايدة:

«من البديهي أن تشعرني بذلك... فأنت فتاة في النهاية».

قطّبت يارا حاجبها أكثر وقالت بسخرية لاذعة:

«أنت مولع بالتنقيب في أذواق الفتيات، أيها المنحرف!».

تمهد مارلوك، كأنه يحمل خبرة أزمنة، ثم أجابها بنبرة تحمل مزيجاً من الجدّ والسخرية:

«حسنًا... لستُ منحرفًا. لكن خبرتي بين سكان عالمي أكسبتني هذه الحنكة».

قالت يارا، وهي تحدّق في عينيه ببرود:

.«عالمك».

ابتسم مارلوك بخفة، ثم قال بنبرة واثقة:

.«عالمي يتفرد بغزارة الكائنات الأنثوية على الرجال، ولأنّ العالم الذي وُجدتُ فيه يخضع لقوانين صارمة تمنع الرجال من التواجد لسببٍ ما، فقد غدت النساء هناك أكثر قوّة وهيمنة. ولذلك نادرًا ما أصادف فتاة مرنة مثلك... عنيفة بشكلٍ لطيف».

زفرت يارا بضيقٍ، وقالت وهي تكتّم ارتباكها:

.«اخرس أيها المتملّق».

ومع ذلك، واصلا المضي في الممرّ الحجري الطويل. على حين غفلة، توقّف مارلوك فجأة، ليُوقف يارا معه، ثم رفع رأسها بيده نحو السقف الملطّخ بلونٍ داميّ ساخن يقطر على الأرض بخيوط متقطّعة. ارتجف صدى القطرات في المكان، كأنّها أنفاس كائنٍ يتألّم في الظلام.

قال مارلوك وهو يراقبها:

.«اخطُ خطوتين فحسب لتصل القطرات إلى فروة رأسك. هذه خدعة صنعتُها لجعل هذا المكان محصّنًا من برائن أخي... أنت لا تعلمين شدّة تلهّفه للدخول إلى هنا. سيجنّ إذا عرف أنّك في هذا الموضع. المختارون وحدهم مسموح لهم بدخول دهليز الأحلام، حيث تتراقص أحلامهم كفقاعات نورانية. هيا... أذهبي».

مدّت يارا قدمها خطوةً واحدة، غير أنّها تردّدت في الثانية، ثم التفتت نحوه فجأة وأمسكت بذراعه بعنادٍ واضح:

«أيها الأحمق، حدسي يقول إنك أعددت لي فخاً... فلتذهب معي».

وفي اللحظة التالية، ذابت ظلالهما في الممرّ القَصْرِيّ، كأنّهما انصهرا في العتمة. وما هي إلا لحظات حتى وجدت يارا نفسها محاطة بنسيجٍ ظلاميٍّ منسوج بخيوط الشفق الكوني المنصهرة، وقد فرش فوق آلاف من زهور التوليب. كل زهرة كانت تحمل ذكرى أو رحلة لأشخاص غرباء جاؤوا من عوالم شتّى، غير أنّ زهرة واحدة، فاحمة اللون وشائكة، كانت تنزوي في ركن مقفر، تفيض بطاقة دافئة وغامرة.

اقتربت يارا ببطء، تتأمل تلك الزهرة العجيبة، مدّت يدها لتكشف الحجب عن أشواكها المتعانقة، لكن مارلوك انقضّ على كفّها وأمسكها بقوة قائلًا:

«لا تقتربي منها... إنّها زهرة الرؤى العظمى».

ثم أردف بجديّة ثقيلة:

«تلك الزهرة تحمل في طيّاتها عجائب العوالم السبعة. فهي تكتنز رؤى عظيمة لمصيرها جميعًا، أمّا بقيّة الزهور، فهي مجرد تشييد لذكريات أو أحلام كل مختار، قطارٌ متين لا ينقطع وريده أبدًا. لقد أثّرت الإمبراطورة هذا المكان بطاقتها كي تُخلّد الذكريات وتحافظ على نجاعتها، لأنّ العوالم تحتاج دومًا أن تتذكّر مصيرها. غير أنّ

تلك الزهرة... نادرة. لقد تألّقت عندما حطّمتِ الرابط بين عالمك وعالم البشر. إنّها زهرتك، التي اصطفّتها الإمبراطورة لتكون معبراً خاصاً لك وحدك... لكن من الأجدر بك ألا تقتربي. حتى نحن، حين نزور هذا المكان، تغرينا أشواكها وتدفعنا رغبة مقبلة إلى كشف أسرارها. أظن أن رؤاك تكدّست هناك بشكلٍ تلقائي، لكنّي أحياناً أشعر أنّها لعنة وُضعت بذكاء».

لم تكثرث يارا لتحذيراته، بل اقتربت أكثر. وما إن لامست بتلاتها حتى ارتعشت الزهرة بقوة، ونزل من أشواكها رحيقٌ ذهبيّ أخاذ، تفوح منه رائحة زكيّة عطرة. غير أنّ ما جعل يارا تندهش هو ظهور وجهها الطفوليّ في لهب الزهرة الذي تموّج خارج العتمة الموحشة، فغمر المكان بصوت بكائها عندما ماتت أمها... تلك البداية المأساوية التي حملت بصمتها الأولى.

راقب مارلوك ذهولها، ثم عقّب قائلاً بلهجة متألمة:

«من النادر أن يعيش المختار حياة شظف وسط هذه المميّزات. نحن لم نفقد أمهاتنا ولا عوائلنا. لقد ترعرعنا في بيئة تتناغم فيها السعادة والمسؤولية، وتبلور كياننا على كيفية حمل هذا الثقل. لكنك أنت... استثناء. لا أعرف لماذا لم تنقذك الإمبراطورة من هذا المصير المشوّه. وربما إرادتك الحرة جعلتك فريسة للجميع».

التفتت يارا إليه، والدموع تحرق وجنتيها، وقالت بصوت مرتجف وهي تشير إلى الزهرة:

«أتذكر هذا اليوم... حين مُتُّ في ساحة الحرب مطعوناً من أقرب الناس إليّ؟ بطريقة مخزية سُحبت طاقتي لصنع الوحوش العقيمة. ومن أجل أن أهرب من هذه المعاناة لجأتُ إلى العالم السادس... لكن اللعنة لم تفارقني. آه... وهنا حلمي حين رأيت نفسي في فقاعة المورون، أتلوّى من الألم والمحن... ورأيت أُمي تلوّح لي بعزاءٍ مميت. ثم ها هنا... حين ابتلعتني العين وسحبني إلى الحكام الكونيين... وهذه أنا... عندما قفزتُ بكل رشاقة وسعادة من الجبل ورقصتُ كالمجنونة... لأعود إلى المجزرة نفسها!«.

لم تستطع يارا إكمال كلامها، إذ تملّكتها نوبة بكاءٍ ساخنٍ أفقدتها القدرة على الوقوف، فانحنت راجيةً:

«مارلوك... أتعلم لماذا أنا ضعيفة لهذه الدرجة؟».

اقترب منها مارلوك بكل هدوء، ووضع يده على كتفها قائلاً:

«لا أعرف. لكن الشيء الوحيد الذي أعرفه... أنك لست وحدك. أعرف أنّ الجميع هاجمك، وأنا منهم. حتى هذا العالم المتكامل... حقيقير إلى أبعد الحدود. التنافس الوحشيّ على مكانة المختارين قادر على إبادة عوالم بأسرها. أظن أنك محظوظة لأنك لم تدركي بعد قوّتك... لأنك ستكونين مستهدفة حتمًا. ومع ذلك، لقاءنا مختلف. لأنك يا يارا... مختلفة رغم كل شيء. لذلك استجمعي قوّتك... ولنمضي، فالجميع متلهّف لرؤية مثيرة المتاعب».

رسمت يارا ابتسامة ساذجة وسط دموعها، وقالت:

.«أنت مريع في مواساة الآخرين».

ابتسم مارلوك بفتور، ثم حملها بين ذراعيه قائلاً:

.«على الأقل حاولتُ أن أعيد الابتسامة إليك أيتها المتمرّدة... والآن تمسّكي، سننزل».

وانطلقت خطواتهما في الممر الطويل...

نزل مارلوك ويارا الدرج العريض، تتردّد خطاهما في أصداء الممر الطويل الذي بدا وكأنّه لا ينتهي. كانت الجدران مزخرفة بنقوش باهتة، والليل في الخارج قد جنّ بالفعل، فأخذ الظلام يتسرّب كدخانٍ باردٍ إلى الزوايا الخفيّة، كأنّه يريد التلصص على ما سيحدث. ومع كلّ خطوة، كان قلب يارا يخفق بارتباك وفضول، بينما ظلّ مارلوك متماسكًا، ملامحه صارمة كتمثال من حجر.

وما إن بلغ الاثنان الباب الكبير المؤدي إلى قاعة الاستقبال، حتى انفرج وجه يارا فجأة
بضحكة عفوية، فقد وقعت عيناها على أنيت التي كانت تتقدّم بين الحاضرين
بخطوات واثقة. ارتجف صوتها وهي تنادي كطفلة:
".أنيت! أنيت!"

غير أنّ مارلوك أسرع بالزجر قائلاً بصرامة:
".اضبطي نفسك أيتها المجنونة."

توقّفت يارا، نظرت إليه باستنكار:
".ولكن..."

فقاطعها ببرود:
".أنت تُخرجينها. هيا... تقدّمي أولاً وألقي التحية كما يليق بمختارة."

انكمشت ملامح يارا بين الحيرة والحرص، وازدادت رهبتها حين لاحظت أنّ وجوه
الحاضرين قد قست فجأة، وأنّ عيونهم المشتعلة ترسل شرارات من الحنق المكبوت.
عندها ابتلعت ريقها، وجمعت شجاعتها، ثم تقدّمت بخطى مرتعشة وقالت بصوتٍ
خافت متردّد:

".مرحباً بكم... أنا يارا."

لكنها انحنت أكثر من اللازم، فشدها مارلوك من فستانها بشيء من الغضب، وهمس
في أذنها:
".أكملي."

فقال بصوت مختلط بالسعال:

".أنا مختارة من العالم الخامس... سررت بلقائكم جميعاً."

عندها جحظت عيون بعضهم باستعلاء، ثم قال أحدهم بنبرة ملؤها الضجر:
".هل ستتركونا واقفين كثيراً؟"

فأدركت يارا أنها أطالت الانحناء، فتراجعت مرتبكة، بينما بدأ الجميع بالدخول إلى
القاعة. مرّت أنيت بجانبها، رمتها بنظرة حزينة صامتة، ثم أكملت طريقها. لكنّ رجلاً
من بين المختارين الثلاثة ثبت بصره عليها لبرهة طويلة، قبل أن يقول فجأة:
".أنت... لقد رأيتك مرّة. أنت التي زرتنا."

تجمّدت يارا مكانها، لم تفهم قصده، غير أنه تراجع بسرعة، محاولاً إصلاح الموقف،
ثم لحق بالآخرين نحو الطاولة الضخمة التي تتوسّد القاعة المهيبة.

جلست يارا في المقدمة، بينما أخذ مارلوك يعرفها بالمختارين واحدًا تلو الآخر:
".على جانبك الأيمن... سيرافينوس، مختار العالم الرابع. وعلى يسارك... السيد
أركانوس، مختار العالم السادس. أما السيدة أنيت والسيد يوجين، فهما مختارا
العالمين الثاني والثالث، ويُلقَّبون بالثالوث العظيم. أمّا أنا... فمختار العالم الأول."

ابتسمت يارا ابتسامة باهتة وقالت بنبرة واثقة متكلفة:
".سررتُ بمعرفتكم."

تمهد أركانوس، كأنّ في صدره غصّة حنق، لكنه أخفاها بابتسامة مصطنعة. أما
سيرافينوس فقد ردّ بصوت رقيق ينضح بالاحترام:
".سررنا بمعرفتك، أيتها المختارة يارا. نتمنى أن تجدي راحتك بيننا."

".أنا مرتاحة،" أجابت يارا بخجل، قبل أن يقطع اللحظة صوت أنيت الذي دوى في
القاعة، حادًا كالسيف:

".من الآن فصاعدًا يا سيد مارلوك... حين تقتحم عالمنا وتثير الفتن، احرص ألا تمسّ
ضيوفنا ولا تخطفهم بتلك الطريقة الحيوانية!"

ساد صمت ثقيل، لم ينطق مارلوك بحرف، بينما جاء صوت ماريوس من خلف يارا،
متهكمًا:

"تلك أوامر الإمبراطورة يا سيدة أنيت. وحتى لو طلبنا منكم تسليم يارا، فسيد يوجين سيعارض، لأنّ له غايات أخرى... مخفية."

عندها ضرب مارلوك الطاولة بعنف، فارتجّ المكان، وقال بصوت غاضب:
"اصمت!... أعتذر يا سيدة أنيت. لا أعرف كيف أعوّضك عن قلقك، ولا عن الأضرار التي لحقت بكم."

ثم التفت نحو ماريوس بحدّة:
"انصرف!"

لكن يارا قطعت الموقف بصوت خافت خجول، كمن يريد أن يُطفئ النار بيديه العاريتين:
"آسفة... لكن السبب الحقيقي في كلّ هذا هو أنا. لذلك سأحاول أن أعوّضكم، بقدر استطاعتي."

فالتقط أركانوس الحديد ببرود، وقد ضاق صدره:
"عذراً أيتها السيدة الحكيمة، لكن... أذكرك أنّك زرتِ عالمنا بعد محاولتكِ الفاشلة للهروب من مسؤوليتك. وبفضلك انهارت روابطنا، وفقدنا القدرة على التواصل. أليس هذا صحيحاً؟"

تشجّ الجو، لكن أنيت تدخّلت بسرعة، تبادلت نظرات ممتعة مع مارلوك، ثم قالت بحزم:

"لننسى الماضي. يارا لم تنشأ مثلنا، ولذلك كان تصرفها منطقيًا لشخص عاش مصيرها. ولا أظن أنكم قادرون على تحمّل التهميش الذي ابتليت به، ولو للحظة."

ظلت يارا تحدّق في أنيت طويلًا، قبل أن تقول بصوت يرتجف:

"أعرف أن حماقتي سببت لكم الضرر، لكنني لم أختَر ذلك... لم يكن بإرادتي."

وما إن فرغت، حتى دوى صوت يوجين وهو يضرب الطاولة بيديه غضبًا، لكن أنيت مدّت يدها لتوقفه، وقالت بحدة:

"اهدأ! لسنا بحاجة إلى أحكامك الثمينة."

ثم التفتت إلى الجميع، وأكملت بصوتٍ حاسم:

"هذا أول اجتماع تحضره يارا معنا بحضور الإمبراطورة. لذلك أطلب منكم أن تتخلّوا عن ضغائنكم... وأقصدك أنت يا ماريوس. اعتداؤك على أحد المختارين جريمة لا تُغتفر، وسأوصل هذا إلى الإمبراطورة. وحينها... سنرى قوتك التي تتفاخر بها، كيف ستبلي أمام حكمها."

اكتفى ماريوس بضحكة ساخرة:

"افعلي ما تشائين، أيتها السيدة."

لكن في اللحظة ذاتها، اهتزَّ قلب يارا فجأة. أحسَّت بسيفها ينبض داخل الغرفة، وكأنَّه يستدعيها. تجاهلت النداء بداية، لكنها ما لبثت أن ارتجفت حين تبدَّلت هالتها بشكل مفاجئ، كأنَّها استشعرت خطرًا لا يراه غيرها. انهر الجميع بما شعروا به، وقبل أن تستوعب ما يجري، ظهر السيف أمامها فجأة. مدَّت يدها تمسكه... وإذا بطاقة زرقاء باهتة تتفجّر من جسدها حين ضربت الطاولة، متحوّلة إلى عنقاء صغيرة، رفرفت بأجنحتها وسط القاعة.

صرخ ماريوس وهو يندفع لقتل العنقاء، لكن يارا صدّته بيدها، وهي تهمس:

"أشعر... بشيء غريب."

ازداد نبضها، تدفّقت طاقة هائلة من قلبها، جعلت جسدها يتلوّى من الألم. هرعت

أنيت نحوها، صارخة:

"هل اختفى الختم؟"

أجابت يارا والدم يتفجّر من أنفها:

"أظن ذلك... هذا التدفق سيقتلني، أنيت! افعلي شيئًا... أشعر أنّي سأدمّر المكان!"

تأملت العنقاء، ثم غرست سيفها في الأرض، فارتجبت القاعة حتى تساقط الغبار من السقف. تهادت العنقاء نحوها، لامست السيف، وفورًا اختفت، لينتشر ضباب أزرق كثيف. شهقت يارا:
".هل هناك... أرض جائعة؟"

تبدد الضباب، كاشفًا وجهها وقد تغطى بشقوق متوهجة تمتد من وجنتيها حتى قلميها. أنفاسها لاهثة وهي تتمتم:
".أريد أن أسحب قوتي... إلى مكان لا يُدمّر."

أمسك مارلوك بيدها، صوته مزيج من الحزم والحنان:
".تنفّسي بعمق... لا تتحامي. تستطيعين تخزين طاقتك بهدوء... فقط أخرجي من عقلك كل ما يزعجك."

ثم نظر إلى أنيت بعبوس، محذرًا:
".إذا لم تتحكم في نفسك... ستجرفنا جميعًا."

التفت بعنف إلى ماريوس:
".أحضر سيفي!"

لكن ماريوس صرخ محذراً:

"هذا سيهلكنا جميعاً!"

مع ذلك أكمل مارلوك حديثه إلى الجميع:

"يارا جزء من عالمنا. هي الوحيدة القادرة إمّا أن تحفظ السلام... أو تجلب الدمار. إمّا نتوحد، أو نموت جميعاً."

صرخت يارا وهي تنهار على الأرض، جسدها يتمزّق من الداخل:

"لا أستطيع... مارلوك! هذا مؤلم... مؤلم!"

جثت أنيت بجانبها، أمسكت معصمها برفق، وهمست:

"صفّي ذهنك. أنتِ الكون، والكون فيكِ... اسحبي طاقتك إلى فراغك الداخلي،

ستشعرين بالراحة. هيا يا يارا... هيا."

نهض مارلوك مسرعاً، جلب سيفه، وخدش معصمه، لتتناثر دماؤه الصافية على شقوق يارا، فبدأت تلتئم ببطء. لكن ذلك لم يكف. وما إن لمس السيف حتى صُعق، لكنه لم يتوقف. وضع كفه على قلب يارا، وجبينه يتوهّج ببريق كوني.

قال بصرامة إلى أنيت:

"يجب أن تستفرغ بعضًا من طاقتها... وإلا ستتحطم."

هزّت أنيت رأسها:

"طاقتها أقوى من أي شيء... محاولة استفراغها معدومة."

لكن قبل أن يكملوا، انتفضت يارا فجأة، عيناها تحوّلتا إلى لون أسود كوني، وصوت آخر انبثق من فمها:

"أبنائي... أحضروها إلى مخدع السلام... والأمان..."

ثم انقطع الصوت، لتعود يارا معلقة شرارات هائلة أسقطت الانقراض من السقف. احتفى المختارون تحت قبة من الطاقة، بينما صاحت يارا بصوت مبجوح:

"أنيت... أنا آسفة!"

وفي لحظة خاطفة، انفجر نور عظيم من جسدها، أعمى الأبصار، وأخفاها عن أنظار الجميع. عمّ الصمت، قبل أن تعود يارا لتظهر من جديد، جسدها مترنّح، والدموع تنهمر من عينيها.

تقدّمت نحو أنيت متوسلة:

"أرجوك... ساعديني!"

سألها أنيت بقلق:

"أين اختفيت؟"

أجابت يارا بصوت مبسوح، ممزوج ببكاء:

"لقد... سحبتني الحافة الكونية."

ارتجّ المكان بالدهشة، وصرخ الجميع معاً:

"الحافة؟! هذا... مستحيل!"



أنا... أنا أختنق، سأغرق في بحر الظلمات يا أنيت... في وجود لا قرار له ولا شاطئ.

شدّت آنيّت على يد يارا بقوةٍ كأنّها تتمسك بآخر خيط للحياة، فيما كان مارلوك يرفع
صوته المحطم نحو الجميع، نبرته ممزوجة بالغضب والرجاء:

– لنذهب إلى الإمبراطورة، هيا بسرعة!

لكنّ أحدًا لم يتحرك، كأنّهم تماثيل من حجر، يحدقون فيه بعيون خاوية. عندها، لم
تعدّ آنيّت تحتل ثقل الصمت، فانفجرت بطاقة جنونية خرجت من أعماقها، حتى
أنارت القصر المهدوم بنورٍ مستعر مزّق العتمة. ثم فجّرت دوامة وسط الأرضية
المهشّمة، لتندفع منها ينابيع صافية، غمرت المكان كأنّها دموع خفية للأرض نفسها.
انحنّت المياه برفق نحو يارا، تعانق جسدها وتنساب في شقوقها المتصدعة كبلسم
يرفض أن يتركها تدبل.

غير أنّ مارلوك، الذي لمح الظلام الزاحف يبتلع أطراف القصر، شعر بالخطر
الداهم. ركض نحو الباحة، فرأى طوقًا كونيًا يطبق على المكان من كل الجهات.
ارتجف صدره، وهتف مبهوتين:

– مستحيل... هذا الشرخ سيبتلع القصر خارج الوجود!

التفت نحو يارا بعينين تفيض بؤسًا، وصاح:

– يجب أن نخرج فورًا!

لكنّ آنيّت، وقد ارتجفت من الرعب، صرخت بصوت مدعور:

— لا... لا! لا بدّ أن يكون هناك حل آخر!

تقدّم يوجين بخطوات مثقلة، وعيناه غارقتان في مرارة الحقيقة، وقال بنبرة حاسمة:

— لا فائدة... حتى الإمبراطورة نفسها جُرحت حين حاولت إغلاق الشرخ. إن بقينا سنُسحب جميعًا إلى خارج الكون... لذلك اتركها، يا آنيث.

اهتزّت كلمات يوجين في وجدانها، فنهضت ببطء، ودموع الأسى تحرق عينها، وقالت بنبرة مليئة باللوعة:

— أن نهرب مثل الجرذان ونترك أحد المختارين لمصيره... هذا جبن لا يُغتفر!

مدّ مارلوك يده محاولًا إقناعها:

— آنيث... الوضع ينهار، يجب أن —

غير أنّ صوته انقطع فجأة، إذ اهتزّت الأرضية بعنف، وانشقت لتخرج منها ومضة حادة، كان سيف ماريوس. اندفع منها بجسده، ويده تقبض على يارا داخل فقاعة الماء، ثم قذفها ببرود من نافذة القصر إلى المرج الأسود في الخارج. صرخ باحتقار:

— ليس عدلاً أن نُضجّي بالجميع من أجلك، أيتها الجبانة! فلتَموتي كما متّ في حياتك السابقة!

تراجع بضع خطوات، لكن مارلوك انقض عليه كإعصار، وركله بقوة اهتزت لها الجدران. زمجر بغیظ:

— تبا لك أيها الخائن!

إلا أنّ الكارثة لم تمهله. قبل أن يصل إلى يارا الملقاة، انفجرت فوقهم حلقة سوداء، وأطلقت موجات صوتية صاخبة كادت أن تمزّق الأجساد. ارتبك الجميع، وتشتّتت نظراتهم، لكن يارا وحدها بقيت جامدة، ملامحها تحجرت كتمثال عتيق، وصوتها خرج مأساويًا يخترق السكون:

— هل أنت سعيد الآن يا ماريوس؟ ألقيت بي في الجحيم... ماذا تعني لك القوة؟ أن تجعلني قريبًا لهذا الكون العاصف؟

سقط صوتها فجأة، وذبلت حواسها، فيما جسدها تحوّل إلى بياض ناصع، تتشقق منه أزهار سوداء تزحف ببطء. صرخ مارلوك، لكن صوته ذاب في الفراغ، أما آنيث فركضت لتلحق بها، لكن جسدها تجمّد في مكانه. حتى ماريوس نفسه لم ينبّج، فقد شلّت حركته، وابتلعته الحلقة السوداء بجوع لا يرتوي.

الكل كان ينظر إلى المشهد ببرود مخيف، كأن الرحمة غادرت وجوههم. وفي اللحظة ذاتها، دوى صوت عميق من داخل الحلقة، وأطلقت خيوطها السوداء نحو جسد يارا الممدد. لكن، قبل أن تختفي، انشقت السماء بسوط عملاق مزّق الحلقة، فتجلّى من بين يارا نسيم غامض يشبه أول خيط من فجر بعيد.

سقطت يارا على الأرض هامدة، لا تملك سوى عينيها لتتبع خطوات خفيفة اقتربت منها. من بين الظلال ظهرت امرأة بهيئة ملكية، مهيبه كأنها سليلة الكون نفسه، وجهها صارم يفيض بالجبروت. تقدمت حتى تجاوزتها، ونظرت نحو مارلوك قائلة بصرامة: – استيقظ... وأيقظ الجميع.

لم يفهم مارلوك، لكنه إذ التفت رأى الموجة التي أطلقها قد أثرت فيهم بالفعل. عادت الإمبراطورة ونظرت إلى يارا، كأنها تفتش عن سر عميق في ملامحها، لكن فجأة امتدت يد خفية وسحبت يارا بعيدًا، تاركة خلفها صدى كلمة يتيمة: – لماذا؟

لم تتحرك الإمبراطورة، فقط وضعت يدها على جبين مارلوك، فسقط مغشيًا عليه، ثم نادى الطائر الأمر بصوت يفيض بالشجن: – المختارة خرجت من هذه الحدود... يجب أن نعثر عليها قبل الطامة الكبرى.

ارتفعت عيناها نحو الجمع، فرأتهما ما زالوا واجمين، حتى أنيت التي سقطت هي الأخرى مغشيًا عليها حين انهار مارلوك.

... أما يارا، فقد وجدت نفسها في فضاء سرمدي بارد، تنظر إلى العدم غير مصدقة ما يحدث. ومع ذلك، تسلل إليها سلام غريب، حتى رسم على شفيتها ابتسامة حزينة لكنها حنونة، وهمست:

— لا أريد البكاء مجددًا... لكن، أتعلم أيها الكون؟ لقد فشلت كل محاولاتي للانسجام معك... تعبت من العيش في مكان ليس مكاني.

وفجأة، تلاشى السواد، وظهر وجه الإمبراطورة وهي تحتضنها، وصوتها يخرج غامضًا:

— لم أخترك يا يارا... لم يكن بيدي، فقد خرج الأمر عن سلطتي. لم أختركِ هذا الألم، لكنك عشته... وبرهنت لي أنك تسعين للحرية مهما كان الثمن، حتى لو دفعك ذلك إلى شتات كوني مرعب.

تنهدت بعمق، ثم أضافت:

— لديك قلب جبار، لكنه في جسد هش... ورغم ذلك، قاومت، ولم تسمح لي لأحد أن يُسقطك. لماذا تواصلين الكفاح هكذا من أجل مصير مجهول؟ لماذا تريدين تجاوزي دائمًا؟

أجابت يارا، وصوتها مبحوح حزين:

— لا أعرف... أشعر أن جسدي يحمل ما لا أستطيع استيعابه. هل تشعرين بألمي الآن؟ بالطبع لا... ولن يشعر أحد ما دمت أنت مصدر الهلاك. لماذا اخترتني أنا؟ أما كان يكفيك أنيت ومارلوك وكل المختارين؟

قالت الإمبراطورة بمرارة:

– لم أترك... لكن لم يكن بوسعي تركك تعيشين بساطة لا تليق بما تحملينه. في
داخلك عالمٌ عظيم... عالم يحيل الأخضر واليابس إلى هباء، ومن ذلك الهباء تُبعث
الحياة.

شهقت يارا، واعتصرت صدرها المرتجف:

– أين أنا الآن؟

ابتسمت الإمبراطورة ابتسامة موحشة، وقالت:

– أنتِ في بداية النشأة... لقد خرجتِ من الكون، والآن... أنتِ أنت.

بدأ صوتها يتلاشى شيئًا فشيئًا مع دقائق عنيفة تضرب من أعماق العدم. حاولت يارا
التمسك بصوتها، لكن ملامح الإمبراطورة تشوهت أمامها. مدّت يدها تلمس وجهها،
غير أنّ جسدها بدأ يتلوى وسط سواد ثقيل يخيم على كل خلية فيها.

تشنجت، وذاكرتها أخذت تستحضر وجوهًا متفرقة من حيوات بعيدة، بينما السواد
امتد إلى قلبها، فانزع مكانه عروقًا من حمم لاهبة. أغمضت عينيها تستجمع قوتها،
لكن لا جدوى؛ عقلها وروحها وقلبها صاروا ملكًا لمكان لا تعرفه. همست برجاء:

— أرجوك... لا تسلب ما تبقى مني. أرجوك...

ثم سقطت فجأة، لتفتح عينيها وسط غيمتين ملبدتين بالرعد والبرق. مدت يدها
تتحسس جسدها، فاكتشفت أنه شفاف كالهواء.

تجمد البرق حولها، كأنه ينتظر أنفاسها لتأذن له بالانطلاق، بينما الرعد دوى كأنين
آلاف الأرواح المحبوسة. رفعت يدها المرتجفة نحو الغيوم، لكن أصابعها اخترقتها بلا
أثر. وفجأة، انشق الأفق إلى شق أسود لا نهائي، خرجت منه عيون متألئة كالنجوم
الحية، تحديق فيها مباشرة.

ارتجف قلبها كطبل حرب قديم، بينما الصوت يملأ الأفق:

— أنتِ لستِ ضائعة يا يارا... بل نحن من تاه فيك.

تجمدت مكانها، والعيون تتشكل إلى وجوه لمختارين من عوالم اندثرت، ينظرون إليها
بإجلال، ويهتفون بصوت واحد:

— أنتِ تحملين العالم السابع... العالم الذي ابتلعك قبل أن تولدي، والآن جاء وقت
أن يولد منك.

صرخت يارا:

– لكنني لست مستعدة! أنا مجرد فتاة!

اهتزت الغيوم، وتساقطت قطرات من نور تحولت إلى رموز كونية تحوم حولها. حتى الرعد تبدل، وصار أصواتًا بشرية تهمس من كل الجهات:

– إما أن تنسجينا... أو تدمرينا.

وبينما هي في ذهولها، انبثق أمامها جناحان عظيمان، أحدهما من الظلام والآخر من النور، يتصارعان ويتعانقان في آن، كأن الكون نفسه انقسم ليعرض عليها اختيارًا مرعبًا:

أن تنصهر مع العالم السابع وتولد ككائن يتجاوز كل المختارين...
أو ترفض، فتذوب هي والعالم الذي يسكنها في العدم إلى الأبد.

جثت يارا على ركبتها، الدموع تتساقط من عينيها الشفافتين كالندى المحترق،
وصرخت بصوت ممزق:

– أخبريني يا إمبراطورة... هل هذه هي الحرية التي كنت أبحث عنها؟

لكن لم يأت جواب... سوى صدى قلبها، الذي لم يعد قلبًا بشريًا، بل صار يقرع كجرس كوني لا يتوقف...

:

شعرت يارا بفيض من العيون تطعنها بنظرات سامة من بين الظلام الهالك

و تساقطت الرموز الكونية حول يارا في بطء شديد، كما لو أن الزمن نفسه صار
أثقل من أن يتحرك. كل رمز يلمس كتفها، يذوب فيها كهمة، وكأنه يذكرها بشيء
قديم جدًا لم تعيشه يومًا... لكنه محفور في جوهرها.

أغمضت عينيها للحظة، وشعرت أن أنفاسها لم تعد تنتهي لها. كأنها تستنشق هواءً لا
ينتهي لهذا الكون، وكأن صدرها صار بوابة لعالم آخر.

ارتجف صوتها وهي تهمس:

"لماذا أنا؟... لِمَ لم يختاروا غيري؟"

لكن الفراغ لم يجب، إلا أن العيون المتلألئة ظلت تحقق فيها، أقرب فأقرب، حتى كادت تذوب في داخلها. شعرت بثقل رهيب يضغط على كتفها، وكأن ملايين الأرواح تتسرب إلى عروقها، تبكي، تصرخ، وتضحك داخلها في نفس الوقت.

سقطت على ركبتيها ببطء، راحتها على الأرض المظلمة. لم تكن أرضاً... بل كانت نسيجاً من ضوء قاتم، كل خيط منه يرتجف مع خفقان قلبها.

رفعت رأسها، والدموع تنحدر على وجهها، لكنها لم تكن دموعاً عادية... كانت سائلة من نور شفاف، كل قطرة تسقط على الأرض تتحول إلى نجمة صغيرة ثم تختفي.

همست من جديد، بصوت أضعف:

"إن كان هذا قدرتي... فدلوني... كيف أعيش بثقل عالم كامل داخلي؟"

وفجأة... ساد صمت لم تعرف له مثيل. حتى أنفاسها تلاشت من مسامعها. وببطء شديد، انبثق صوت جديد من العدم... صوت لا يشبه أي شيء عرفته. كان صوتاً هادئاً، لكنه يطرق قلبها كالمطر الناعم:

"لا تعيشه... دعيه يعيشك."

شعرت يارا بقشعريرة تجتاحها من قمة رأسها حتى أطراف أصابعها.

و فجأة

تفتّحت العتمة أمام يارا، وإذا بالفراغ يتحول إلى بحر من ألوان سماوية لا توصف.
لم تكن ألوانًا مألوفة، بل خيوطًا من نور لا تُدركها العين البشرية، كأنها جزء من لغة
الكون السريّة.

في قلب هذا البحر، ارتفع عمود من الضوء الأزرق الغامق، ملتفّ حوله هالة سوداء
مشعة، تنبض كما لو كانت قلبًا كونيًا حيًا. وكل نبضة منه كانت تهز يارا من الداخل،
تجعل دمه يرتجف وعظامها تتشقق من قوّة لا تقاس.

مدّت يدها دون وعي نحو العمود، لكن ما إن اقتربت حتى أحسّت أن روحها نفسها
تُسحب للخارج، كأنها ليست سوى شرارة صغيرة وسط نيران لا تنتهي.

وفجأة... وفي تلك اللحظة، تجمّعت الكائنات المجهولة، لم تكن أجسادًا ولا أرواحًا،
بل أطيافاً عملاقة تسبح في الفراغ. كل طيف منها يحمل تاجًا من نور أسود، وأجنحة

ممتدة كالمجرات. كانت تراقبها في صمت رهيب، كأنها المحكمة الأبدية التي لا تعرف رحمة.

ومن بينهم ارتفع صوت مهيب، لم يخرج من فم، بل من عمق الوجود نفسه:
"أنتِ لستِ مختارة فحسب... أنتِ التي ابتلعت عالماً كاملاً قبل أن يُولد اسمك."

ارتجف جسد يارا، والدموع النورانية تتساقط من عينيها بلا توقف.

"لكن... إن كان العالم داخلي... فأين ينتهي أنا... وأين يبدأ هو؟"

سكتت الطيوف للحظة، ثم تحرك العمود الأزرق فجأة، كأنه يجيبها بنبضة عظمى.
وفي تلك اللحظة انفجرت حولها دوامة من الرموز المضيئة، التفت حول جسدها وصارت تنقش على جلدها علامات لم تفهمها، كأنها لغة الكون منقوشة عليها إلى الأبد.

وفي اللحظة الأخيرة، سمعت الهمس الأول يعود إليها، أكثر وضوحًا، أكثر أسطورية:

"أنتِ ليست ابنة عالمٍ واحد... بل جسراً نحو ولادة كونٍ جديد."

انحنى الفراغ كله، كأن العدم ذاته يركع لها.

انفجرت الأطياف العملاقة، تراجعت في صمت كأنها تسلّم الطريق لشيء أعظم.
ومن أعماق الفراغ، تفتّحت بوابة هائلة، لم تكن بوابة من حجر ولا من نار، بل قوسًا
مصنوعًا من صرخات وأحلام متكسّرة، تتدفّق منه أنفاس الكون نفسه.

وراء البوابة... ظهرت ألف عرش، مصطفّة في صفوف تمتد بلا نهاية. لم تكن مجرد
عروش، بل كأنها قبور ملوك سُجّل تاريخهم بدمائهم الخاصة. كل عرش تنقش عليه
رموز غامضة تشبه جروحًا لا تندمل، وكل رمز ينزف ضوءًا أحمر يقطر ببطء شديد،
كقطرات زمن يذوب.

ثم، ببطء مروّع، ارتفعت فوق العروش أرواح صغار... أطفال بملامح نقية، لكن
عيونهم تشعّ بحكمة آلاف القرون. حمل كل واحد منهم غصن زيتون ضخّم، أوراقه
تتألأأ بلون زمرد يخرق الظلام.

رفعوا أغصانهم عاليًا، وهتفوا بصوت واحد، كأن المجرات كلها تنطق معهم:

"نحن بانتظارك... يا يارا."

اهتزّت البوابة بعنف، وانغلقت فجأة كأنها لم تُفتح قط.
وقبل أن تستوعب يارا ما رأت، اجتاحتها نور أسود سحبها من مكانها ورمائها في هاوية أخرى.

سقطت في دوامة سوداء هائلة، جدرانها ليست جدرانًا، بل تروس ذرية متداخلة،
كأنها قفص مصنوع من أسرار المادة نفسها. كانت القيود الذرية تتشابك حولها،
تضغط على قلبها، تجعل تنفسها ينقطع لحظة بعد لحظة.

ثم... تحوّل المشهد فجأة.

وجدت نفسها ترتدي ثوبًا ناصع البياض، يتوهّج كأنه حيّ، وأمامها يقف شخص غريب.
لم يكن له وجه واضح، بل ملامح تتغيّر كل ثانية، كأن الزمن يرفض أن يثبت صورته.

ابتسم ذلك الغريب ابتسامة باردة، وقال بصوت يقطع الصدى:

"من المضحك... أنك وصلتِ إلى هنا مبكرًا جدًا، جدًا."

شعرت يارا بأن الأرض تختفي من تحت قدميها، فأشار الغريب بيده ببطء، وقال:

"انظري خلفك."

التفتت يارا... وإذا بالمكان يمتلئ بجثث.

جثثٌ لكل من عرفتهم.

وجه أمها، ساكن بلا روح.

أورافين، مطروح أرضاً وسيفه مكسور.

أنيت، عيناها مفتوحتان تحدّقان في الفراغ الأبدي.

الزولفيا، الأركانيس، وحتى من لم يكن لهم مكان في قلبها... الجميع، ممدّدون بلا حياة، كأن الموت ابتلع العوالم كلها وأعادها أمامها.

انحنت ركبتها من الرعب، وصوتها يكاد يختنق وهي تهمس:

"هذا... مستحيل."

ابتسم الغريب أكثر، واقترب منها خطوة بخطوة، حتى صار صوته يملأ دماغها:

"المستحيل... هو الشيء الوحيد الذي تبنيه ببطء داخلك، يا يارا."

تراجعت يارا خطوة، والدم يطرق في أذنيها كأنه طبول حرب قديمة.

لكن الغريب لم يتوقف، بل رفع يده إلى الأعلى، وعندها فجأة تحولت الجثث الملقاة أرضاً إلى تماثيل من رماد. تطاير الرماد في الهواء، وصار يدور حولها كإعصار هادئ، كل ذرة منه تحمل ملامح من أحببتهم.

قال الغريب بصوت يجلجل:

"هذا هو امتحانك..."

أنتِ تحملين قلب عالم كامل، لكنك لم تتعلمي بعد أن تميّزي الوهم من الحقيقة. هل ستغرقين في الحزن... أم ستستخرجي من داخلك القوة التي تليق بمن تحمل العوالم؟"

شعرت يارا بقلبيها ينقبض، ثم فجأة غُرست قيود ذرية في ذراعيها، في صدرها، وفي عينيها نفسها.

لم تعد ترى إلا سواداً حالماً، وصوت الغريب صار يتردد في أعماقها:

"إن كسرتِ هذه القيود... فستُفتح لك أبواب السابيع."

"إن فشلتِ... فلن تكوني سوى ذكرى أخرى تنضم إلى جثث الماضي."

القيود أخذت تشتد أكثر، حتى صار جسدها يرتعش من الألم. لكن وسط كل ذلك،
انبعث من داخلها صوت صغير، ضعيف... كأنه أتى من أعماق روحها:
"أنا... لستُ ضعيفة."

توسعت القيود فجأة، كأنها ارتبكت للحظة، وبذلك انشق الضوء من بين حلقاتها.
الأطفال الذين رأتهم قبل قليل ظهروا من جديد، لكن هذه المرة لم يكونوا بعيدين؛ بل
أحاطوا بها، يمدون إليها أغصان الزيتون المضيئة.
وقالوا بصوت واحد كأنهم يفتحون لها الطريق:
"الاختيار لك... يا وريثة السابع."

ستفعلين ذلك.

إنهمرت الدموع على الأرض كخناجر دامية، ثم نهضت يارا، وقالت بصرخة مكتومة:
 "مستحيل... هذا مستحيل! هذا غير عادل... غير عادل بتاتا! لقد هربت من مصير
 لأجد نفسي في نفس المكان... لماذا أكون أنا حاكمة العالم السابع؟ لماذا؟"

ترددت صرخاتها في العتمة، ثم تراجع الغريب بخطوات ثقيلة، وجلس على الفراغ
 المमित أمامها، وقال بصوت هادئ لكنه مثقل بالسلطة:

"منذ فجر البداية الكونية، وُجدت أربعة مجرات، وكل مجرة تحمل كونين، وكل كون
 يحمل عوالم شتى. لكن هناك كون لم يحمل أي عالم، لأن حاكمته ضاع أثرها بين
 ذرات الأكوان، لذلك جعلنا منك أنت البداية لهذا العالم ونبذناك في عالم فاسد...
 وملوث بالقتالات وبالأناية. لكن الإمبراطورة قبلت بك، رغم أنها لم تخترك، ولو أنها
 تركتك لتعيشين في الأرض ببساطتك، لما وجدت الطريق إلى هنا، ولما تصادفت
 وجوهنا، أيتها الحاكمة. غير أن الكون لديه طريقته في تحضير كل شيء... تركك
 وحيدة لسبب ما، وعاقبك لسبب آخر. لكن المتفق عليه هو أنك لم تكوني جزءاً من
 تلك العوالم، ولست تابعة لهم. إلا أن استحواذ الإمبراطورة على هويتك أفقدك طعم
 الحرية... جعلك مختارة رغماً عنك، ورغماً عنا، ورغماً عن كل شيء."

وأضاف بعد لحظة صمت ثقيل:

"كان العالم فيك ولم تعلني ذلك، وهذا أفضل لك، لأنك لو علمت لما تقدمت
بجسارة كل هذه المحن بقوة. لقد تركت بصمتك رغم حرصك على مبادئك. وربما
ذلك الكون اشتاق إليك كما تشتاق الأم إلى وليدها، لذلك اصطدم بالكون الآخر
محدثاً شرخاً عظيماً، تناسب منه كل الطاقات، وكأنها أرض ظمأنة، وجذبك نحوه...
وأنت الآن تسبحين في ملكك."

تنفست يارا بعمق، وأنفاسها انفجرت مع كلماتها:

"أنت مستحيل... أنا لست كما تقول! أنا ابنة أمي وأبي ورفيقة أصدقائي... أنت تكذب!
أنت تخدعني بالتأكيد... أنا ما زلت في عالمي الذي ترعرعت فيه... أنت كاذب كبير... قل
إن ذلك كذب!"

لكن الغريب أوماً برأسه ببطء وقال:

"لا... أنت في منزلك الآن، لا داعي لاسترجاع الذكريات العابرة."

قالت يارا، وهي تصرخ:

"عابرة... عابرة؟ هل تمزح معي؟ إذن هناك حاكمة ضائعة ولم تجدوا بديلة عنها
غيري... أنا لا تجعلني أضحك!"

ثم انفجرت يارا بالضحك الهستيري، حتى سقطت دون وعي نحو الظلام الكثيف،
الذي حملها إلى حقل من النيازك المتجمدة فوق كوكب أحمر. كان الكوكب عملاقاً،
يهيمن على المكان كله بظلال عريضة، بينما شعرت جسدها يتفتت كالصخور اللينة.
ثم ارتطمت بالأرض فجأة، وألمها كان يخترق كل ذرة من جسدها، كأن شفافيتها
اختفت، وطعنات تسري داخل لحمها الطري.

نظرت إلى الأعلى بخوف لتجد الغريب نفسه أمامها، وقال بصوت بارد:
"من المؤسف... أنك مزيج مأساوي من كل الأعراق. لكن أتمنى أن تمضي بك الأيام،
وتكبري في هذا العالم الذي تربى داخل جسدك الصغير... أتمنى أن تنسي ما مضى،
وتمضي في سبيل الحياة."

ثم أطلقت يارا أنفاساً ساخطة، وقالت وهي تنظر حولها:
"أكرهكم جميعاً... لأنكم ضحيتكم بي لأجل مصلحتكم، أيها الأوغاد! أكره هذا العالم،
ولن أسامحكم، لأنكم سجنتموني في الوهم... أيها الملاحين! سوف ترون... لكن هذا...
هذا... هذا!"

وتواصل نحيبها حتى غاصت في النوم. وعندما استيقظت بفتور شديد، ونظرت
حولها، ازداد بكاؤها، حتى أغرقت التراب بدموعها، وقالت:
"أريد العودة إلى المنزل... أريد العودة!"

فجأة، سمع صوت تصفيق قوي يأتي من جانبها. ركزت نظرها، لكنها لم تلمح شيئاً، ثم شعرت بيد تلمس خدها، لكنها لم تر أي شخص. وقال الصوت الأنثوي الرقيق:
"ما بال هذه الصغيرة تبكي وحيدة هنا؟"

تجمدت يارا لوهلة، وهي تستمع إلى ذلك الصوت، الذي كان يحمل رجفة أزلية، كأنه خرج من أعماق كوكب حي. أحست بيد خفية ترفعها عن الأرض، وكأن الأرض الحمراء سلمتها إلى قوة أخرى.

وبينما كانت عيناها غارقتين في الدموع، بدأت الملامح تنكشف ببطء... فتاة غامضة، شعرها يتدفق كسيل من الغبار الكوني الأحمر، وعيناها تشعان بلون السديم المتوهج. ابتسمت ابتسامة هادئة، وقالت:
"تعالى... هذا ليس مكاناً للبكاء. هنا يبدأ طريقك الجديد."

وبإيماءة واحدة من يدها، انشقت التربة الحمراء لتصعد منه جسور من صخور متوهجة، شكلت طريقاً ضيقاً يصعد نحو أعالي الجبل العملاق. كانت الصخور نفسها تتنفس، ينبعث منها بخور عطر يمزج بين رائحة الرماد والمسك، كأن الكوكب كله يصلي لخطواتهما.

صعدت يارا ببطء خلفها، وكل خطوة كانت ثقيلة على جسدها، وكأن الجبل يمتحنها ويسألها:

"هل أنتِ قادرة على حمل نفسك قبل أن تحملي عالماً كاملاً؟"

وحين وصلا إلى القمة، انكشفت أمام يارا قرية لم ترَ مثلها قط. كانت عالقة بين السماء والأرض، بيوتها محفورة داخل الصخور الحمراء كأنها كهوف منسوجة بالنور، وأسقفها مغطاة بكريستالات ضخمة تتوهج بألوان أزرق وأرجواني. كل منزل كان يتنفس مثل كائن حي، يتوهج مع نبض الأرض.

وفي وسط القرية، ارتفعت شجرة أسطورية، جذعها أسود كالليل، وأغصانها من لهبٍ بارد لا يحرق، بل يضيء السماء بوميض لا ينطفئ. وعلى أغصانها كانت هناك طيور غريبة، أجسادها من معدن أحمر، وأجنحتها من زجاج يتكسر ويعود يتشكل مع كل ررفة.

توقفت يارا مذهولة، وقلبها ما زال مثقلاً بالحزن، لكنها شعرت لأول مرة أن الهواء لا يخنقها، بل يحتضنها. رائحة البخور التي تصاعدت من الأرض كانت تذكرها بأمها، ببيتها، بالذكريات التي حاول الغريب محوها.

قالت الفتاة الغامضة وهي تضع يدها على كتفها:

"هذه هي قرية أوماريس... المكان الذي يخبئ فيه الكوكب أسرارته. نحن أبناء هذا الجبل الأحمر، نحيا بين النيازك التي تحرس سماءنا، وننتظر منذ قرون أن تأتي الغريبة التي تحمل السابع في داخلها."

ارتجفت يارا، دموعها لم تتوقف لكنها تحولت إلى دموع صامتة، وكأنها بدأت تتصالح مع قلبها. نظرت إلى القرية، ثم إلى الشجرة المضيئة، وقالت بصوت مبحوح:

"أنا... لستُ مستعدة. كل هذا يفوقني."

ابتسمت الفتاة ابتسامة غامضة، ورفعت يدها نحو السماء. فجأة، انفتحت السحب الحمراء لتكشف عن حلقات من النيازك التي تدور حول القرية كأساور كونية ضخمة. كل نيزك كان محفورًا برموز مضيئة، كأنها حكايات منسية كتبت في الحجر.

همست لها:

"لا أحد يولد مستعدًا يا يارا... لكنك لستِ وحدك بعد الآن. هذا الجبل، هذه القرية، وهذا الكوكب... سيدرك دائمًا أن العالم السابع لم يبتلعك ليدمرك، بل ليجعل منك صوته الأخير."

شعرت يارا أن الأرض تحتها تنبض مع قلبها، كأن الكوكب نفسه بدأ يتنفس معها.

وبمجرد أن وضعت قدمها على تراب الكوكب الأحمر، داهمها نعاس قهري غريب، كأن قوة غامضة تنتزع منها آخر ما تبقى من وعيها. لم تستطع المقاومة؛ أغمضت عينيها وسقطت بهدوء على الأرض التي بدت كأنها تنفّس من تحت جسدها.

انزلقت في نوم عميق، نوم لم يكن عادياً... بل سبات يمتد على حدود الزمن. في تلك اللحظات، كان جسدها يتغير ببطء. ملامحها الطفولية ذابت لتترك مكانها لامرأة ناضجة، خطوط وجهها صارت أكثر وضوحاً، وعظامها اكتسبت صلابة، وصدرها ارتفع كعلامة على اكتمالها. اختفى اللون الأزرق من عينيها تدريجياً، ليزوب في عمق عسلي متقد، بينما خصلات شعرها تحولت من البني المائل للزرقة إلى سواد حالك يلمع تحت خيوط الضوء الأحمر للكوكب.

كان العالم بأسره يراقبها. هذا العالم الذي ظل حبيساً في داخلها لسنوات، قد انفتح الآن واستعاد وجوده الحقيقي. كل كائن فيه يعرف قصتها، يعرف ألمها، يعرف رحلتها منذ أن كانت طفلة حتى صارت هذه المرأة النائمة بين ذراعي القدر. لذلك لم يتركوها على الأرض؛ حملوها بهدوء، دون كلمة واحدة، وساروا بها عبر مسالك سرية وسط الجبال الحمراء حتى وصلوا إلى قصر الملوك.

قصر شاسع، مبني من حجارة متوهجة، جدرانه تنبض كأنها دماء متجمدة، وأعمدته تعانق السماء. وضعوا يارا على سرير من زجاج أسود محفور عليه رموز قديمة، ثم انسحبوا جميعاً في صمت، وكأنهم يؤدون طقساً مقدساً.

بقيت يارا هناك، غارقة في سباتها العميق الذي امتد أسبوعين كاملين. وخلال تلك الفترة، هبت ريح غريبة في أرجاء القصر، تراكمت حول سريرها ثم تجسدت شيئاً فشيئاً في شكل أسد ضخّم، عيناه جمرتان تتقدان وسط الظلام. تقدم بخطوات ثقيلة، راقبها للحظة، ثم تحولت هيئته فجأة إلى رجل ضخّم البنية، بشرته سمراء قاتمة، وعيونه كالسواد المطلق.

اقترب منها، انحنى قليلاً ليتفحص ملامحها المتغيرة، ثم همس لنفسه:
"هذه إذن الحاكمة... لكنها لم تتحول بالكامل بعد."

سكب ماءً باردًا من قارورة حجرية فوق جبينها، فتوهج جسدها للحظة كما لو أن النجوم انعكست على بشرتها. عندها، انقضّ صقر أسود من أعالي القصر وهبط بجانبها، طوى جناحيه ونام بالقرب منها.

نظر الرجل إلى الصقر وقال بصوت جهوري:
"إياك أن تفارقها... ربما تستيقظ الليلة."

ثم جلس عند عتبة القصر، يتربع بصمت، بينما يارا ما زالت غارقة في نومها الطويل، بين حدود الطفولة التي غادرتها والقدر الذي ينتظرها.



كان القصر قديماً ومهجوراً من أي حياة، وكأن هذا العالم متروكٌ إلا من الأطلال
المتهدّمة وأجسادٍ خلدتها التربة الحمراء. بدا المكان كمدينة أشباح لا يسمع فيها سوى
صدى الريح يتردد بين الأعمدة.

استيقظت يارا، وقد داهمها شعور قوي بأنها تغيّرت كثيراً، حتى إن صوت نبضات
قلبها لم يعد مألوفاً، بدا أكثر ثقلاً وأشدّ وقعاً، وكأنه ينبض بإيقاع غريب لا ينتمي
إليها. ثم انتهت فجأة إلى وجود الصقر بجانبها، يغطّ في نوم عميق. غير أنّها لم تُعره
أي اهتمام، فقد ظلّت عيناها مشدودتين إلى مشهد الأعمدة الحجرية المنقوشة
برسومٍ عجيبة، وكأنها تتحدث بلغة خفية عن تاريخ غائب عن الوجود.

نهضت من على السرير بخطوات متثاقلة، واقتربت من تلك الأعمدة، لكن قدميها
كانتا تتشابكان وتفترقان، كأنها تسير فوق أرضٍ مترددة بين احتضانها ورفضها. ومع
ذلك تابعت المسير حتى وقفت أمام العمود الكبير، وهناك اقشعر جسدها حين
لمحت وجه امرأة فاتنة تشبهها كثيراً، وخاصة بريق عينيها الذي كان يشي بحزنٍ دفين
وتاريخٍ ساحق. عندها مررت يارا أصابعها الحنطية على النقوش التي راحت تتلون
كلما لمستها، وكأن الحجر يتجاوب مع حرارتها.

ثم وقعت عيناها على رسمة مخيفة: سبعة كواكب عظيمة، غير أن أحدها كان طاغياً على الجميع، كأنه امتصّ غيرها وشمسها وبهجتها، حتى بدت تلك الكواكب سوداء كسواد الليل الدامس. وبين الكواكب، رأت فتاة تهوي إلى هاوية عميقة، وفي تلك الهوة كانت تستعر نيران مرعبة. أشخاصٌ مجهولون وقفوا يمنعون النيران من الوصول إلى الفتاة التي رفعت يدها في شكلٍ مأساوي، وجسدها بدا محترقاً، لا من النار بل من شيء آخر غامض لا يُسمّى.

وفجأة، أحسّت يارا بصوت طقطقة عظامٍ يتردّد من خلفها، فارتجفت والتفتت في هلع، لترى شخصاً أسمر البشرة، عيناها مريبة، يكسوهما بريق غامض ينذر بالخطر. حاولت يارا أن تستوعب ما تراه، فتقدّمت لتتكلم، لكن صوتها اختفى، وكأن حنجرتها قد سُلبت.

حينها قال الرجل بعدما أمسك بذراعها بقوة:

— يجب أن تكلمي الطقوس الملكية، وبهذا سوف تسترجعين حقيقتك، أيتها الملكة.

تذكّرت يارا على الفور حديث ذلك الغريب عن كونها حاكمة العالم السابع. فارتدت متراجعة إلى الخلف، والذعر يتطاير من عينيها، وحاولت بكل استماتة أن تُخرج الكلمات العالقة من حنجرتها، لكنها فشلت.

واصل الرجل قائلاً:

— أنا اسمي فهد، وربما تجددين هذا غريبًا، لكنني كنت خادم الإمبراطورة السابقة التي اختفى أثرها... لقد عاش هذا العالم، ونحن معه، داخلك. لذلك، وبما أنك الإمبراطورة المستقبلية، يجب أن تفي بشروط الخلافة، وإلا سوف تُدمرين.

ثم أطلق ترنيمة غامضة، فاستيقظ الصقر على إثرها وحلّق عاليًا باسطًا جناحيه، حتى غمر المكان لون الشفق الأحمر. وبعد أن رمق فهد يارا مطولاً قال:

— هذا العالم لا يختار بعشوائية، بل ينتقي من يستحقه. ومن النادر أن يصمد أحدٌ أمام قوة هذا العالم. نحن شعبٌ واحد، لا غيرنا هنا، ولأننا العالم الوحيد في هذا الكون، فإننا نتحكم في زمام كل شيء تقريبًا. غير أنّ الإمبراطورة السابقة رحلت دون عودة، وقد مضى على غيابها تسعة قرون. أظنها ارتحلت إلى الكون الآخر الذي كنت فيه. ومنذ رحيلها، والخراب يهددنا، خصوصًا بعدما امتص هذا العالم سحر ويل المجنون، فصار أكثر نشاطًا وحيوية من ذي قبل. لذلك، يجب أن تسعدي ولا تحزني.

نظرت إليه يارا، وقد تملكها إحساس عميق بأنها لا تنتهي إلى أي مكان. رفعت يديها وأشارت إلى النقوش في العمود. عندها عبس فهد قليلًا، ثم أمسك بوجهها قائلاً بنبرة متردة:

— أنتِ الآن امرأة ناضجة، ومن حَقك أن تعرفي حقيقة وجودك. تلك الفتاة... هي أنتِ. لقد خلد هذا المكان العتيق ذكريات الجميع، مثل ذلك المكان الذي يسمى دهليز الأحلام. إنه غريب عند رؤيته من خلالك. نحن هنا نتوارث الذكريات من بعضنا البعض. وأنتِ، أيتها المختارة، أو لنقل الإمبراطورة، في وضع حرج بعد أن تركتِ

العوالم تختنق في دوامة مصيرك. عالم زوديا سوف يُدمّر عن قريب، لأنك - أيتها الشجاعة - قد استخدمت ما يكفي من طاقة عالمنا كي ترسخي هناك في زوديا. أنا أشعر بالأسف لتلك الإمبراطورة، ولكن ذلك كان نتيجة أفعالها المتهورة. لو أنها أطلقت سراحك، لكنت هنا منذ زمن بعيد. وهذا النقش مستقبل بعيد، لكنه سيتحقق. وما هناك في الأعلى إلا ذكرى. هذا العمود يخزن الكثير، ومن النادر أن يفهم سبب وجودها. لكن الآن... يجب أن تكلمي الطقوس. هيا بنا.

جذب فهد يد يارا وسحبها نحو المنحدر الكبير المقابل للقصر الحجري المنمق بألوان غريبة. لفت انتباهها حينها تلهّفه إلى إدخالها في سرداب كبير. دخلت يارا ببطء، وهي تتأمل الأشياء المكونة في كل مكان. ثم فجأة قدّم لها فهد بعض الملابس قائلاً:

- غيّري ملابسك، سأحضر لك الطعام.

ارتدت يارا فستاناً وردياً جميلاً طويلاً كشف عن رقبتها الحنطية وشعرها الأسود الفاحم، ثم رفعت شعرها إلى فوق وقالت في نفسها: أشعر بشيء غريب، لكنني لست متأكدة... غير أن أفكارها قوطعت حين عاد فهد وأعطاهما صحنًا مليئًا باللحم وقليلًا من المرق قائلاً:

- كلي، وسننتظر مير حتى يأتي إلى هنا.

أنهت يارا طبقها، وبعد ساعات من الانتظار وصل مير، الصقر الذي كان بجوارها طوال نومها. عندها نهض فهد، أخذ بعض الحطب وأشعلها، غير أنّ اللهب لم يخرج

دخانًا بل بخورًا قويًا عصف بحواس يارا، حتى تخذرت حركتها واستلقت بجانب الحطب، كأن شيئًا غامضًا أمرها بذلك.

ثم أخذ فهد سكينًا وزجاجة صغيرة فيها سائل قرمزي اللون، سكبته على رأس يارا وقال لها:

— يجب تطهيرك من كل ما مررت به... كل شيء سلبي سوف يتبخر مع هذا البخار الأثير. لا تقلقي، سوف تسترجعين عافيتك ولن ينالك مكروه. أغمضي عينيك.

أغمضت يارا عينيهما، وأحست بحركات فهد وهو يُدلك الهواء من حولها، ثم أدخل أطراف أصابعه في شعرها، وتمرر السكين فوق رأسها الساخن. لكن يارا لم تشعر بالحرارة، بل أحسّت بلسعاتٍ تشبه لسعات الدبور في حنجرتها. أرادت رفع يدها، غير أن فهد همس في أذنها مطمئنًا:

— لا تقلقي... استرخي.

تنفست يارا بعمق، ثم شعرت ببشرتها تتوهج، وجسدها ينتفض بقوة. كانت قوة لا تُطاق لكنها مسالمة. تجذرت تلك الطاقة في أنسجتها حتى بلغت رأسها. فتحت عينيهما لترى فهد يتصبب عرقًا، وهو يقول:

— آسف، لكن قوتك قد استنزفت كل طاقتي... من الصعب جعل تلك القوة تتوازن مع تلك المشاعر السوداوية. لذلك أرجوك، لا تشعرني بالفراغ... أرجوك.

كان وجهه محتقناً، فقالت يارا، وقد أحست بالغرابة لأن صوتها تغير:

— ماذا حصل؟

ظلت تعابير الإرهاق راسخة على فهد، لكنه تمالك نفسه واستند إلى مير بجانبه وقال:

— طاقتك ملوثة جداً. رغم أنها متشعبة في عالمنا، لكنها ملوثة بسحر ذلك المجنون. ورغم أن العالم امتصّه، ظل أثر السحر يتجول في جسدك مثل المرض. ومن بين آثاره الجانبية أنك دائماً تخافين من استخدام قوتك حتى في أبسط الأمور. لا تقلقي، لقد عالجت الأمر بطريقتي. لكن إياك ثم إياك أن تستعملي قوتك وأنت منشغلة بمشاعرك، أرجوك.

فهمت يارا من حديثه أن ما جرى ليس بالهين، وقالت بعد أن نهضت:

— إذن لقد أخبرني أن النقوش التي تخصني هي رؤية مستقبلية.

هبت نسمة عليلة على وجه فهد فشعر بالغبطة وقال:

— نعم، بشأن ذلك الموضوع... الآن لقد اكتملت الطقوس. يجب أن نفكر فيه، رغم أنك سيدتي، لكن سأقولها، فاغفري وقاحتي.

قالت يارا:

— ماذا؟

قال فهد:

– زوديا وكل العوالم سوف تنهال على بعضها بسببك، وخاصة العالم الخامس الذي وضعت فيه... لقد تركت الكثير من قوتك هناك إلى درجة أنها سببت خللاً في توازن العوالم. أنا أحذرك، طاقة التوازن خطيرة، وليس من الجيد السخاء بها في غير موضعها. وبما أنني رأيت الكثير من خلالك، أعرف أن الأمر لن يمرّ على خير. لذلك، غداً سنذهب إلى القرية، يجب أن تتشاور مع الجميع بشأن ما سنفعل.

قالت يارا بسداجة:

– أنا؟ وكيف سأفعل ذلك؟

قال بغضب، لكن ملامحه ظلت ثابتة:

– ذلك الشرخ سيسحب العوالم إلى هنا، كما سحبك أنت بالفعل. لذلك لا ترسمي هذا الوجه، يا سيدتي.

قالت يارا بجدية:

– أظهر بعض الاحترام إن لم ترد الموت.

قالت يارا هذه الكلمات بوجهٍ صارم، فضحك فهد وقال:

— لا تغضبي يا سيدتي، الابتسامة تليق بك أكثر. وجدّيا، أنت شخصية اجتماعية كثيرًا، لذلك أحبك الجميع، وخاصة ذلك المسعور.

قالت يارا:

— من تنعت بالمسعور؟

قال بعد تردد:

— ذلك الملقب بجوارا... مسكين حقًا.

قالت يارا:

— لماذا تتحدث عنه هكذا؟ وكيف لك أن تعرفه؟

قال فهد وهو يتجنب نظراتها الفضولية:

— حسنًا، أنت تعرفين أنك كنتِ تحشرين عالمًا بأسره داخل جسدك، ونحن فيه. لذلك نحن نعرف الكثير.

قالت يارا:

— إذن، إلى ما ترمي بكلامك؟

قال بعد أن ضاق ذرعًا:

— ذلك المتهور سوف يلقي بنفسه في الجحيم إن لزم، لأجلك أيتها الممتنعة... كما فعل سابقًا. وأراهن بلحيّتي أنه سيفعل، لأنه يحبك.

نظرت يارا إليه وقالت:

— هذا غير صحيح. جوارا صديقي، وما فعله كان دافعه الصداقة.

قال فهد بعد أن بلّلت وجنتيه دموع الضحك:

— آسف، لكن الرجل لا يخاطر بنفسه من أجل الصداقة... نحن هنا نفهم كيف يجري الحب أكثر من الهواء الذي نتنفسه. لذلك، لقد راهن أهل القرية على لحيّتي الثمينة إن لم يحدث شيء ما بينكما. وأنا أظن أن رجولتي ستذهب بسببكم.

قالت يارا له:

— حب إذن؟ أخبرني، هل أنتم حقًا تركتم كل شيء وراهنتم على شيء مستحيل مثل هذا؟ وعلى ماذا؟ على لحيّتك؟

نظرت يارا إلى لحيّته، ثم قالت مجددًا:

— حسنًا، إذا كان كلامك صحيحًا سأراهن على قوتي. إن أتى جوارا سوف أستخدم قوتي لفعل ما تريدونه. وإذا كان كلامك ادعاءً، سوف أحلقها بنفسني.

تصافحا الاثنان بموافقة، وعيونهما تقطر حماسًا.

ثم قالت يارا:

– أحس أن جسدي أصبح أثقل.

قال فهد وهو يتفرس فيها:

– أنتِ ناضجة كامرأة، لكن يا سيدتي عقلك ما زال في مكانه سليمًا. لذلك لا تشغليه،
ونامي... أرجوك.
